لجنة التأليف والترجمة والنشر

حياة نابليون

تأليف

حسن جلال
مؤلف كتاب الثورة الفرنسية

الجزء الاول

سلسلة المعارف العامة

مطبعة الاعتماد بمصر

فهرست الجزء الاول

رجاء الى القراء

وقعت عدة أغلاط مطبعية فى هذه الطبعة لظروف قهرية . وقد أثبتنا منها فى الجدول التالى ما رأينا ضرورة التنبيه اليه . فنحن نعتذر عن وقوعها ونرجو القارئ أن يبـــدأ باصلاحها حتى تستقيم له المطالعة بعد ذلك

وهناك أغلاط مطبعية طفيفة أخرى اعتمدنا فى عدم اثباتها على فطنة القارئ اللبيب

المؤلف

الصحيفة ص	سطر	الخطأ	الصواب
١	٥	ولكن	وكان
٢١	٢٠	ميال	مبال
٢٥	١٥	تشوقا	تشوفا
٤٣	١٢	حبذت	جندت
٤٧	١٢	ليال	ليالى
٦٩٠	١	السبل	السبيل
١٣٨	٩	الثانى	التالى
١٤٢	٧	الأمبراطورية	الامبراطور
١٥٧	١٤	أميرلاى	أميرال
١٦٠	١٠	من يبعث	من أن يبعث
١٦٩	١	من	دون
١٧٣	١٢	الاصلاح على	الاصلاح والعمل على
١٩٣	١	وعادته	وعاونته
١٩٣	١	جاء	جاد
٢٢٢	٧و٨	مطلق تصرف بونابارت	تصرف بونابرت المطلق
٢٣٧	٢	حكومة	حكومته
٢٥٢	١١	وخانت	وخارت
٢٦٥	٥	الاجتماع	الأجماع
٢٧٠	٨و٩	من تلك الاخطار	من تلك الفوضى الداخلية التى كان يعيش فيها وينقذه من تلك الأخطار

صحيفة	السطر	الخطا	الصواب
٢٧٩	٩	الا	الى
٤٨١	٤	جزاء المجتهد	جزاء للمجتهد
٣٠٠	٢ هامش	المناقشة	المنافسة
٣١٥	١١	لاجتناب	لاجتثاث
٣١٦	٢	الترتيت	التربيت

نابليون وأركان حربه

تمهيد

زعموا أن جماعة من العميان كانوا يسـيرون فى طريق فاعترضهم فيل عظيم ولم يكن لهم معرفة سابقـة بالفيلة ولا بأوصافهـا فحاروا فى أمره وأمسك كل واحد منهم بجانب من جوانبه وأخذ يصفه لأصحابه فقال أولهم وقد وقعت يده على خرطومه . « ما أشبه هذا الفيل بالأفعى ! » ولـكن جاره قد أمسك بالفيل من أذنه فمال على صاحبه قائلا : — « أولا تظن أنه أشبه بالمروحة العظيمة ! »

وكان ثالثهم قد أدرك من الفيل ساقه فتعلق بها صائحاً :

— « إنه لمن الغباوة أن لا يميز الانسان كيف أن هـذا الفيل أشبه الأشياء بجذع النخلة ! »

وكان الرابع قد وقعت يده على ذنبه فضاق صدره بكلام رفاقه . وهزّ لهم ذنب الفيل فى يده قائلا :

— « يا أيها الحمق ! أيكون هذا الفيل كالحبل ثم تقولون عنه ما تقولون ؟ ! » وعنـــد ذلك تكلم الخامس فى رزانة

وتؤدة إذ لم تعجبه دفعة صاحبه . وكان قد أصاب من الفيل نابه فأمسك به وقال :

— « فيم هذا الجدل والأمر أوضح من أن يختلف فيه اثنان ؟ وكيف عزب عن ادراككم أن هذا الحيوان أشبه بالحربة منه بكل ما تهرفون ! ؟ » وكان سادسهم قد بسط يده فأصابت جانب الفيل فمر بها عليه وهو يعجب من سوء إدراك رفاقه إذ لم يفطنوا إلى أنه كالجدار . فقال : — « كفوا أيديكم ! فليس فيكم من هو خليق بالحكم على حقائق الأشياء ! ان هذا الفيل كالحائط . وليس على ظهر الأرض من يستطيع أن يحولنى عن هذا الاعتقاد ! »

* * *

فهذا الفيل العظيم هو نابليون الكبير بشخصيته الهائلة يعترض طريق المؤرخين . وهؤلاء العميان هم طائفة من المؤرخين ضلوا فى تصويره وتفهم نفسيته . فهو فى نظر بعضهم مارد جبار يهدم العروش ويقلب الممالك ويهلك ملايين النفوس ! وفى نظر غيرهم ملاك حارس أرسله الله لانتشال فرنسا من وهدتها ونشر النظام فى أوربا وتعميم مبادىء الحرية والمساواة فيها ! وهو عند قوم ذئب كاسر

لا يعرف الا الفتك والسطو وله نظرات يتطاير منها الشرر ! وعنــــد قوم آخرين كالحمل وديع حلو الحديث أنيس وله ابتسامات ساحرة تأخذ بمجامع القلوب !

وهاءنا بدورى أمد يدى إلى هــذه الشخصية العظيمة أحاول وصفها فلعلى اذا انتهيت من هذه الرسالة لا أرانى قد انضممت إلى الصف وأصبحت . . . . . سابع العميان حول جسد الفيل !

* * *

وأنت أيها القارىء قد يكون لك صــديق مقرب إليك تلازمه ويلازمك ثم إذا بدا لأحدكما أن يتحدث عن زميله فانه قد يضل فى تصويره ويتخبط فى تحليل نفســه . وتحديد ميوله . وضبط صفاته . فما بالك بمن يتصدى للحديث عن إنسان لم يره ولم يعاصره . وخير ما بين يديه من آثاره مذكرات أو كتب كتبها عنــه أنصاره أو خصومه . فهى وحى الهوى وتصوير الاعجاب . أواملاء المقت وصدى الحفيظة ؟ ما بالك بمن يتصدى للحديث عن نابليون بونابرت وهو تلك الشعلة الآدمية الفريدة التى اندلعت فى فرنسا فبهرت الأنظار وخطفت الأبصار . وأضاءت . وأحرقت . وتقلبت عليها كل الأجواء

فعصفت بها الزعازع حتى كادت تحطم مصباحها . وهفت من فوقها النسمات حتى ذكت وكاد سناها يذهب بالأبصار !

لقد أجمع المؤرخون أو كادوا على أن نابليون كان قائداً عظيما ومصلحاً كبيراً وسياسياً حكيما وادارياً قديراً وأن له من الوقائع والأخبار ما يملأ بطون المجلدات . ولكنا ونحن نؤرخه الآن لا نريد أن نقنع بسرد معاركه وذكر أخباره . انما نريد أن ندرس حياته لنستكشف فيها أسرار العبقرية . ولنقف ما استطعنا على عوامل النبوغ ومقدمات البطولة — إن صح ان للنبوغ والبطولة عوامل ومقدمات .

نريد أن ندرس صباه لنرى كيف نشأ وبأى المؤثرات تأثر.

ونريد أن ندرس حياته وهو طالب لنرى إلى أى مناحى العلم كانت تتجه ميوله .

ونريد أن ندرس حياته جندياً لنرى كيف كان يرسم خططه وكيف كان يعمل على تنفيذها .

ونريد أن ندرس حياته قائد جنود لنرى كيف كان يعامل جنوده وبأى الوسائل نزل من قلوبهم تلك المنزلة التى تقرب من التقديس .

نريد أن ندرس حياته امبراطوراً لنرى كيف كان ينتق

رجاله وكيف كان يدير برأسه الفرد امبراطوريته الواسعة .

ونريد أن ندرس حياته زعيم ملوك لنرى كيف جمع فى ركابه عواهل أوربا وأمراءها .

نريد أن نعرف كيف كان فى حبه لجوزفين . وكيف كان فى كراهته لهدسون لو .

نريد أن نراه وسماء أوربا كلها تضيق بجناحيه العريضين . ونريد أن نراه وقد وسعته جحور سنت هيلانة وأوكارها الضيقة . وفى الجملة نريد أن نطالع عبرة من أقسى عبر الدهر ! وهى أن رجلا أقبلت عليه الدنيا وهو فى مهاوى الفاقة والعجز فأصبح ملكا وكان من بين رعيته ملوك . ثم أدبرت عنه وهو فى قمة المجد والعظمة فسار إلى المنفى وحيداً طريداً . وقد انكره حتى رجاله وتخلت عنه حتى زوجته !

الكتاب الأول

حداثة نابليون

الباب الأول

بيئة نابليون

الفصل الأول : كورسيكا
» الثانى : أسرة بوناپرت
» الثالث : أم نابليون
» الرابع : الوسط المدرسى
» الخامس : الثورة الفرنسية
» السادس : بين فرنسا وكورسيكا
» السابع : پاؤولى

الفصل الأول
جزيرة كورسيكا

تقع جزيرة كورسيكا بالقرب من الساحل الغربى لايطاليا. وهى جزيرة ذات سطح جبلى تكسوها غابات الشاه بلوط (أشجار الكستناء) وقد اشتهر أهلها بتلك الصفات القوية التى يشاركهم فيها سكان المناطق الجبلية فى كل زمان ومكان من الصلابة والشجاعة والنخوة وحدة الطبع والمبالغة فى تقدير الشرف والكرامة.

وكانت هذه الجزيرة فى أوائل القرن الثامن عشر تحت حكم جنوا بعد أن تداولتها فى القرون السابقة أيدى الحكام المختلفين من أهل بيزا وأراجون وميلان.

وإلى هذه الدول المستبدة التى تعاقبت على الجزيرة يرجع السبب فيما امتاز به أهلها من الجموح والعناد والتمرد. ولقد فشت فى ظل هذا الحكم المستبد عادة الفاندتا Vendetta. أو الانتقام الشخصى على نحو ما هو معروف الآن بين عرب الصحراء فى الديار المصرية. فكان الرجل إذا أصابه سوء

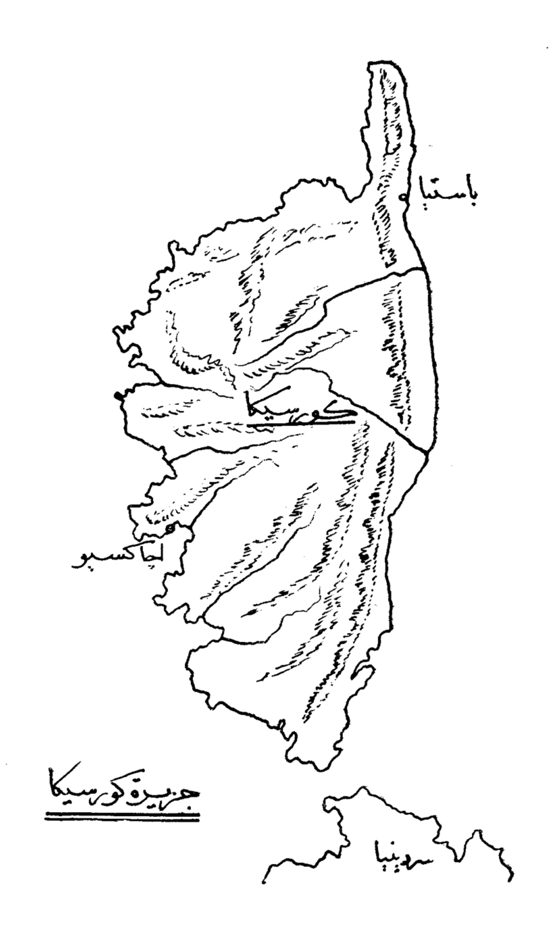
من جاره لحقه عار لاصق لا يمحوه الا أن يثأر لنفسه من خصمه بيده دون الالتجاء إلى السلطة العامة لما هو مركب فى غريزته من الاعتداد بالنفس والاستخذاء من طلب النجدة ممن كان خارجا عن دائرة الأسرة .

ولقد كانت تلك الحكومات فى الواقع قليلة العطف على رعاياها من أهل الجزيزة . فلم تكن تحفل بادخال تشريعات أرقى من تلك الشرائع العتيقة . بل أنها كانت تشعر بشىء من الارتياح إلى تفشى عادة الفاندتا بينهم لينصرفوا عن مناوأتها الى اشكالاتهم الخاصة ولتستنفد هذه المشاجرات جهودهم فتبسط الدول الحاكمة يدها إلى خيراتهم وأرزاقهم تسلبها وهى فى مأمن من اعتراضهم لها أو تمردهم عليها . بيد أن ما لاقاه أهل الجزيرة أخيراً على أيدى حكامهم الجنويين من ضروب العسف والارهاق أهاب بهم الى الانضواء تحت لواء واحد لمقاومة هذا الحكم المجحف الثقيل . فلقد أثقلت عليهم حكومة جنوا فى فرض الضرائب المختلفة وسدت فى وجههم طريق الوصول إلى أى منصب من المناصب الادارية . وتركت سواحلهم نهباً لحملات القرصان المتكررة حتى أن الأهلين لم يجدوا بداً فى أول الأمر من اخلاء

السواحل الخصبة والاعتكاف فى أواسط الجزيرة القحلاء أو الفرار إلى الجزائر المجاورة .

ومازال يتلقى علم الثورة ضد حكم جنوا زعيم وطنى يقوم من بعده زعيم حتى انتهى الأمر إلى پاسكال پاؤولى Pascal Paoli الذى استطاع أن يعيد الى الجزيزة شيئاً من النظم المدنية ويقضى على كثير من مساوىء الادارة فيها . وقد ساعده فى كل ذلك ماأدرك جنوا من الانحلال والشيخوخة وصيرورة سيادتها إلى الضعف والزوال .

غير أن جنوا ما كادت تحس بتقاص نفوذها عن الجزيرة حتى تفاوضت مع فرنسا على أن تبيعها حق ملكيتها لها وتمت الصفقة بينهما فعـــلا فى ١٥ مايو سنة ١٧٦٨ . فما لبث أهل الجزيرة أن رأوا أنفسهم وجها لوجه أمام سيد جديد يفوق فى نفوذه وسطوته ذلك السيد القديم الذى لم تكمل فرحتهم بخلع نيره عن أعناقهم . فقر قرار پاؤولى وحزبه على أن يقاوموا هذه السيادة الجديدة . فكان من أنصار پاؤولى الذين اشتركوا معه فى تقرير هـذا الرأى سكرتيره كارلو بوناپرت والد نابليون بوناپرت بطل هذا الكتاب وأمبراطور الشعب الفرنسى فيما بعد .



جزيرة كورسيكا

الفصل الثانى

أسرة بونابرت (والد نابليون)

لم تخرج أسرة بونابرت عن كونها وحدة من وحدات المجتمع الكورسيكى الذى أتينا على وصف شىء من خواصه فى الفصل السابق . فكانت تتمثل فيها تلك الصفات التى كان يفاخر بها كل كورسيكى من اعتداد بالنفس وصبر على الشدائد .

ولكن ما زال بين والدى نابليون من الفوارق الخلقية ما يجعلنا نفرد كلمة لكل واحد منهما .

فأما أبوه (كارلو بونابرت) فكان من سلالة أسرة ايطالية شريفة عريقة فى النسب . فورث عنها اسمها الشريف . ولكن لسوء الحظ لم تكن تتوفر لهــــذا الاسم ملحقاته من الثروة والوجاهة ورفعة المقام فلم يأل الرجل جهداً فى الحصول على كل مايتفق مع هذا الاسم من الجاه والثروة وكان لا يستنكف فى سعيه أن يصل إلى غايته بالمداهنة ومصانعة أولى الأمر لينال الحظوة عندهم ويكون مقرباً اليهم . وقد طوحت به مطامعه الواسعة فى مغامرات مالية جرت على أسرته من بعده أشد الارتباكات .

ولقد حصل كارلو هذا على شهادة فى القانون من جامعة بيزا وتزوج وهو فى التاسعة عشرة من عمره بفتاة لم تكن تجاوزت سنتها الخامسة عشرة ولكنها كانت نامية الجسم يحسبها الناظر اليها قد بلغت العشرين . ولقد كانت تلك الفتاة فى جمالها فتنة أهل كورسيكا قاطبة حتى لقد تنافس فيها المتنافسون من شبانها الاكفاء . فاستبقهم اليها فى تلك السن المبكرة كارلو اللبق اليقظ فولدت له غلامين ماتا فى طفولتهما ثم رزقت منه يوسف بكر أبنائها الأحياء .

ولم تكد تنتشر دعوة پاؤولى فى جزيرة كورسيكا بوجوب القيام فى وجه فرنسا التى اعتدت على استقلالهم بابتياع وطنهم من جنوا حتى كان كارلو وزوجته الحسناء فى مقدمة الملبين لنداء الوطن . وركبت جوادها الى جانب زوجها وشاطرته كل مخاطر القتال . وعلى الرغم من كل ما أبداه أهل الجزيرة من ضروب البسالة فى مقاومة فرنسا فأنه لم يكن من الصعب التنبؤ بمصير كورسيكا — إذ استتب الأمر فيها لفرنسا فى صيف سنة ١٧٦٩ وغادرها بسكال پاؤولى هو وزعماء حزبه الى لجهورن (إيطاليا) ثم الى انجلترا .

وبعد ذلك بنحو ثمانية أسابيع ولد نابليون بوناپرت فى



شارل بوناپرت

اجا كسيو (١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩) ورأى كارلو أن الحكمة « الوصوليـــة » تقضى بموالاة الحكومة الجديدة فنجح فى الحصول على رضائها ونال الحظوة عند حاكم الجزيرة الفرنسى وانتهى به الأمر أن انتخب عن هيئة أشراف الجزيرة ليكون ممثلا لهم فى بلاط فرساى. وكان المستقبل بساماً لمثله لو أنه عاش حتى أدرك الثورة الفرنسية كما أدركها وفاز فيها غيره من الأشراف المفلسين. ولكن المنية عاجلته وهو فى ريعان شبابه فقضى نحبه (١٧٨٥) فى مونبلييه وهو دون الأربعين. وكان قد ذهب اليها مستشفياً من سرطان المعدة ولكنه مات به كما مات به من بعده ولده نابليون.

٭٭٭

ولقد كان كارلو شديد الحب لابنه نابليون وكان يختصه بالعطف والملاطفة دون سائر اخوته. ويرى فيه ببصيرته الأبوية أنه سيكون زعيم كورسيكا. وكذلك كان نابليون شديد التعلق بوالده وكان يحبه حباً جما حتى أنه لما مات بعيداً عنه فى مونبلييه بسبب وجوده هو فى المدرسة بباريس ظل زمانا يندب سوء حظه لحرمانه من توديعه بنظرة أخيرة ومن تشييعه إلى مقره الأبدى مع جماعة المشيعين.

الفصل الثالث

أم نابليون

ورث نابليون عن والده الناحية البراقة من شخصيته . فهو مدين له بالطموح والعمل على كسب الشهرة وحب الظهور . ولكنه مدين لوالدته بجوهر شخصيته . مدين لها بالثبات والعزم والثقة بالنفس ومجالدة الخطوب . ومدين لها بالنظام والدقة وحسن التدبير . مدين لها بالشجاعة والاقدام وقوة القلب . مدين لها بهذا كله وبغير هذا من تلك الدعائم الخلقية الراكزة التى قام عليها بنيان مجده الشاهق .

كانت أم نابليون تدعى ليتيشيا رامولينا فهى من سلالة بيت رامولينا الماجد العتيق وهو بيت مشهور فى تاريخ كورسيكا بمتانة أخلاق أفراده ووفرة النابهين منهم . ولقد مات أبوها قبيل زواجها بسنوات فكفلها زوج أمها الجديد وهو رجل سويسرى من أرباب المصارف فشبت بين يديه على مبادىء الدقة وحسن التقدير وضبط الحساب وأضافت بهذه الصفات النافعة ثروة جديدة الى كنز جمالها الذى حبتها



الوالدة العظيمة
مدام بونابرت (ليتيشيا رامولينو)

به الطبيعة فجعلتها ملء عين الجميع .

ولم تكد ليتيشيا تتجاوز سنتها الرابعة عشر حتى تهافت عليها شبان كورسيكا من كل حدب يطلبون يدها طمعاً فى جمالها وكمالها ففاز بها دون نظرائه سيد شبان تلك الجزيرة فى الرشاقة والذكاء كارلو بونابرت وتم زواجهما سنة ١٧٦٤ .

وعلى الرغم من انتماء زوجها الى أسرة شريفة عريقة فى النسب إلا أنه لم يكن ذا ميسرة فتجلت من البداية مواهب عروسه الاقتصادية وعاش الزوجان فى هناء عائلى مدة عشرين سنة أنجبت ليتيشيا فى خلالها ثمانية أبنـــاء منهم خمسة ذكور وثلاث أناث — أو قل ثمانيـة أبناء منهم أمبراطور وثلاثة ملوك وملكة واحدة ! وكان نابليون ثانى أبنائها الذكور . ولما مات زوجها لم يخلف لهذه الأسرة الكبيرة إلا مِلكا صغيراً يتراوح ريعه بين الألف والالف وخمسمائة فرنك فى العام . فاحتملت ليتيشيا أبناءها وعادت بهم من أجاكسيو الى الريف حيث أقامت زماناً وهى تتمتع برعاية شقيق زوجها — لوسيان — غير أن المقادير أبت ألا أن تفجع الاسرة مرة أخرى فى عائلها الجديد فمات لوسيان هذا تاركا خلفه ليتيشيا وأبناءها تكافح الفاقة وحدها ولا تجد ذراعا تستند اليه .

واليك ما كتبه نابليون نفسه عن ذكريات هذا الموقف الرهيب :

« دعانا عمنا اليه وهو على فراش الموت . ثم باركنا ودعا لنا دعوات صالحات وقال مخاطباً أخي يوسف :أنت يا يوسف أرشد العائلة ولكن لا تنس أن نابليون رئيسها ! — ثم لفظ نفسه الاخيرة وسط عويلنا ودموعنا التي استدرها هذا المشهد الفاجع . أما والدتي فأنها رأت نفسها بعده بغير هاد ولا نصير فلم يكن بد من أن تدير بنفسها دفة الامور . وما كان ذلك على همتها بعزيز . فأنها تولت جميع أمرنا . وأعدت لكل شيء عدته بعناية عظيمة لا يمكن أن يتوقعها الانسان ممن كان من مثل جنسها أو في مثل سنها . يالها من سيدة ! وأين يجد الانسان لها شبيها أو نظيراً ؟ لقد كانت تكلؤنا بعين لا تنام بل ولا تغمض وكانت تقاوم في نفوسنا كل عاطفة خبيثة وكل نزعة شريرة . ولم تكن تسمح لشيء أن يستقر في أذهاننا الفتية إلا أن يكون سامياً وعظيما . وكانت تمقت الكذب . ولا تطيق أن ترى واحداً منا يخرج عن طاعتها قيد شعرة . ولم تكن تغضي عن هفوة نرتكبها مهما صغر شأنها . ولقد حلت بها الخسائر الفادحة فما ابتأست ! وعضها الفقر بنابه فما

طاطات رأسها ! وأجهدتها المتاعب المضنية فماأدركها الاعياء ولكنها احتملت كل شيء ووقفت في وجه كل شيء ! لقد كانت لها همة الرجل وعنفه تمازجها رقة المرأة ولطفها ! »

تلك كانت أم نابليون كما يصفها هو . ولا ينبئك مثل خبير ! وفى الحق لم يكن لمثل نابليون أن يخرج الا من أحضان مثل هذه الأم — أستغفر الله ! بل هذه « الا كاديمية » — فقليل على مثل لبتيشيا أن توصف بأنها « أم » فتشترك معها فى هذا الوصف كل من أرضعت وليداً !

وما دمنا بصدد الكلام عن ليتيشيا فلا بد لنا من أن نشير إلى أنها ان كانت مدينة بقسط من أخلاقها إلى نظام المجتمع فى كورسيكا . وبقسط آخر إلى زوج أمها السويسرى وبقسط ثالث الى عوامل أخرى فانها مدينة بشيء كثير لجمالها . وذلك لأن الجمال كما لا يخفى يكسب صاحبه شيئاً كثيراً من الكبرياء والدالة بسبب ما يراه حوله من اشارات الملق ووسائل التقرب فمهما كان تواضع الفتاة الجميلة فانها لا تلبث أن تجد نفسها قد تربعت فوق كرسى السيادة الذى رفعها اليه إعجاب المفتتنين بها . وهكذا يخلق الجمال لصاحبه دولة رغم أنفه ثم يجلسه على عرشها . فلا غرو أن نرى بعد ذلك فى ليتيشيا تلك

الصفات الملكية وذلك الخلق النبيل الذى كان يشع عن شخصيتها الجذابة فى كل أقوالها وأفعالها . ولقد ظلت هذه السيدة محتفظة بشىء كثير من جمالها حتى آخر أيامها مع أنها عمرت حتى قاربت التسعين .

ومما يحلو ذكره عن هذه السيدة الجميلة صاحبة السيرة الحلوة أنها ظلت عمرها لا تجيد الفرنسية . وأن ابنها نابليون بعد أن أصبح امبراطوراً وفتحت له أبواب الثروة على مصاريعها . أغدق عليها النعم وأمطرها وابلا من ذهبه وفضته . ورتب لها مرتبات جزيلة . غير أنها لم تكن تغترف من هذا البحر الزاخر الا بقبضتها الضيقة الأولى التى أمسكتها سنى الفاقة الطويلة . وأيام الحاجة المرة التى قاستها فى بدء حياتها وبقى الرعب الذى تسلط عليها فى عسرها الأول ماثلا أمام عينيها بقية عمرها يمنعها من الاسراف والعمل على كسب القلوب بالهبات والصلات .

وعلى الرغم من منح ولدها لها لقب « Madame Mère » وهو لقب يقربه إلى أذهاننا لقب « والده باشا » الذى تعودنا سماعه هنا فى مصر فانها عاشت فى عزلة باعدت بينها وبين قلوب الشعب الذى تملك ولدها عواطفه !

الفصل الرابع

الوسط المدرسى

تحدثنا عن كورسيكا وعن أهلها . وأتينا على شىء من تاريخها فى القرن السابع عشر فاذا هو سلسلة من المعارك المتصلة قام بها أهل هذه الجزيرة فى وجه جنوا أولا ثم فى وجه فرنسا ثانياً . وذكرنا كذلك أن نابليون بونابرت ولد على أثر هذه المعارك وغبار الحرب ما زال يملأ جو الجزيرة فكان اول ما استنشقه مع نسيم هذه الحياة ونشأ تحيط به أخبار القتال من كل جانب حتى أن القصص التى كان ينام على سماعها كل مساء وهو فى حجر أمه لم تكن تعدو سرد ما وقع لها هى وزوجها من الحوادث إبان تلك الحرب وما كابدته فيها من المصاعب والأهوال والعدو من ورائهم يطاردهم من قرية إلى قرية ومن جبل إلى جبل . ولقد تملكت هذه القصص نفس نابليون منذ حداثته إلى حد أنه لما شب وترعرع لم يكن يلذ له من ألعاب الطفولة إلا أن

يمثل هذه المعارك مع الصبية الذين يلاعبونه . وكان له مدفع صغير من النحاس يزن نحو ثلاثين رطلا لم يكن أحلى فى أذنه من وقع قصفه حين يطلقه فى الفضاء ويتخيل فيالق العدو وهى تفنى فى دخان بارووده . . ! وما يزال السائح الذى يزور كورسيكا اليوم يقوده دليله إلى مكان هذا المدفع كما يقوده إلى مكان أثرى آخر يعرف باسم « كهف نابليون » وهو جحر صغير فى صخرة عاتيَة على شاطىء البحر كان يأوى اليه نابليون فى صباه لينفرد فيه بنفسه وليرقب منه أمواج البحر المصطخبة وهى تتكسر على الساحل — تلك الأمواج التى كانت آخر ما بقى له فى جزيرة سانت هيلانة لما حرمته السياسة الانجليزية حتى رفاقه القلائل الذين تطوعوا بحمل آلام النفى معه .

« ا » مدرسة اجاكسيو الاولية :

ولم يكد يبلغ نابليون السادسة حتى أدخله أبوه إحدى المدارس الأولية فى أجاكسيو ليتعلم مبادىء القراءة والكتابة وما إليهما من العلوم التحضيرية . وعلى الرغم من نعومة الوسط فى مثل هذه المعاهد الأولية فان نابليون انفرد بين

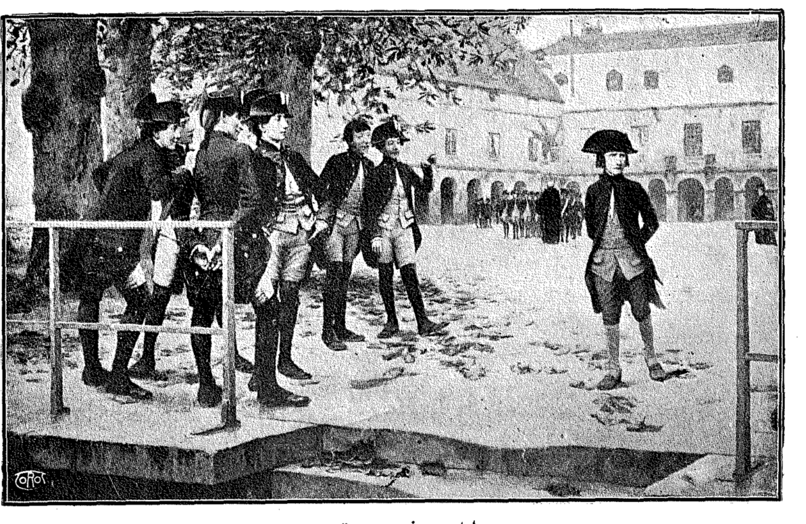
رفاقه بشيء من الشذوذ والتهور . وكان فى تلك المرحلة من عمره بعيداً كل البعد عن حسن الهندام فكان لا يرى إلا وجواربه ساقطة على حذائه ولكنه كان شديد الولع بصبية كانت معه فى المدرسة فكان دائماً يماشيها فى أوقات الفراغ وقد أمسك كل منهما بيد صاحبه . ويغلب على الظن أن منظر جواربه المدلاة لم يكن يروق زملاءه لا سيما وهو يماشى رفيقته هذه فكانوا يسخرون منه ويجتمعون خلفه هازئين منددين . وكان هو يتغاضى عنهم ويتجاهلهم حتى اذا أسرفوا فى كلامهم واهتاجوه ثارت فى دمه كل طبائعه الكورسيكية وانقض عليهم كما تنقض الصاعقة غير مبال بجمعهم ولا مكترث بعواقب هجومه . وأعمل فيهم أطرافه الأربعة صفعاً ولكما ووكزاً — كل ذلك بسرعة وصرامة تكفلان له إلقاء الرعب فى قلوب غرمائه وتشتيت جمعهم . وعند ذلك يعود وعليه كبرياء النصر إلى صديقته ليضع يده فى يدها من جديد !

ولقد كان هذا الجموح البادى فى طبعه سبباً فى أن يرشحه أبوه للجندية فما كاد يبلغ العاشرة من عمره حتى سعى أبوه فى سبيل الحصول على توصية لدى ولاة الأمور فى فرنسا

لالحاقه باحدى مدارسها الحربية . ولكن جهل نابليون باللغة الفرنسية قضى بادخاله أولا مع أخيه يوسف فى مدرسة أوتان « Autun » حيث قضى بضعة شهور فى تلقى أصول هذه اللغة ليتمكن من متابعة دروسه بها فى مدرسة برين الحربية .

« ب » مدرسة برين الحربية Brienne

وكان فى فرنسا فى ذلك الوقت اثنتا عشرة مدرسة حربية ابتدائية ينتقى سنوياً من بين تلاميذ فرقها النهائية ثلاثة طلبة عن كل مدرسة يرسلون لتتميم دراستهم فى مدرسة باريس العليا . وكانت مدرسة برين واحدة من تلك المدارس الاثنتى عشرة . وكان تلاميذها كتلاميذ بقية المدارس الحربية من أبناء الأشراف المترفين الذين يستنكفون من دخول المدارس الأخرى الخاصة بتخريج الأطباء والمحامين والمهندسين وغيرهم لأنه كان من دواعى الزراية فى ذلك الجيل الارستقراطى أن يحصل الرجل على المال بكدح يده وعرق جبينه . وكانوا يقضون وقتهم فى هذه المدرسة لاعبين هازلين وكانوا يتفاخرون بالاسراف والتبذير كما يتنافسون فى الألقاب والأنساب . فدخل بينهم نابليون — وأبوه محام



نابليون فى مدرسة برين

كورسيكى — نخسر المعركة من أول طلقة ! وانضم الى صفوفهم وجيوبه أخلى من فؤاد أم موسى فكان موضع استهزائهم وتحقيرهم ; ولو أن شاباً غيره وفى مثل رقة حاله ألقى فى مثل هذا الوسط الأرستقراطى لصغرت نفسه ونشأ على الملق والعبودية وانطفأت عزته أمام تلك المظاهر الوجيهة التى كانت لزملائه من دونه . ولكن نفس هذه المظاهر هى التى حركت عزة نابليون وهاجت كبرياءه وملأت نفسه سخطاً على ذلك النظام الذى يسود فيه الانسان لمجرد الصدفة بحكم مولده ولا يقام فيه وزن للكفاءة والجد . ولقد لاقى نابليون من الهوان بسبب هذه الفوارق بينه وبين زملائه ما جرح فؤاده الصغير . وملأ قلبه حقداً على هذا الشرف الموروث . وجعله فى أيام عزه ومجده يتعصب للكفاءة دون النسب ويرفع قدر أهلها فوق كل اعتبار .

وهكذا قضى نابليون سنى دراسته الأولى غريباً فى وسط زملائه يتجافاهم ويتجنب مجالسهم خجلا وأنفة . ولما لم يجد بينهم رفيقاً يأنس إليه القى بنفسه بين أحضان كتبه فانتفع بكثرة الدرس . وتفوق على أقرانه وأصبح له ما يتيه به عليهم إن تاهوا عليه بمالهم ومظهرهم الوجيه !

ولـكن هـذه العزلة القاسية التى التزمها نابليون وذلك الجد المتواصل . الذى أبداه فى الدرس والتحصيل قد طبعا جسمه بطابع الضعف والهزال وبقى متأثراً طول حياته مما خلفته له هـذه السنوات الخمس التى قضاها فى برين . وهو مدين ولا شك بقصر قامتـه وضئولة جرمه وضخامة رأسه إلى تلك الجهود الجبارة التى كان يبذلها وهو بعـــد صبى لم يكتمل نمو جسمه .

وكانت أحب الدروس الى نابليون دروس الرياضـة . وقد برع فيها منذ صغره براعة جعلته موضع اعجاب أساتذته أنفسهم فكانوا يقربونه اليهم ويدعونه إلى موائدهم الخاصـة تـكريماً له وتنويهاً بمقدرته وكان يميل بعد ذلك إلى الجغرافية ودراسة الخرائط . ولـكن كتب التاريخ هى التى كـانت تستهويه وتستغرق كل حواسه بما تحويه من أخبار قيام الدول وسقوطها وأسباب رفعتها وعوامل انحطاطها . ومن الـكتب الممتازة التى كانت موضع تفكيره المتواصل كتاب « الموازنة بين الأبطال » الذى وضعه بلوتارك . فان نابليون وجد فيه المادة الدسمة التى كان يسيل لها لعـابه بما تضمنه من قصص أبطال اليونان والرومان وذكر أخبارهم والتحدث عن

جهودهم وما وصلوا اليه من الرفعة والكرامة بفضل نبوغهم فكان يعب عبا فى هـذه القصص وكان يخفق قلبه لمطالعتها تشوقاً إلى ذلك اليوم الذى ينفسح له فيـه الطريق لمسايرة هؤلاء الأبطال فى سبيل العظمة والشهرة والخلود .

* * *

وحلت سنة ١٧٨٤ وهى السـنة الأخيرة لنابليون فى مدرسة برين وتصادف أن جاء شتاؤها قارساً كثر فيه هطول الثلج حتى تغطت أرض المدرسـة واكتسى فناؤها بكسوة كثيفة منـه تعذر معها قيام الطلبة بشىء من ألعابهم العادية فركدت أعضاؤهم وانقبضت نفوسهم وعنـد ذلك خطر لنابليون أن يقيم من هـذه الثلوج حصناً صناعياً يحيطه بالأبراج والأسوار ويقيم دونه الخنادق والمتاريس ثم يقسم طلبة المدرسـة إلى فريقين يتحصن أحدهما داخل الأبراج ويهاجمـه الآخر من الخارج . وراقت الفـكرة لدى ولاة الأمور فوكلوا اليه أمر تنفيذها .

وهكذا أصبح نابليون فى لحظة واحدة يجد المدرسة كلها تحت أمره فأخذ فى توزيع العمل على أفرادها ووقف بينهم يصدر أوامره وتعليماته ويشرف على كل جزء يتم فى هـذا

المشروع حتى قام كل شيء وفق إرادته . ولقد بلغ من احكام التصميم أنه استرعى أنظار أهالى المدينة فكانوا يقصدون أسوار المدرسة ليشاهدوا من خلالها ذلك التخطيط الثلجى البديع .

وبدأت المعركة ولم يكن نابليون مع أحد الفريقين ولكنه جعل مهمته تسيير الحرب وتوزيع أعمالها بين القسمين المتحاربين. فكان يتولى قيادة المهاجمين حتى إذا انتظمت حملاتهم وحمى وطيسها طار إلى قوة الدفاع يحضهم على الثبات والمجالدة حتى تكل وتفتر قوة الهجوم وهكذا ظل يتنقل من جانب إلى جانب واستمرت المعركة قائمة عدة أسابيع وهو فى كل أدوارها موضع اعجاب الجمع . ولقد بلغت صرامة نابليون فى تنفيذ أوامره أن ضابطاً فى هذه المعركة التمثيلية تردد فى إطاعة أوامره فما كان منه إلا أن ألقى عليه مقذوفا ثلجياً ألقاه على الأرض وتسبب له فى جرح بقى أثره فى جسمه مدى حياته .

ولعل من الانصاف بعد ذلك أن نذكر أن هذا الطالب بعينه تنكرت له الأيام بعد خروجه من المدرسة وضاقت به سبل العيش وكان نابليون إذ ذاك فى أوج عظمته فقصد اليه وطلب مقابلته قائلا إنه كان زميلا « للأمبراطور » فى برين

فلم يذكر نابليون اسمه وكلف حاشيته باستيضاح الزائر عن شخصيته فعاد اليه أمينه قائلا — « يامولاى أن للرجل جرحا طويلا فى جبهته يقول أنه أصيب به من يد جلالتكم » فتذكر نابليون وقال باسماً — « أجل . أنى أتذكر ذلك الجرح جيداً ؛ أدخلوا الرجل . » — ودخل الرجل وأجابه زميله القديم إلى كل ما سأل .

وتذكرنا هذه الحكاية بحكاية أخرى وقعت لنابليون مع مدرس الخط الذى كان يعلمه فى برين . فلقد لاقى هذا المدرس من تلميذه الجامح كل مشقة فى تقويم يده وذلك لأن خط نابليون كان من الرداءة بحيث لا يقرأ . وعالجه الأستاذ بكل الوسائل ولكن على غير جدوى وأخيراً يئس منه وترك حبله على غاربه وفوض أمره لله فى خيبة أحد تلاميذه . ومرت على ذلك السنون والأعوام وساءت حال الرجل فلم ير أمامه غير « تلميذه القديم » فقصده . وكان نابليون فى ذلك الوقت مع زوجته جوزفين فى سان كلو فأدخل عليه الرجل وهو ينتفض فرقا خشية أن تكون زيارته قد أزعجت خاطر الامبراطور . ولمح نابليون منه ذلك فأراد أن يستغل الموقف للتفكه قليلا على حساب هذا الأستاذ البائس . فنظر اليه

متظاهراً بالغضب . فازداد ارتباك الرجل وهو يقدم نفسه اليه قائلا أنه كان مدرس الخط فى برين . فاستمر نابليون فى إدعاء الغضب وقال : « حقاً ، لقد كنت تعلمنى الخط . فياحسن ما أنجبت ! ؟ هذه جوزفين عندك فتفضل بسؤالها عن رأيها فى خطى الذى علمتنيه ! » . . . .

وعند ذلك ابتسمت الامبراطورة بما هو مشهور عنها من الرقة واللطف الذى أكسبها قلوب الجميع قائلة « أؤكد لك ياسيدى أن خط الامبراطور من أحلى الخطوط ! »

فقهقه نابليون لسماع هذه الشهادة الجريئة ورتب للرجل البائس معاشا يستعين به على ما بقى من أيامه .

« ج » مدرسة باريس الحربية

وفى أكتوبر سنة ١٧٨٤ كان نابليون من بين تلاميذ مدرسة برين الذين وقع عليهم الاختيار ليدخلوا مدرسة باريس الحربية . فدخلها فاذا هو أمام وسط ارستقراطى أدهى من وسط برين وإذا لكل طالب من زملائه خادم خاص يقوم بخدمة حصانه وصقل سلاحه وتنظيف حذائه وإذا هم يتناولون فى غذائهم أشهى الاطعمة ويتقلبون فى نومهم على

توقيع نابليون

أوثر الفراش فافتتح نابليون عهده فى هذه المدرسة بتقديم تقرير شديد اللهجة إلى ادارة المدرسة نبه فيه إلى أن هذا النظام لايمكن أن يؤدى إلى تخريج ضباط يصلحون لخوض المعارك وركوب أهوالها وقال بوجوب تعويد الطلبة الخشونة فى كل مرافقهم محبذا تولى كل طالب أمر نفسه يخدم حصانه بيده ويصقل سلاحه بنفسه ويقوم بكل ما هو مطلوب منه غير معتمد فى ذلك إلا على جهوده الخاصة ليشب على حب العمل وليتبدد من ذهنه ذلك الزهو الكاذب الذى يملأ عادة رءوس الضباط الصغار ويجعلهم بمعزل عن جنودهم فى حين تقضى المصلحة بالاقتراب منهم والاتصال بهم .

ولقد رأى نابليون فى هذا الوسط الجديد أن لابد له من أن يعتصم بما اعتصم به فى برين من الرزانة والاعتكاف والاكباب على المطالعة والدرس ليدفع عن نفسه ذلك النظر الشزر الذى كان يصوبه نحوه أقرانه .

ولقد كان بسبب ضمور جيبه وتعاسة هندامه كثير الهموم حتى لقد قال بعد ذلك (سنة ١٨١١) فى وصف هذه الأيام .

« إن تلك الهموم كدرت على صفاء الشباب وأثرت فى طبعى وأكسبتنى الرزانة قبل أوانها ... »

وكان مما زاد فى هموم نابليون فى ذلك الحين وفاة والده سنة ١٧٨٥ فقد حزن لفقده حزناً أليما لما كان يرجوه من الخير والمعونة على يديه بعد خروجه من المدرسة وقد صرح بهذا المعنى تصريحاً فى رسالة بعث بها إلى عمه على أثر الوفاة حيث قال — « ... واءسفاه لقد كان كل شيء يدلنا على أن الفقيد سيكون نعم العون لنا فى زمن الشباب . ولكن الله لم يرد أن يبقيه لنا . وارادة الله نافذة لا مرد لها وهو وحده القدير على أن يلهمنا الصبر عنه والسلوان » .

أما أمه فقد كتب اليها يقول :

« أى أمى العزيزة ! تعزى واصبرى فان الأحوال توجب علينا العزاء والصبر وسنضاعف نحن العناية بك والاعتراف بجميلك . فاذا وفقنا إلى تعويضك بعض الخسارة فى الفقيد العزيز كنا سعداء الطالع . »

وكأنما ألهم نابليون بعلم ما هو مخبوء له فى صفحة الغيب من العظمة . فكان إكبابه على الدرس والاطلاع إكباب من يعد نفسه لعظائم الأمور وكان له فى المعضلات جلد تتضاءل أمامه أعقد العقبات . حدث مرة أن أستاذ الرياضة عرض على فرقته مسألة حسابية فى غاية التعقيد ليتبارى فى حلها

التلاميذ فحجز نابليون نفسه من أجلها فى غرفته نحو ثلاثة أيام وهو يقلب المسألة على وجوهها ويعمل فكرته فيها حتى اهتدى إلى حلها . وكل ما عرفه زملاءه بعد ذلك عن هذه المسألة أن نابليون « وفق إلى حلها » وما دروا أن هذا « التوفيق » لم يكن إلا ثمرة من ثمرات الجهد المتواصل وأن نابليون كان يمهر « توفيقاته » هذه بأغلى الأثمان من صحته ووقته . وأن الليل الهادىء الساجى الذى ينامه الناس ملء جفونهم كان يقضيه هو فى التفكير والتدبير ليحصل على « توفيقة » من هذا النوع يصطبح بها الناس فيتهمونه « بحسن الطالع وسعادة الحظ » مع أنه ينكر على ذهنه تلك البداهة التى كان ينسبها الناس اليه ويردها الى كثرة التفكير والتقدير مقدما لكل ما قد يعترض طريقه من المشكلات . وقد كشف بنفسه هذا السر حين قال :

«أنا دائم الشغل كثير التفكير . فاذا رأى الناس أننى مستعد فى كل وقت لما تخلقه الظروف من عاجلات المسائل وعارضات المشاكل فذلك لأنى قبل أن أشرع فى أى عمل من الأعمال أكون قد فكرت فيه وتدبرته وتبينت ما قد ينشأ عنه فلا تحسبن أنه الذكاء يملى علىّ ما أقول وأفعل إذا حدث أمر لم يكن فى الحسبان . كلا . بل هو التفكير والتدبير . . . . . أنى دائم

الاشتغال . أشتغل على المائدة وفى قاعة التمثيل وغيرها . وأفيق فى الليل لكى أعمل عملا . »

ومن مأثور كلماته أيضاً قوله :

« قد كنت أنفق ساعات لعبى فى العمل . ولطالما قضيت الليل أفكر فيما ألقى على من دروس النهار . . . . ذلك بأن طبيعتى لم تكن تتحمل أن يكون غيرى هو المبرز فى فرقتى ! »

وفى الحقيقة أن سر نجاح نابليون كان فى تلك الطبيعة التى يصفها صاحبها بأنها لم تكن تتحمل أن يكون غيره هو المبرز فى فرقته وهو تلميذ والتى يصفها التاريخ بأنها لم تكن تتحمل أن يكون غيره هو المبرز فى أوربا وهو ملك !

ولقد كتب كثيرون عن نابليون فوصفوه بأنه جندى فحسب . كلا بل انصافاً لهؤلاء المؤرخين نقول انهم وصفوه بأنه جندى ماهر بل بارع – بل منقطع النظير ! ولكنهم فى كل ما ذهبوا اليه وفى كل ما نحسن الظن فيهم بأنهم قالوه أو أرادوه نحسب أنهم لم ينصفوا هذا البطل الذى أودعت فيه الطبيعة نفساً عبقرية كان لا بد لها من الظهور فى أية صورة أخرى لو أنها لم تظهر فى تلك الصورة الحربية التى طلعت على العالم فيها واذن لرأينا نابليون أديباً كبيراً يكسف بروعة

مخلفاته كتب الأولين واذن لرأيناه فيلسوفاً خطيراً ينبرى برأسه الكبير لحل طلاسم هذا العالم وألغازه ويترك لمن بعده أوفر ثروة خلفها العقل الأنسانى للأجيال التى تليه !

ولكن نابليون خرج من مدرسة باريس سنة ١٧٨٥ وهو فى السادسة عشرة من عمره ضابطاً . فلنتتبع خطواته العسكرية ولننظر الى أين ينتهى بنا المسير !

الفصل الخامس

الثورة الفرنسية

فى السنة التى تخرج فيها نابليون من المدرسة (سنة ١٧٨٥) كانت فرنسا على أبواب ثورتها الهائلة التى قلبت كافة النظم فيها رأساً على عقب . فقد كان أهلها ثلاث طبقات :

١) طبقة الأشراف

٢) وطبقة رجال الدين

٣) وطبقة العامة

وكان على كاهل هذه الطبقة الأخيرة وحدها يقع عبء الضرائب . أما الأشراف ورجال الدين فعلى الرغم من أنهم يمتلكون أكثر من نصف الأرض فانهم كانوا معافين من دفع الضرائب . بل انهم كانوا يتمتعون بامتيازات تبيح لهم تسخير العامة فى فلاحة أرضهم من غير مقابل — كلا بل كان لهم فوق كل ذلك حق آخر وهو حق جباية ضرائب لأنفسهم من هؤلاء الفلاحين الذين يسخرونهم فى زراعة

بساتينهم وحقولهم ! ؟

وكانت مناصب الحكومه وقفاً على هؤلاء الأشراف . أما العامة فكانوا محرومين منهـا وكانوا مقيدين حتى فى صناعاتهم فكان الرجل منهم لا يملك تغيير مهنتـه إذا أراد بل كان لا يملك أن يتزوج بالفتاة التى يختارها لنفسـه من غير أن يحصل على موافقة مولاه الشريف !

فتحت هذه العوامل المرهقة كانت ترزح طبقة العامة وتتوارث هذه المظالم جيلا عن جيل حتى طفح الكيل وتنبهت الأذهان لما هى فيه من التعاسة . وذلك بفضل ما انتشر فى البلاد من كتابات الأدباء والفلاسفة أمثال روسو ومنتسكيو وفولتير الذين هاجموا تلك النظم العتيقة الفـاسدة وحملوا على أهلها حملات هادمة فجرءوا العبيـد على مواليهم وأصبح الفقير ينظر للغنى فى فرنسـا شزراً ويتمثل فى شخصه كل ما اقترفه آباؤه وأجداده من المظالم والمساوىء فيصر على أسنانه تَشوّقاً لذلك اليوم الذى يمكنه من الاشتباك مع غرمائه المتكبرين ليسوى معهم حسابه .

وقد كان الكل يتوقعون قرب حلول ذلك اليوم حين أفلست خزائن الحكومة وعجز رجالها المسئولون عن إدخال

أى إصلاح فى شئونها . فقد اقترح أحد الوزراء مرة أن يشترك الأشراف مع رجال الأمة فى دفع الضرائب فما كان من زعماء تلك الطبقة الطاغية إلا أن حملوا الملك على عزله فعزله . واقترح آخر أن يُدعى مندبو الشعب للاشتراك مع الحكومة فى معالجة الأزمة التى كانت تهدد الجميع فكان جزاؤه العزل والنفى أيضاً . مع أن الأشراف لو كانوا قبلوا الاشتراك مع طبقة العامة فى أداء الضرائب لكان من المحتمل جداً تفادى الثورة التى وقعت بعد ذلك والتى كان الأشراف وامتيازاتهم وأموالهم فى مقدمة ضحاياها .

وكان ملك فرنسا فى ذلك الحين رجلا طيب القلب حسن النية . وكان كذلك ضعيفاً ليناً متراخياً — شأن كثير ممن يتصفون بطيبة القلب وحسن النية — فظل يتراجح بين الأشراف والعامة آناً مع هؤلاء وآناً مع هؤلاء لاخبثاً ونفاقاً ولكن ذبذبة وتردداً فازدادت الأمور فساداً على يديه

وكانت زوجته مارى انتوانيت مثال الخلاعة والاستهتار وكانت فى هذه الضائقة المالية التى يشكو ضغطها الجميع مثال الاسراف والسفه فكانت عنواناً سيئا لميول السراى نحو الشعب . وألقت على البلاط بسلوكها الشائن ظلا ثقيلا من

الريب والشكوك .

وكان من حول الملك حاشية خبيثة رجعية دأبها أن تصد الملك عن كل إصلاح يعتزمه وتحول بدسائسها بينه وبين خدام الأمة المخلصين فأوهموه يوماً بأن الشعب ينوى مهاجمة الأسرة المالكة فى قصرها ونجحوا بذلك فى اثارة مخاوفه . واستصدار أمر منـــه بجمع الجيش على مقربة من باريس استعداداً للطوارىء . ولـكن الباريسيين أوَّلوا ذلك العمل أسوأ تأويل . وراجت بينهم اشاعة مؤداها أن الحكومة نصبت أيضاً مدافعها فوق أبراج سجن الباستيل لهدم المدينة على أهلها . فهاج الشعب لذلك واحتشدت جموعه أمام السجن فى تجمهر خطير ثم ما لبثوا أن هاجموا حاميتـــه . وفتحوا أبوابه عنوة . وقتلوا حراسه . وأخلوا سبيل نزلائه التعساء . وكان من أثر ذلك أن استولى الذعر على الملك وعاد يسترضى الشعب بكافة الوسائل . ولـكن النصر الذى لاقاه الغوغاء فى يوم الباستيل (١٤ يولية سنة ١٧٨٩) ملأهم اعتداداً بأنفسهم وصاروا من بعده يثورون لأتفه الأسباب . ويهاجمون كل من توهموا فيهم مناصرة الحكومة أو الوقوف فى طريق مطالب الشعب .

وقام الناس فى الأقاليم يحذون حذو أهل باريس فهاجموا قصور الأشراف ونهبوها ثم أحرقوها وقتلوا سكانها ومثلوا بهم تمثيلا . وتمادى أهل باريس أنفسهم فى طلباتهم فكلفوا الملك أن ينزل من ضاحية فرساى مقره ومقر أسلافه من الملوك ليقيم بينهم فى باريس . وذلك لكى يأمنوا دسائسه ودسائس من حوله ممن كانوا يعملون سراً على مقاومة الشعب بالقوة والانتقام منه لخروجه على طاعة الحكومة واستعماله القوة والعنف فى الحصول على مطالبه .

ومن ذلك اليوم تجلت ارادة الشعب فى تسيير شئون فرنسا . وكرهت الملكة مارى أنتوانت أن تقيم على الرغم منها فى شبه أسر وسط الغوغاء فى باريس فاقترحت أن تهرب مع زوجها وولديها إلى النمسا عند أخيها الامبراطور ليوبولد حيث اجتمع الأشراف الذين هاجروا من فرنسا فراراً من الشعب الهائج . وكانت فكرتها فى ذلك أن تستنصر بأخيها ليتعاون معها ومع زوجها على غزو فرنسا الثائرة وقمع الثورة فيها واعادة المياه إلى مجاريها الأولى . ولكن سوء حظ الأسرة المالكة قضى بانكشاف أمرها فى الطريق فضبط الملك هو ومن معه وأعيدوا جميعاً وسط

استهزاء الشعب بهم واعتداءه عليهم .

وتقدم مندوبو الشعب بعد ذلك إلى الملك بنظام جديد لحكومة فرنسا أساسه أن الأمة مصدر السلطات . فلم ير الملك بدآ من قبوله وأقسم يمين الولاء للدستور الجديد فى سبتمبر سنة ١٧٩١ وانتقلت الحكومة بذلك رسمياً من يد أولئك الذين مارسوها أجيالا طويلة إلى أيدى الشعب الغريرة فكان من الطبيعى أن يختل ميزان الأمور ويزداد اضطرابها فى مستهل هذه التجربة الجديدة .

وأول ما شاهدت فرنسا من آثار حكومتها الشعبية أن رأت نفسها تدخل فى حرب مع النمسا : أما سبب هذه الحرب فكان تخوف الفرنسيين من ليوبولد امبراطور النمسا وشقيق مارى أنتوانت الذى رحب بالمهاجرين من أشراف فرنسا والذى أعلن الفرنسيين بأن استقرار النظام فى بلادهم أمر تقتضيه السياسة الدولية فى أوربا فدل بذلك على أنه يعترض طريق الثوار ويعمل على الحيلولة دون تحقيق آمالهم السياسية . فحملوا الملك على أن يعلن الحرب عليه فأعلنها فى أبريل سنة ١٧٩٢ .

على أن الشعب لم يقنع من الملك بذلك . بل طلب اليه

أن يعلن أيضاً بأن جميع الذين هاجروا من فرنسا خائنين لبلادهم يخلل القانون تعقبهم والحكم عليهم بالاعدام. فتوقف الملك عن توقيع هـــذا القرار فكان ذلك سبباً فى إرهابه بمظاهرة عنيفة هجم فيهـا نحو ثلاثين ألفاً من غوغاء باريس على قصر التويلرى فى (٢٠ يونية سنة ١٧٩٢) واعتدوا فيها على كرامته وتطاولوا فيها على مقامه بشكل يشمئز له الذوق السليم إذ يروى أن أحد المتظاهرين أقبل عليه وهو فى حالة سكر بَيِّن وقدم له كأساً من النبيذ ليشرب نخب المتظاهرين فتناول الملك القدح صاغراً ورفعه إلى شفتيه. كما يروى أن متظاهراً آخر بسط إليه قلنسوته الحمراء (وهى شعار الثورة) على سنان رمحه فما كان منـه إلا أن تناولها طائعاً ووضعها فوق رأسه [1].

وقد أعقبت هـذه المظاهرة مظاهرة أخرى أعنف منها (فى ١٠ اغسطس سنة ١٧٩٢) وقد انتهت بفشل رجال الحرس الملكى عن آخرهم والقاء القبض على الأسرة المالكة وايداعها فى السجن .

(١) راجع تفصيل هذه المظاهرة وأمثالها فى كتاب (الثورة الفرنسية) للمؤلف

على أن شيئاً من ذلك لم يجد الفرنسيين نفعاً فى حربهم مع النمسا فقد انهزموا لأول لقاء بجيوش أعدائهم . ولم يروا من علاج لهذه الهزيمة الا أن يعودوا إلى وسائل العنف ليرهبوا بها كل من حامت حول إخلاصه لنظامهم أدنى الشبهات حتى لا يجتمع عليهم خطر الفتنة الداخلية وخطر الغزو الخارجى . ووقعت فى هذه الفترة مذابح فظيعة تعرف فى التاريخ باسم (مذابح سبتمبر) لأنها وقعت فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٢ وقد قتل فيها خلق كثيرون ممن كانت تهمتهم أنهم يشايعون الملكية أو ينتمون الى أحد أفرادها .

على أن فريقاً من زعماء المتطرفين بالغ فى تهوره . وقضى سوء الطالع أن يتبعه العامة فى هذا التهور . وكانت أوربا قد تحركت ملوكها لاغاثة زميلهم ملك فرنسا فاقترح هؤلاء المتطرفون أن يتخلصوا من الملك وحراسته حتى يتيسر لهم التفرغ لأعداء البلاد . وحوكم الملك بناء على هذا الاقتراح بتهمة الاتصال بالأعداء والعمل على نكاية الشعب وحكم عليه بالاعدام .

ومنذ وقع رأس لويس السادس عشر ملك فرنسا تحت حد المقصلة لم تعد هذه المقصلة تتهيب رأس غيره . فسيق

اليها أنصار الملك زرافات ولم يبق على ظهر فرنســـا شخص واحد تحوم حول اتصاله بالأسره المالكة الشكوك .

وأعلنت الجمهورية فى فرنسا وتولى الحكم فيها حزب اليعقوبيين وهم غلاة المتطرفين . وعلى رأسهم الزعماء الثلاثة الذين أطلق الشعب عليهم لفرط طغيانهم اسم " Les Trois Dieux " (الآلهة الثلاثة) وهم دانتون ومارا وروبسبير . ويعرف عهد حكم هؤلاء الزعماء « بعهد الأرهاب » وتقـدر الرءوس التى قطعت فى عهدهم فى فترة تقرب من السنة بعشرات الألوف . وجلهم لا ذنب لهـــم اكثر من أنهم « موضع اشتباه الجمهورية » .

عند ذلك اشمأزت النفوس من أعمال اليعقوبيين وبدأ الناس يتناجون بأن تلك الحـال لا ترضى الشيطان نفسه . فانتقضت البلاد البعيدة عن باريس على الحكومة المركزية فيها وخرجت عن طاعتها .

وفى نفس الوقت تحالفت دول أوربا على اعادة النظام فى فرنسا ووضع حد لهذه الأهوال التى غرقت فيها .

ولـكن جماعة الأرهاب لم يزدادوا الا قسوة وعتوا أمام هذه الاخطار التى باتت تتهددهم فى الداخل والخارج .

وعولت على الالتجاء للطرق الحاسمة الناجعة فى تبديد هذه الأشباح .

فأما فى الداخل فأنها ألقت الرعب فى قلب كل من تحدثه نفسه بالخروج عليها وذلك بالتنكيل بأهل المدن التى خرجت على الحكومة مثل أورليان ومارسيليا وليون وتولون . ولقد بلغ من قسوتهم مع أهل هذه البلاد أنهم فى ليون مثلا رأوا أن المقصلة لا تسعفهم فى أزهاق الأرواح فكانوا يلقون بالناس فى نهر الرون أفواجا ليغرقوا فيه بالجملة « ولتسبح الجثث إلى مدينة تولون وتنذر أهلها بما سيحل بهم من العقاب» كما كان يقول ممثل الحكومة الذى تولى تأديب العصاة من أهل تلك المدينة .

وأما فى الخارج فقد حبذت الحكومه الأمة الفرنسية بأسرها فلم تبق فيها يدلا تعمل لتعزيز القوة التى تواجه الأعداء .

وقد نجحت هذه الطريقة فعلا كما نجحت أختها وتخلصت فرنسا من الخطرين[١].

---

(١) اقرأ تفصيل هذه الحوادث كلها فى كتاب (الثورة الفرنسية) للمؤلف

الفصل السادس

بين فرنسا وكورسيكا

كان طبيعيا أن لا تقع كل هذه الحوادث فى فرنسا ونابليون ضابط فيها دون أن يكون له دوره الذى يليق بأمثاله أن يلعبوه .

ولقد ألحق بعد خروجه من مدرسة باريس بالفرقة المسماة لافير La Fére وكانت تعسكر فى مدينة فالنس Valence . وأنعم عليه فيها برتبة ملازم ثان . وكان اذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره لا مال له ولا أصدقاء . ولم يكن يعرف أحدا من ذوى النفوذ يستعين به على الرقى فى الجيش مات أبوه ومات انصار أبيه الذين كان يصح الاعتماد عليهم بعد فقده . وضاقت سبل العيش فى وجه أمه واخوته . ولم يكن راتبه الأسبوعى يتجاوز خمسة وثمانين قرشا . فلو أنه رضى بهذه الحال وانتظر الفرج فى دوره الطبيعى لبقى ست سنوات قبل أن يرقى لرتبة ملازم أول وست سنوات أخرى قبل أن يصبح يوزباشا واذا استمر الحال على هذه

المنوال فقد يحال على المعاش وهو بعد فى مقتبل العمر. وحينئذ لا يكفى مرتبه لسد رمقه ولكن هذا المستقبل المظلم شدد من عزمه واستحث من همته. فأخذ يرقب الحوادث بأقصى الاهتمام لينتفع من سوانح الفرص. وأكب فى الوقت نفسه على الدرس والمطالعة بحكم خلو يده من المال اللازم للتلهى والترويح عن النفس أو على الأصح بحكم رغبته القوية فى أن لا يضيع وقته الثمين فى التلهى والترويح عن النفس كما صرح بذلك فى كلمته المشهورة.

« كنت أشعر دائما أن الوقت من ذهب حتى فى الأوقات التى كنت فيها خلواً من العمل. »

ولقد انتشرت الكتابات الثورية فى كل أنحاء فرنسا فى ذلك الوقت وكان نابليون يطلع على معظم ما كانت تنفثه الأقلام الهدامة فى تلك الأيام ولكن ميوله كانت لا تزال مركزة فى مثل « بلوتارك » وفى كتب التاريخ العام. وفى قراءة مؤلفات الفلاسفة الحديثين أمثال روسو وفولتير. ولقد خلفت هذه المطالعات فى أسلوب نابليون الكتابى من التثقيف ما جعل لبياناته التى كان ينشرها على جنوده فى مستهل المعارك وعقب النصر تلك الروعة التى يحسده عليها

كثير من الأدباء . أما تلك الكهرباء الكامنة فى سطور هذه البيانات فشيء آخر لم يكن مصـــدره روسو ولا كورنى Cornielle ولا غيرهما ولـكن كان مصدره روحه الفوار الذى كان يشع المعانى الحماسية كأنها ومضات الصاعقة الجاثمة فوق السحاب .

ولقد كان لمؤلفات هؤلاء الفلاسـفة أثر آخر فى نفس نابليون فانه كتلميذ لفولتير مثـلا أصبح يحتقر الرهبان ولا يؤمن بمذاهب الديانة المسيحية وكتلميذ لروسو أصبح يكره الملوك ولـكنه كان فى الجملة غير ميال لدراسـة الفلسفة فى ذاتها واجهاد مخه فى معنوياتهـا فان الماديات هى التى كانت تستهوى عقله وتملك حواسـه فتلذه قراءة الوقائع والأرقام ويستغرق اهتمامه أمثـــال « ما كيافيللى » « ومونتسكيو » ببحوثهما العملية المفيدة .

ولقد ظل نابليون زماناً يعيش بين الفرنسيين ولا يرى فيهم إلا أنهم أعداؤه وغرماؤه الذين اغتصبوا بلاده وحرموها استقلالها . وبقيت كل آماله تحوم حول مستقبل كورسيكا حتى أنه هم بوضع تاريخ لها . بل إنه كتب بالفعل فصلين من هذا التاريخ ثم حال بينه وبين إتمام عمله ما تفتح

أمامه بعد ذلك من ميادين العمل الواسع غير أن آراءه السياسية ما لبثت أن تطورت بعد أن قامت الثورة الفرنسية وألغت النظام الحكومى فى فرنسا وكورسيكا وجعلت هذه الجزيرة (مديرية) من (مديريات) فرنسا بعد أن كانت مستعمرة من مستعمرات التاج فتغيرت نظرته نحو فرنسا وزالت عداوته لها ولكن حنينه إلى وطنه ما زال يملك قلبه وما زال هو يعلق على كورسيكا كل آماله فى الحصول على مستقبل سعيد .

وكأن القدر أبى أن يكون نابليون حاكم شعب من من رعاة الأغنام ورواد الدمن . فأعد له وراء حجب الغيب أرفع عرش عرفه تاريخ أوربا الحديث . ولكن كانت من دون هذا العرش أيام نكدة وليال سود كتب عليه مقاساة أهوالها أولا .

زيارته الاولى لكورسيكا

وذلك أنه بعد أن أقام فى فالانس زماناً تحركت بطاريته الى ليون حيث كانت تخشى الحكومة حدوث اضطرابات فيها . وبعد أن قضى شهراً فى تلك المدينة فكر فى زيارة أهله

ووطنه بعد أن قضى فى فرنسا أكثر من سبع سنوات دفعة واحدة . وكان قلبه ما يزال فى قلق على أمه واخوته منذ نكبت الأسرة بوفاة والده لعلمـــه بأنه كان عمادها الذى ينعقد حوله كل رجائها فطلب إذن الحكومة فى الحصول على أجازة فسمحت له بسنة (من سبتمبر سنة ١٧٨٦ — سبتمبر سنة ١٧٨٧)

وعاد نابليون الى أمه وتذاكر أفراد الأسرة تلك السعادة التى كانوا يرفلون فى حللها قبل سفر نابليون الى فرنسا وقبل وفاة عميدهم . وأحس نابليون بأن الأنظار تتجه إليه فى حمل مسئوليات أسرته والحلول فيها محل والده كما أحس بعجزه عن تحسين حال نفسه فضلا عن حال أمه واخوته فانقبض صدره تحت تأثير هذا الضيق وعاد الى فرنسا فى نهاية أجازته وقلبه ينفطر حزناً من حرج هذا الموقف .

وعند عودته كانت فرقته فى مدينة Auxonne فوافاها اليها وهناك أخذ نفسه بأقسى أسباب الاقتصاد لعله يستطيع أن يعين أسرته بشىء من مرتبه . فلم يطق جسمه الضعيف تلك الشدة التى أخذه بها وأصيب بفقر الدم وتهدمت بنيته حتى خشى عليـه طبيب البطارية أن يموت وإليك بعض ما

ورد فى كتاب بعث به الى والدته فى تلك الايام :

«ليس لى منزع الا العمل . فانا لاأرتدى ثيابى الا مرة فى كل ثمانية أيام ولا أنام منذ مرضت الا قليلا . أذهب الى مخدعى فى العاشرة من الليل وأفيق فى الرابعة من الصباح . أما طعامى فأتناوله مرة فى اليوم وذلك فى الساعة الثالثة مساء — وقد وجدت ذلك مفيداً لصحتى»

فيارحمة لهـذا الغريب المسكين الذى تخونه خواطره فيفضى الى أمه بأنه يأكل مرة واحدة فى اليوم ثم يعود فيخشى عليها الهم والغم فيردف قوله بأنه يجد ذلك مفيداً لصحته

الزيارة الثانية .

على أن نابليون برح به الضعف فلم يعد يحتمله فى غربته واشتد حنينه الى أهله تحت تأثير المرض فعاد الى طلب أجازة أخرى وسافر الى كورسيكا (سبتمبر سنة ١٧٨٩) حيث أقام الى أن تحسنت صحته . ثم عاد الى فرنسا مستصحباً فى هذه المرة أخاه لويس ليخفف الحمل ولو قليلا عن والدته .

وكانت فرقته ما تزال فى Auxonne فلحق بها هناك وقضى بها أياما من أتعس ما روى تاريخ البؤس والشقاء .

فكان يقضى بعض أوقات فراغه فى تعليم أخيه ويصرف ما بقى منها فى كتابة الموضوعات الأدبية سعيا وراء الحصول على أجر يتقاضاه عنها من الناشرين. ولقد كابد نابليون تلك الحال بصبره وحزمه المعهودين وأبى تعففه عليه الا أن يبدو للناس طلق المحيا حتى لا يرتاب أحد فيما كان يمزق قلبه من شدائد الخصاصة والعسر.

وأخيرا فى شهر مايو سنة ١٧٩١ رقى نابليون الى رتبة ملازم أول وألحق بالبطارية الرابعة المرابطة فى فالانس فعاد الى هذه المدينة ومعه فى هذه المرة أخوه لويس وقد ارتفع مرتبه قليلا. ولكنه لم يكن يسمح له بعد بتذوق لذائذ الحياة. فكان يقيم هو واخوه فى نفس الغرفة التى كان يقيم فيها عند أول تعيينه فى فالانس. وكان يدفع ما يتبقى له بعد النفقة الضرورية إلى إحدى المكاتب أجرا يخوله حق المطالعة فيها.

الزيارة الثالثة:

وفى سبتمبر سنة ١٧٩١ أفلح نابليون فى الحصول على اجازة أخرى لمدة ثلاثة شهور فسافر هو وأخوه إلى

كورسيكا وكان يقضى أوقاته كعادته بين كتبه وخرائطه وحساباته حتى لكأنه كان يعد نفسه لمئات المعارك التى كتب له النصر فيها فى مستقبل أيامه على مختلف شعوب أوربا .

وحدث فى هذه المرة أن تجاوز نابليون مدة الأجازة التى كان مرخصا له بها لأنه التحق بخدمة الجيش الكورسيكى وعين قائدا لأحدى فرق المتطوعين الوطنيين رسميا فاصبح بذلك عرضة للعقوبات الصارمة التى يفرضها القانون العسكرى لمثل هذه المناسبات . ولكنه ما لبث أن جاءته الأنباء من فرنسا بأن حكومة الشعب التى كانت قائمة فى ذلك العهد اتهمت الملك لويس السادس عشر بأنه كان على اتصال سرى مع امبراطور النمسا وأن أشراف فرنسا الذين هاجروا منها فرارا من غضب الشعب قد التفوا حول هذا الامبراطور يستنجدون به على رجال الثورة . فأرغم لويس السادس عشر تحت ضغط الحكومة على ان يعلن الحرب على النمسا فانتهز نابليون هذه الفرصة وبادر بالعودة لعلمه بأن الحكومة فى هذا الظرف الدقيق سوف تكون فى حاجة الى كل ضباطها وتحت هذا التأثير قد تتغاضى عن غيابه . ولقد صح ظنه وصدقت فراسته فأنه ما كاد يصل الى باريس (مايو سنة

١٧٩٢) حتى رفع التماسا يطلب فيه إعادته إلى الجيش وفى ٣٠ أغسطس أصدر وزير الحربية أمره بأعادته الى بطارينه مع منحه رتبة يوزباشي .

ولقد قاسى نابليون أثناء اقامته بباريس قبيل صدور هذا الأمر ضيقا شديدا حتى لقد اضطر الى رهن ساعته وكان من جملة ما خطر بباله للحصول على المال أن يستأجر عدة بيوت خالية ثم يتولى هو تأجيرها بسعر أعلى ليربح الفرق بين السعرين . ولكن أصحاب الملك كانوا يترددون فى معاملة سمسار خطر مثل هذا الضابط المفلس .

٭٭٭

وبينما كان هو يكافح هذا الضيق بين فالانس وباريس وأمه تكابد ما تكابد فى سبيل الحصول على قوت أبنائها كانت الثورة فى فرنسا قد تطورت ودخلت فى أدوارها الجدية تحت تأثير الهزائم التى لقيتها جيوشها فى حربها مع النمسا وشهد نابليون فى باريس مظاهرة ٢٠ يونيه سنة ١٧٩٢ التى هاجم الثوار فيها سراى التويلرى واقتحموا على الملك غرفته وألبسوه قلنسوة الثورة الحمراء . ولا تسل عن اشمئزازه عند رؤية هذا المنظر الهمجى فانه لم يتمالك أن صاح : « ياللجبن

كيف سمح أؤلئك الحراس لهؤلاء الرعاع بالدخول ؟ ألم يكن في مقدورهم أن يكتسحوا بمدافعهم اربعمائة منهم أو خمسمائة ليروا كيف يلوذ الباقون بالفرار ؟ »

وشهد كذلك حوادث ١٠ اغسطس التى تحركت فيها باريس كلها الى سراى التويلرى بقصد حمل الملك على النزول عن العرش وحضر التصادم الذى وقع فيها بين الشعب وبين الحرس السويسرى المكلف بالدفاع عن السراى . ورأى بعينيه تلك القوة النظامية تفنى عن آخرها تحت اسنة الشعب الهائج ونيرانه . و لقد خلفت هذه الحوادث وامثالها فى نفس نابليون تقززا من اليعقوبيين وتصرفاتهم جعله لا يتحدث عنهم بعد ذلك الا باسم (السفلة) أو (الرعاع) ودفعه الى ان يقبل وهو مرتاح الضمير مهمة الوقوف الى جانب الحكومة دائما كلما حاول الشعب المسلح املاء ارادته عليها كعادته وارغامها بقوة السلاح على التسليم بمطالبه غير المشروعة .

الزيارة الرابعة وهجرة الاسرة كلها الى فرنسا :

وكان من بين أعمال اليعاقبة فى تلك الأيام أنهم فى أثناء مطاردتهم لرجال الدين أغلقوا الأديرة وفضوا مدارسها فتشتت تلميذاتها وكانت اليزا Eliza أخت نابليون بدير سان سير St. Cyr فأسرع اليها وصحبها بنفسه إلى كورسيكا وكان ذلك عقب مذبحة باريس (سبتمبر سنة ١٧٩٢) وما تلاها من المذابح الأخرى فى فرساى وريمس وليون وأورليان وهى المذابح المشهورة فى تاريخ الثورة باسم (مذابح سبتمبر) حيث « قتل كل من كانت تحوم الشكوك حول مشايعته للملكية فى فرنسا ».

على أن نابليون لم يكد يصل الى كورسيكا حتى وقع نزاع بينه وبين « پاؤولى » أحرج مركز الأسرة كلها وحملها على الهجرة التماسا للخلاص من انتقام خصومها الأقوياء.

الفصل السابع

پاؤولى

لقد نالت كورسيكا من عطف الدول الأوربية فى صراعها المشرف ضد جنوا ثم فى دفاعها عن استقلالها ضد فرنسا مثل ما نالت بلاد اليونان حين هبت فى وجه تركيا تدافع عن حريتها وتطالب باستقلالها . أما انجلترا فأن ميولها تجاوزت حدود هذا العطف الأدبى إلى تقديم المساعدة المادية فأمدت أهل الجزيرة بالمال والرجال ليتحرروا من خصومهم . والله أعلم بعد ذلك إن كانت تستخلص الطائر من يد صياده لتطلقه وتعيده إلى الجو الحر الفسيح . أم لتدخله بقفصه فى دوائرها المرنة التى أخذت على عاتقها — بطريق التطوع والأختيار — مسئولية ادخال الناس فيها . ؟

وكان پاسكال پاؤولى زعيم كورسيكا وملكها غير المتوج يعترف بفضل انجلترا عليه فى نضاله ضد خصومه حتى انه لما خرج أمر الجزيرة من يده واستقر سلطان فرنسا عليها لم يجد أمامه غير انجلترا مفزعا يلجأ اليه فلبث فيها سنين عددا

ثم قامت الثورة الفرنسية تهاجم الحكومة (التى اشترت كورسيكا من جنوا) وتبشر بمبادىء الحرية والإخاء والمساواة للجميع وتعلن أن قواها وقف على نصرة كل مظلوم. فاتصل باؤولى برؤسائها واستُدعى إلى باريس لجاءها وقوبل فيها بالحماسة والهتاف . واطلق عليه الشعب هناك لقب « بطل الحرية وشهيدها » ثم سمح له بالعودة إلى كورسيكا فعاد إليها ومنحه مواطنوه لقب « أبو الأمة » ثم عينته الحكومة الفرنسية بعد سقوط الملكية فيها (سنة ١٧٩٢) قائداً لقوات الجزيرة وحاكما عاما عليها .

وكان نابليون منذ نشأته يرى من باؤولى ويسمع عنه ما جعله يتخذ شخصيته القديرة قدوة يحتذى مثالها ويقيس على عظمتها جهوده وآماله لعله يصيب فى آخر أمره ما اصاب صاحبها من الشهرة الواسعة والمجد العظيم !

غير ان الحوادث التى وقعت فى فرنسا إبان الثورة باعدت ما بين الأستاذ وتلميذه . فقد اتسع نفوذ اليعقوبيين فى فرنسا وتطاولت ايديهم الى رأس الملك لويس السادس عشر نفسه وقطعوه وأمعنوا فى وحشيتهم ورأى باؤولى أن فرنسا كما كانت محكومة فى ذلك الوقت جديرة حقيقة بسخط العالم

المتمدن فأعلن اشمئزازه منها وخروجه عليها ودعا الناس جهرة إلى طلب الانضمام الى انجلترا. فأصدر المؤتمر الوطنى بدوره قراره بأن باؤولى وأعوانه خارجون عن القانون (٢٦ يونية سنة ١٧٩٣).

اما نابليون فقد نظر للأمر من ناحية اخرى بصفته ضابطا نظامياً فى قوة دفاع الحكومة الفرنسية فانه بينما كان يشارك باؤولى فى سخطه على اليعقوبين كان يرى ان الواجب يحتم عليه الوقوف الى جانب حكومته . وكان يرى من ناحية اخرى ان كورسيكا أضعف من ان تستطيع الاحتفاظ باستقلالها وسط دول اوروبا القوية وانها أقرب الى فرنسا فى لغتها وعاداتها ودينها منها الى انجلترا

فلما جمع باؤولى رجاله من جديد واخذ يعد عدته لخلع سلطان فرنسا عن الجزيرة رفضت اسرة بونابرت ان تشترك فى اى عمل من شأنه مناوأة حكومة فرنسا . فانسلخت بذلك نهائياً عن لواء باؤولى واصبحت موضع سخط انصاره واعوانه .

وبلغ من غضب باؤولى على أسرة زميله القديم « كارلو » أن أهدر دم أفرادها وطلبهم من رجاله أحياء أو ميتين

فأما نابليون فقد باغته أنصار باءولى فى الطريق وأحاطوا به وأسروه ولكنه خادعهم ولاذ بالفرار .

وأما ليتيشيا وأبناؤها فقد استيقظوا فى صيحة ذات يوم بعد ذلك على صوت نذير يبلغهم أن ألوفا من الفلاحين أنصار باؤولى الحانقين على اسرتهم جادون فى طريقهم لمهاجمة المنزل ومن فيه فلم تكن إلا دقائق معدودة حتى جمعت ليتيشيا أبناءها وحملت معها ما استطاعت حمله من متاعها ومالها وخلفت الدار للمهاجمين يكسرون حدتهم على جدرانها .

وبقيت الأسرة مشردة بين مخابىء الساحل اياماً بغير مورد ولا مأوى حتى تيسر لنابليون ان يعد لها العدة لركوب البحر .

وفى منتصف ليلة مظلمة كانت أم نابليون واخوته يسيرون نحو الشاطىء على ضوء مصباح ضئيل . وهناك استقلوا زورقا مكشوفا كان فى انتظارهم فما كادوا يستقرون على ظهره حتى انطلق بهم فى ليل كموج البحر تحيط بهم الظلمات من فوقهم ومن تحتهم وليس أمامهم من هذه الدنيا الفسيحة إلا ما ينتظر امثالهم من صنوف العذاب والتشريد .

فهل كان أوسع الناس خيالا يستطيع ان ينظر الى هذه الطرائد التى أخرجت من ديارها وهى لا تملك قوت يومها فيرى فيها بعثه من الملوك خرجت لتتولى حكم اوروبا ولتقتسم بينها أرفع عروشها وألمع تيجانها ؟

الباب الثانى

بين الحظ والمواهب

الفصل الأول

أسرة بونابرت فى فرنسا

سارت السفينة بأهلها حتى رست فى ثغر مرسيليا وهناك نزلت اسرة بونابرت وهى لا تملك لنفسها طعاما ولا مأوى وسارت ليتيشيا بأبنائها الى سراى البلدية لعرض حالها ملتمسه أن تجرِى عليها الحكومة جراية من الخبز لتعيش هى واولادها . فرق لها أهل البلدية وأجابوا طلبها .

وكان من جملة الذين ساعدوا ارملة بونابرت واولادها فى مرسليا المسيو كلارى من كبار تجار الصابون فى ذلك الثغر فانه عطف على تلك السيدة وأبنائها وسرعان ماتوثقت عرى الألفة بين الأسرتين حتى أنه لم تمض سنتان على إقامة آل بونابرت فى مرسيليا إلا وقد اقترن يوسف بابنة ذلك التاجر بينما كان نابليون يرسم خططه للحصول على يد ابنته الأخرى مدموازيل دزيريه ولولا ان هذه الآنسة لم تشعر بأية عاطفة نحو هذا الضابط الصغير بنفسه الحزينة وجسمه

الضعيف وقبعته الواسعة التى كانت تغرق فيها أذناه لرأيناها بدل جوزفين تتربع على عرش فرنسا الامبراطورى يوما من الأيام .

أما لوسيان الصغير فكان فتى ثائراً حار الرأس مفتتنا بأعمال اليعاقبة حتى أنه لم يكن يدع مجالا يتيسر فيه القاء خطبة إلا وقام فى الناس خطيباً متدفقاً يتغنى بأعمال اليعقوبيين وحكمة تصرفاتهم . ولقد كان من وراء هذه الحماسة أن أدخله اليعاقبة فى زمرتهم وأسندوا اليه مركزاً إدارياً فى بلدة صغيرة قرب مرسيليا وهكذا استطاع هذا الشاب بفضل هوسه أن يخدم أسرته فى الوقت الذى كان لا يزال نابليون فيه نكرة بين ضباط الجيش لا يعرفه أحد بينما كان يوسف بوداعته وهدوئه أخمل من أن يحس به أفراد الأسرة أنفسهم !

الفصل الثانى

المعركة الاولى «حصار تولون»

لما قام الشعب الفرنسى بثورته يطارد الأشراف ورجال الدين لم ير هؤلاء أمامهم إلا الفرار من فرنسا فهاجروا — وكانت هجرة أكثرهم الى النمسا حيث الامبراطور ليوپولد ابن أخى مارى أنتوانت . وهناك أخذوا ينشرون الدعوة ضد الثورة ورجالها فكان عملهم هذا سبباً فى اعلان الحكومة الفرنسية الحرب على النمسا . ولقد هزمت جيوش الثورة فى بدء هذه الحرب وأوشك الأعداء أن يصلوا الى باريس وهناك ثارت كل حمية الفرنسيين فاستماتوا فى الدفاع حتى يئست منهم النمسا وآثرت الانسحاب .

ولكن جيوش الثورة أطمعها هذا الانسحاب فأوغلت وراء أعدائها فى قلب أوربا تطاردهم فى المانيا . وفى بلجيكا وبلغت الجرأة بحكومة فرنسا أنها أخذت تعلن باسم الأمة الفرنسية استعدادها لمعاونة كل شعب يجاهد فى سبيل حريته

وتكلف قوادها بأن يمدوا يد المساعدة لكل أمة تضطهد بسبب هذا الجهاد .

وتلبية لهذا النداء الكريم طلبت بلجيكا أن تنضم الى الجمهورية الفرنسية . وكذلك طلبت سافوا . وعند ذلك تملك الذعر قلب انجلترا خشية أن يتسع نفوذ فرنسا وتكون لها السيطرة فى اوربا فنشط وزيرها (وليم بت William Pitt) لجمع الدول الأوربية وتكوين حلف منها لحصر الثورة داخل الحدود الفرنسية ومقاومة رجالها وكانت اسبانيا اول من لبى هذه الدعوة

ولكن فى نفس هذا الوقت كانت مدائن فرنسا البعيدة عن باريس قد شقت عصا الطاعة على الحكومة المركزية هناك نظراً لما اتسمت به كافة تصرفات اليعاقبة من التطرف والوحشية لا سيما بعد اعدام الملك لويس السادس عشر . وفر دعاة الملكية من جميع أنحاء فرنسا الى مدينة تولون فى أقصى الجنوب حيث اتخذوها مقراً لهم وقاعدة لأعمالهم وأنشأوا فيها حكومة محلية وأعلنوا ابن لويس السادس عشر باسم « لويس السابع عشر » ملكا عليهم .

ورأى وليم بت William Pitt بثاقب بصره ان هؤلاء

الملكيين يصلحون لأن يكونوا نواة تجتمع حولهم كل العناصر المعادية للثورة إذا هو قام بتشجيعهم ومؤازرتهم حتى اذا قويت كلمتهم اكتسحت حكومتهم حكومة فرنسا الشمالية التى كانت تخشاها انجلترا . فطرب لهذه التقديرات ولم يتردد لحظة فى تنفيذ خططه وتم الاتفاق بينه وبين حليفته اسبانيا على الاشتراك مع هؤلاء العصاة فى مقاومة الحكم اليعقوبى . ودخلت جيوشهما فعلا ثغر تولون فى أغسطس سنة ١٧٩٣ وتولت أساطيلهما تموين المدينة واهلها بالميرة والذخيرة وانتعشت بذلك آمال انجلترا فى القضاء على الثورة وخيل اليها ان حكم اليعاقبة قد آذنت شمسه بالأفول .

وهنالك تعلق مستقبل الجمهورية الفرنسية فى الميزان . فلو ان كفة الحلفاء رجحت على كفتها لعادت الى فرنسا حكومة رجعية فى ظل ملك من سلالة آل بربون ولأسدل الستار على كل ما قام به الشعب الفرنسى فى السنوات الأربع الماضية . ولذهب جهاده السابق فى سبيل الحرية صرخة فى واد ولعادت الرجعية مرة أخرى تستغل جمهور الأمة لصالح بضعة افراد من الاشراف

ولكن الاقدار كانت اسخى على القضية الفرنسية من

إرادة وليم بت فهيأت لها من أنقذها فى ذلك الموقف العصيب وأزاح عن صدرها هذا الكابوس الذى كان خليقاً أن يخمد أنفاسها !.

وكانت جيوش الحكومة اليعقوبية تحاصر تولون منذ زمان على غير جدوى وذلك بسبب اتصال الحلفاء بهـا من ناحية البحر فانهم فضلا عن التحصن فى أهم قلاعهـا كانوا يمدونها بكل ما تحتاج إليه من طعـام وذخيرة حتى لا تشعر بضغط الحصار واستمر الحـــال على ذلك طويلا حتى كاد اليـأس يتسرب إلى قلب الجمهورية ولـكن حدث فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٣ أن صدرت الأوامر لنابليون بالسفر إلى Nice لينضم إلى الفرقة المرابطة هناك وكان حتما عليه أن يمر فى طريقه بمدينة Touloun . وتصادف أن قائد المدفعية التى كانت تتولى حصار المدينة أصيب بجرح بليغ منعـــه من الاشراف على أعمال الحصار . فاستُوقِف نابليون ووُكل إليه أن يتولى قيادة المدفعية ريثما يشفى ذلك القائد . فأقبل على المدافع يعاين مواقعها ويتبين مدى رمايتها فاذا هى مصوبة على المدينة نفسها وإذا هى لا تلقى بقنابلها إلى أبعد من نصف المسافة المقدرة لها فبدأ عمله بضبطها وتسخير نارها على القلاع

المشرفة على مينا تولون حتى إذا ما دانت له تلك القلاع واستولى عليها أمكنه أن يصوب من أبراجها مدافعه على سفن العدو فى الميناء فيلجئه إلى التخلى عن المدينة وتضطر المدينة بدورها إلى أن تفتح له أبوابها .

ولم تكن انجلترا قد غفلت عن أمر تلك القلاع وأهميتها فى الدفاع عن المدينة ولذلك فانها ما فتئت منذ دخلت تولون تقوى خطوط الدفاع حولها حتى أصبح من المتعذر على أية قوة عادية أن تفكر فى الاستيلاء عليها .

وعرف نابليون من جانبه فداحة العمل الذى أخذه على عاتقه ولكن عزمته التى كانت لا تزيدها الصعاب إلا صلابة وصرامة وثباتاً رحبت بتلك المهمة الخطيرة وتفتحت لها نفسه المتعطشة للعمل .

وكان الانجليز يعتصمون بقلعة فى الجهة الغربية من المدينة بالغوا فى تحصينها لعلمهم بأن سقوطها يستتبع سقوط تولون . فجمع لهم نابليون نحو مائتى مدفع . وصوبها جميعها نحو هذه القلعة التى أطلق عليها الانجليز اسم « جبل طارق الجديدة » وبلغ من جرأة نابليون أنه كان يشتغل باقامة بعض هذه المدافع على مرأى من خصومه وعلى مرمى السهم من

استحكاماتهم حتى لقد قتل تحته أكثر من حصان واحد وهو يجرى متنقلا بين رجاله ههنا وههنا . ولكنه لم يكن يلبث إلا ريثما يأتيه جواد آخر ليركبه ويستمر فى جهاده . بل إن مجازفته فى الاقتراب من حمى الخصم بلغت إلى حد أن اشتبك به أحد الجنود الانجليز وطعنه فى ساقه اليسرى طعنة نجلاء هددتها زماناً بوجوب بترها . ولم تشأ انجلترا أن تتهاون مع نابليون وهو يستعد لكفاحها فأمطرت رجاله وابلا من قذائفها ونشطت مدفعيتها فى إطلاق النار على جنوده نشاطاً أوقع الرعب فى قلوبهم حتى ولى بعضهم مدبراً وهو يعتقد أن لا حرج عليه فى ذلك إذ لا قبل لزبانيــــة جهنم نفسها بمقاومة مثل هذه النــار . ولمحهم نابليون وخشى أن تسرى العدوى إلى بقية جنوده فتفشل ريحه فأسرع إلى مدفع قريب كانت قد عطلته قنــابل الانجليز وتسلق ما سورته ووقف على رأسها صائحا .

« Eh bien quoi ! nos artilleurs ont peur ! ? »

« ما شاء الله ! هل دب الخوف إلى رجال مدفعيتنا ! ؟ »

فما لبث أن عاد الجنود إلى أماكنهم وقد رجعت اليهم حميتهم . وعند ذلك قال نابليون .

«Je savais bien que je commandais à des Français.»

« لقد كنت واثقاً من أنى أقود جماعة من أبناء فرنسا ! »

ولم يشأ بفطنته أن يتكرر ذلك الحادث فلجأ إلى وسيلة من وسائله الناجعة لتوريط الفرقة وسد طريق الفرار عليها مرة أخرى فقال .

« علىّ بكاتب أملى عليه أمراً ! » .

فتقدم إليه من بين الصفوف جندى بسيط فقال له اكتب :

« تطلق على هذه البطارية منـذ هذه اللحظة اسم بطارية الشجعان ! » .

فتناول الجندى رقعة وما كاد يتم عليها كلمته الأخيرة حتى انفجرت على بعد مترين منهما قنبلة ذرت التراب عليهما وعلى رقعتهما فما كان من ذلك الجندى إلا أن قال باسما .

« الحمد لله ! لقد كفتنا هـــذه القنبلة مؤونة حمل التراب بأيدينا لتجفيف ما كتبناه ! » .

فوقع هذا القول من نفس نابليون موقع الاستحسان . ولم ينس أن يرفع صاحبه من الصفوف إلى مراتب الضباط ليكون فى شجاعته وتقـدمه مثالا لغيره ممن تطمح نفسه إلى الرقى والظهور — أما هذا الجندى فكان اسمه جونو Junot

وبقى مقرباً من نابليون إلى آخر أيامه وظل يتـدرج فى سلم الرقى حتى حصل على لقب دوق دابرانت Duc d'Abrantes

وما كاد يطمئن نابليون إلى قوة خطوطه التى أقامها حتى شرع يصب القذائف منهـــا صباً على رءوس خصومه فى « جبل طارق الجديد » . وأخذ يستعدى رجال مدفعيته عليهم بكل ما أوتى من وسائل التحريض معرضاً بشخصه لـكل المخاطر التى قد يتعرض لها أى جندى من جنوده وهو لا يبـالى بما يستهدف له من الخطر . ولقد حدث يوماً أن سقط بجواره أحد رجال مدفعيته وفى يده المشعل الذى يوقد به مدفعه فما كـاد يراه نابليون حتى وثب إلى حيث رقدت جثته وتناول بيده ذلك المشعل الدامى وأوقد به بارود المدفع عدة مرات .

وأخيراً حلت ساعة الهجوم الفاصل الذى أراد به نابليون أن يقضى على الحاميــة الانجليزية القضاء الأخير . فأعطيت إشارة الهجوم فى منتصف ليلة ١٧ ديسمبر سنة ١٧٩٣ وسط ريح صرصرعاتية وسيل غزير دافق وبروق ورعود وصواعق ولم تمض ساعات قلائل حتى كان نابليون قد أطلق من مدافعه ثمانية آلاف قنبلة على « جبل طارق الجديد » حتى تركه كومة

واحدة من الأنقاض ولـكن الانجليز ظلوا كلما تعطل منهم مدفع أقاموا غيره . ودامت المعركة على أعنف ما يكون بين الفريقين ساعات طويلة . وكان الفرنسيون يتقـدمون فى وسط الظـلام المخيم وبين القصف والهزيم حتى يصلوا إلى فوهات مدافع الانجليز والنـار تحصدهم حصداً وكلما فنيت صفوفهم بدلهم نابليون بصفوف غيرها حتى اكتظت الخنادق بجثث القتلى والجرحى وأخيراً ذابت قوة الانجليز تحت هجمات نابليون الحارة . وهدأت نيران القلعـة قليلا فانقض عليها الفرنسيون دفعة واحدة ووقفوا فوق أطلالها يخمدون ما لايزال يتردد تحت أنقاضها من أنفاس خافتة وفى دقائق معدودة كانت الحامية الانجليزية قد لملمت آخر أذيالها وهى تحتجب وراء أستار الفناء .

وعنـــد ذلك نظر نابليون إلى الجنرال « ديجوميه » Dugommier قائدالقوة المرابطة حول تولون قائلا : « اذهب إلى فراشك ياسيدى ونم فقد استولينا على تولون !. »

ويقول «سكوت — Scott » أحد كبار كتاب الانجليز فى وصف تلك المعركة : لقد كان فى وسط تلك الليلة المليئة بالأهوال وفى وسط ماسطع فى ظلامها من نيران وما أريق

فيها من دموع ودماء أن ظهر نجم نابليون فوق الأفق .

على أن استيلاء الفرنسيين على « جبل طارق الجديد » لم يكن آخر فصول تلك المأساة الفاجعة . فان القذائف مافتئت تنهال على مبانى المدينة وطرقاتها المزدحمة بالمستغيثين والفارين حتى لاحت شمس الصباح وتحت أشعتها الباردة الضئيلة تكشفت ظلمات الليل عن أبشع ما رأت عين الانسان : برك من الدم تغطى وجه الأرض فى كل مكان وأجساد متناثرة بعضها هامد وبعضها يجود بالنفس الأخير . ولكنها كلها قد مثلت بها المدافع أشنع تمثيل . وكانت نيران القنابل لا تصيب مكاناً فى المدينة إلا التهمت حطامه التهاماً .

على أن نابليون بعد أن استولى على « جبل طارق » لم يسمح لنفسه باضاعة لحظة واحدة فى تحصيل شىء من الراحة لنفسه أو الاستمتاع بثمرة من ثمرات انتصاره بل شرع فى نصب مدافعه على متون الحصن المتهدم وصوبها نحو البوارج الانجليزية الراسية فى الميناء تنفيذاً لخطته المرسومة من قبل . فما رأى اللورد هاو « Howe » أميرال الأسطول الانجليزى علم الثورة يرفرف فوق ذلك الحصن حتى أيقن بأن المدينة وقعت غنيمة فى يد نابليون . وأعطى الاشارة لبوارجه بالانسحاب

ونشر أمير البحر قلوعه بالفعل عملا بالنصيحة الذهبية « انج سعد فقد هلك سعيد » .

أما أهل المدينة فانهم ما كادوا يشعرون بحركة الأسطول الانجليزى حتى هرولوا نحو الشاطىء من كل فج فى حالة هلع شديد يلتمسون ركوب البحر فراراً من نابليون وجنوده الهائجين . ولم تستطع مراكب الحلفاء أن تحمل أكثر من ٢٠٠٠٠ من أهل المدينة . أما باقى سكانها فقد تركتهم تحت رحمة رجال الثورة الذين اندفعوا من أبواب المدينة كالذئاب الكاسرة يطاردون فرائسهم وهى تجرى أمامهم فوق الاشلاء المبعثرة فى حالة ذهول وجنون .

ولقد حاول ديجوميه كما حاول نابليون أن يكبح جماح جنوده الثائرين ولكن جريمة تولون فى إيواء أعداء الثورة ورفع أعلامهم على قلاعها كانت جريمة تصم آذان اليعقوبيين عن أى نداء اللهم إلا ما كان متمشياً مع صوت ضمائرهم فى وجوب أخذ الثأر من أعداء الوطن الخونة المتمردين !

وبلغ من إعجاب ديجوميه بنابليون وبلائه الحسن الذى أبلاه حول تولون أنه بعد سقوط المدينة تأبطه معه إلى مارسيليا وهناك رآه بعض أصحابه فمال عليه مازحاً يقول :

« من هذا الضويبط ؟ وأين وقعت يدك عليه ؟ » .

فما كان من ديجوميه إلا أن أجاب :

هذا الضابط اسمه نابليون بونابرت ! وقد وقعت يدى عليه فى حصار تولون التى يرجع الفضل الأكبر فى إسقاطها إليه ولسوف ترى يوماً من الأيام أن هذا (الضويبط) أكبر من أى رجل فينا ! » .

الفصل الثالث

التحالف الدولى الاول

أشرنا فى الفصل السابق إلى الجهود التى قام بها وليم بت وزير انجلترا فى سبيل جمع الدول الأوروبية على فرنسا لحصر الثورة فيها والقضاء عليها داخل حدودها . قبل أن يستفحل أمرها وتنتشر عدواها فيما جاورها من البلدان .

وكان طبيعياً أن يكون ملك اسبانيا أول من يلبى هذه الدعوة لمتاخمته لميدان الثورة .

كما كان طبيعياً أن تدخل هولندة فى هذا الحلف بعد أن رأت فرنسا تستولى على بلجيكا .

أما النمسا وبروسيا فدفعهما إلى الانخراط فى سلك هذا التحالف ما كان لا يزال عالقاً بأيدى القوم من دم مارى انتوانت ملكة فرنسا وعمة امبراطور النمسا . وما كان بينهما وبين فرنسا من ثارات الحرب التى أعلنها ملك فرنسا لويس السادس عشر قبل محاكمته وإعدامه . وهكذا أطبقت جيوش الحلفاء على فرنسا من الشمال ومن الشرق ومن الجنوب !

ولم يكن بد تحت هـذا الضغط من أن تتراجع جيوش الثورة التى كانت قد أوغلت فى قلب أوربا. وكان من بين القواد الفرنسيين المنهزمين رجل اسمه ديموريه «Dumouriez» ينتمى الى حزب الجيرنديين الذى كان يحكم فرنسا بالائتلاف مع حزب اليعاقبه. فلمــــا رأى ديموريه أنه قد خذل أمام النمساويين استولى عليـه اليأس لأنه كان يعلم أن ليس للقائد المنهزم عند اليعاقبة غير المقصلة فتخلى عن مكانه وانضم إلى الأعداء فراراً من الموت المحقق. وكان عمله هذا سبباً فى نكبة حزبه فى باريس حيث حامت الشكوك حول زعماء الحزب واتهموا بالخيانه وممالأة العـدو والـكيد للجمهورية. وتمثل اليعاقبة فى أشخاصهم جريمة صاحبهم ديموريه فألقوا القبض عليهم وطرحوهم فى السجن ولـكن كثيرين منهم تمكنوا من الهرب وانتشروا فى أنحاء فرنسا يلقون بذور الفتنه ويثيرون الرأى العـام فى الأقاليم على حكومة اليعاقبة. وأفلحوا فى ازعاج غرمائهم إلى حد بعيد حيث قامت مرسيليا وطولون وبردو وليون تشق عصا الطاعة. ويعان أهلها خروجهم على الحـكومة القـائمة فى باريس. وقد أشرنا الى ذلك فى فصل سابق.

أزاء هذا الانقلاب الذى حصل فى فرنسا وانقسام اهلها بعضهم على بعض تغيرت خطة الدول فبعد أن كانت نيتهم مقاومة الثورة ومحاربة القائمين بها اتجهت أنظارهم إلى تقسيم فرنسا وتوزيع أسلابها بين أنفسهم فاستولى الانجليز والنمساويون على « كونده Condé » وفالنسين Valencienne واستعاد البروسيون ما كانت فرنسا قد سلخته عن بلادهم وانتصرت جيوش أسبانيا على الفرنسين فى جبال البرانس. وزادت انجلترا هذا الطين بلة بأن أعلنت الحصر البحرى على جميع الموانى الفرنسية.

فلم ير اليعاقبة تحت هذه الضربات المتتابعة إلا أن يعلنوا أن « الوطن فى خطر » وأن لا سبيل لخلاصه إلا تركيز السلطة فى يد هيئة صغيرة تخول سلطة واسعة مطلقة لدفع هذا الخطر عن البلاد. فوضعت هذه السلطة فى يد لجنة أطلق عليها اسم « لجنة الأمن العام » وتولت هذه اللجنة حكم فرنسا من يونيه سنة ١٧٩٣ لغاية يوليه سنة ١٧٩٤ ويعرف عهدها فى تاريخ فرنسا باسم « عهد الأرهاب » لأنها لم تتعفف فى سبيل القضاء على خصومها فى داخل فرنسا عن سلوك أشد السبل قسوة وأكثرها وحشية واستكثرت من القوانين

الاستثنائية التى تمكنها من ارهاب أعداء الجمهورية والتنكيل بهم وجعلتهم عبرة لغيرهم حتى تنصرف الجهود بعد ذلك إلى خصوم الدولة خارج الحدرد.

وقد قررت هذه اللجنة فعلا تعبئةالأمة الفرنسية بأسرها تعبئة عامة لدفع الخطر الخارجى الذى كان يتهددها بوقوف الأعداء على حدودها كما سبق لنا البيان فى الفصل الخامس من الباب الأول (الثورة الفرنسية) .

« فأما الشبان فيذهبون الى ميدان القتال . وأما الأزواج فيقون فى المصانع لأعداد الذخيرة وصنع السلاح . وأما الزوجات فيفرغن للخيام ونصبها والجرحى وتطبيبهم وتهيئة الطعام واللباس وأما الصبية فيشتغلون بتحويل الخرق والمزق إلى أربطة لتضميد الجروح وأما الشيوخ فيستقرون فى الأسواق لأنهاض الهمم وتغذية النفوس بالغيرة والحماسة »

أما ما أعدته اللجنة لدفع الخطر الداخلى فكان « قانون الاتهام » الذى يقضى بالاعدام على كل من تشتبه الحكومة فى عدم ولائه لها .

وبهذه الصرامة والبساطة فى الاجراءات استطاعت اللجنة أن تتغلب على العقبات التى اعترضتها وأن تدفع عن نفسها

خطر الغزاة وخطر الثائرين

فأما المدن الثائرة فقد سقطت واحدة بعد واحدة فى أيدى جيوش اليعاقبة . ولم تستعص على تلك الجيوش منها الا مدينة تولون . وقد رأينا فى الفصل السابق كيف وصل نابليون اليها وأقام أساس عظمته الحربية حول اسوارها

وأما جيوش الحلفاء فقد ردهم قواد الثورة واستردوا مواقعهم الاولى فى المانيا وبلجيكا واستولوا على هولندا فى أواخر سنة ١٧٩٣ ولم ينقض عام ١٧٩٤ حتى كانت فرنسا صاحبة السيادة فى البلجيك وهولندا ونيس وسافوا وشاطىء الرين الغربى وهى الحدود التى كان يحلم بها لويس الرابع عشر ولا يستطيع تحقيقها .

وعلى أثر هذه الانتصارات انسحبت بروسيا من الحرب وتبعتها اسبانيا وبذلك أنهار التحالف أو كاد ولم يبق من أركانه غير انجلترا والنمسا .



الجنرال بونابرت

الفصل الرابع

نابليون والتحالف الاول

قدرت الحكومة الفرنسية الخدمات التى قام بها نابليون لصالح الجمهورية حول تولون فأمرت بترقيته إلى رتبة لواء اعترافا بفضله . وعلى الرغم من أنه لم يكن قد تجاوز بعد سنته الخامسة والعشرين حين حصل على هذه الرتبة السامية فان اسمه كان لايزال مجهولا بين الفرنسيين حتى أن الضابط الذى عين ياورا له لما كتب إلى أبيه يقول له أنه سيكون ياورا للجنرال بونابرت كتب إليه أبوه والأسف يملأ فؤاده :

« لماذا تركت القائد لابورد ؟ ولماذا تركت فرقتك ؟ ومن هو الجنرال بونابرت وأين خدم ؟ انى لا أعرف أحداً يعرفه . . . . . » .

على أن نابليون لم تكن تنقصه معرفة والد ياوره لتقدره الحكومة الفرنسية حق قدره فانه كان أملها الوحيد فى القضاء على ما بقى من عناصر التحالف الأول (انجلترا والنمسا) — ولما كانت انجلترا قد أعلنت حصرها للشواطئ الفرنسية

لخنق تجارتها وحرمانها من الاتصال بأية دولة أخرى فان الحكومة عهدت إلى نابليون فى القيام بمهمة تحصين الشاطئ الجنوبى فى وجه السفن الانجليزية. فانغمس فى هذا العمل الجديد بهمته المعهودة : ولم يترك فجوة فى البحر ولا ربوة على الأرض إلا سبر غورها وضبط أبعادها حتى اجتمع له من المعلومات فى بضعة أسابيع ما لم يكن ليجتمع لبعثة كاملة فى شهور. وبعد أن قسم المنطقة الساحلية إلى ثلاثة خطوط للدفاع وأقام على كل خط مدافعــه عاد إلى قاعدة الجيش المرابط فى نيس.

وكانت الحكومة الفرنسية قد أعدت هذا الجيش لمحاربة النمسا التى حشدت جيوشها فى سهول إيطاليا الشمالية استعداداً لمهاجمة الحدود الفرنسية بمساعدة (بيدمنت) . فلما دخل نابليون هذه المدينة وجد الجيش الفرنسى قانعاً بالكمون فى خنادقه ينتظر وثبة النمسا عليــه ليقوم بردها. فلم تعجبه هذه الحال وقام من فوره بوضع خطة للهجوم بناء على معلوماته التى اكتسبها عن طبيعة ذلك الميدان وقدمها من تلقاء نفسه لقائده الأعلى. وكان رجلا شهماً لبيباً فلم يتردد فى قبولها وتولى بالفعل تنفيذها. وبذلك لم تكد تمضى على نابليون فى

نيس ثلاثة أسابيع حتى كانت القوة الفرنسية كلها تزحف على العدو . ففر جيش (بيدمنت) أمام هذه المباغتة تاركا وراءه مؤنته وذخيرته غنيمة باردة للفرنسيين وبهذه الطريقة استولى الجيش الفرنسى على كافة الممرات التى تخترق جبال الألب من جهة الغرب .

غير أن نابليون لم يكد يتنفس قليلا فى ذلك الجو السعيد الذى كان يحيط به فى ذلك الوقت حتى ألقى القبض عليه بتهمة أنه عند ما كان مكلفاً بتحصين الشواطئ الجنوبية عمل على تسليح سجن قديم فى مرسيليا توهم الناس أن القصد منه إنما هو إقامة (باستيل) جديد يهدد سلامة الوطنيين بينما كان نابليون لا يرمى من وراء تسليحه إلى أكثر من أن يجعله مستودعاً للذخيرة تستمد الجنود منه حاجتها ولقد وفق نابليون فى هذه الأزمة إلى الحصول على معاونة روبسبير الصغير شقيق روبسبير الكبير طاغية باريس وزعيم حكم الأرهاب فنجح فى توصيل صوته إلى أسماع ذوى الشأن وسط تلك الضوضاء التى لم يكن يسمع فيها غير جعجعة الجيلوتين . ونجا نابليون من القتل المؤكد . فأخلى سبيله وأعيد إلى جيش نيس .

وفى ذلك الحين عرض عليه روبسبير الصغير مساعدته لدى شقيقه الأكبر ليعينه قائداً لحامية باريس ولكن نابليون لم تكن تخفى عليه الفوضى المستحكمة هناك . ولم يشأ أن يلقى بنفسه فى ذلك الوسط الموبوء الذى لم تكن تستقر الرءوس فيه على أكتاف أصحابها طويلا . وفضل الخدمة فى جبال الألب على الاتصال « بآلهة الأرهاب » فى باريس !

الفصل الخامس

كوكب النحس

كان نابليون حكيما فى رفضه الاشتراك مع روبسبير الكبير فى حكم باريس ولكن ما كانت الحكمة لتجدى إذا تلألأ فوقها كوكب النحس . وما كان فى الحذر غناء مما تجرى به المقادير . ولقد كان مقدراً على نابليون أن يسجن أولا ثم يوقف ويحرم من مرتبه ثم يشطب اسمه من الجيش مرة واحدة ثم تضيق الدنيا فى عينيه إلى حد أن يفكر فى الانتحار !

سجن نابليون

فنى تلك الفترة وقع فى باريس من الحوادث ما اهتزت له فرنسا كلها وقلب جميع شئونها رأساً على عقب . إذ كان « الآلهة الثلاثة » روبسبير ودانتون ومارا يحكمون باريس بالاشتراك فيما بينهم . فلما قتل مارا بقى فيها « إلهان » اثنان فقط ثم لم يلبث روبسبير أن اختطف روح شريكه وانفرد بالملك وحده . غير أنه بالغ فى سوء الظن بالناس وأسرف

فى الاعتداء على أرواحهم حتى ضجت باريس وائتمرت (بألهها) الباقى وقتلته . وارتفع بمقتله ذلك الكابوس المفزع الذى طحن فرنسا تحت كلكله شهوراً طوالا . وأحس الناس بعد موته كأنما أفاقوا من حلم مريع . وأصبحوا يتلهفون جميعاً للعودة إلى حياتهم الأولى حياة الدعة والسكينة والاطمئنان . وتعالت الأصوات من كل ناحية بوجوب مطاردة عمال الارهاب وقطع دابرهم والتخلص من نفوذهم .

وأمعن الناس فى تعقبهم لرجال الارهاب وأنصار حكومته حتى وصلوا إلى عنق نابليون فقبضوا عليه بدعوى أنه كان على اتصال بروبسبير فأودع السجن رهن التحقيق . ولم يبق إلا أن يخطو الخطوة الثانية فى هذا الطريق المحدود الذى كان ينتهى عادة تحت سكين الجيلوتين .

ودخلت أسرة نابليون على أثر هذه الحادثة فى برج النحس من جديد إذ ألقى القبض على لوسيان أيضاً وجاء وقت حسابه عن هوسه الذى استسلم له منـــذ كانت الأسرة فى جزيرة كورسيكا وود المسكين لو جلد بعدد حروف خطبه الرنانة حرفاً حرفاً على أن يسلم رأسه من المقصلة .

وهكذا خيم النكد على رأس هذه الأسرة فى الوقت

الذى كانت تتجاوب فيه أنحاء فرنسا بصيحات البشر والفرح لتخلصهم من شرور اليعاقبة وانتهاء حكم الارهاب .

على أن روح نابليون العنيد لم يفارق قوته حتى فى هذه الظروف اليائسة فلم يأل جهداً فى الاحتجاج لدى أولى الشأن على ما أصابه بعد أن وقف لصالح فرنسا كل تلك المواقف المشرفة التى رفع فيها راية الوطن عالية فى وجه خصومه وكذلك لم يأل صديقه جونو جهداً فى الدفاع عنه والشهادة له بأنه كان بعيداً عن جماعة الارهاب كل البعد وأنه رفض فعلا أن يمد يده اليهم عندمادعوه لمعاونتهم وأطمعوه بنفوذهم ووعودهم وأخيراً أراد الله أن تنكشف عنه هذه الغمة فبعد أن فتشت أوراقه ولم يتوفر فيها الدليل على اتهامه أخلى سبيله .

بعد ذلك أعيد نابليون إلى رتبته وسافر مرة أخرى إلى الجنوب ليشترك فى حرب النمسا وكأنه أحس بأن واجباً عليه أن يثبت للحكومة التى أفرجت عنه بأنها أحسنت إلى نفسها بهذا الافراج قبل أن تحسن إليه فما كاد يتسلم عمله فى الجيش حتى رد النمساويين عن مواقعهم وانتصر عليهم انتصارات أولية مهدت السبيل أمام الجيوش الفرنسية التى

كانت تنوى عزو السهول الشمالية لايطاليا .

ولكن الحكومة المركزية فى ذلك الحين سجلت على نفسها أنها كانت أعجز من أن تقدر جهود العاملين من رجالها حينما قضت بنقل نابليون من جيش إيطاليا ووكلت اليه قيادة لواء المشاة الذى نيط به إخماد الفتن التى قام بها أهل مقاطعة «لافندة La Vendée» فى غرب فرنسا . فامتعض نابليون لهذا القرار ورأى فيه نكرانا لمواهبه واعتداء على كرامته فان رجال المدفعية كانوا فى ذلك العصر — كما هم اليوم — يعتبرون أنفسهم أرقى من زملائهم (مشاة وفرسانا) بالنسبة لما تتطلبه الخدمة فى سلاحهم من الخبرة والمهارة الفنية على عكس سلاح المشاة مثلا الذى لا يتطلب فى نظرهم كفاءة خاصة والذى يمكن لأى ضابط من الأسلحة الأخرى أن يخدم فيه .

ورأى نابليون من جهة أخرى أن لانتصاراته على أعداء فرنسا خارج حدودها قيمة أكبر وأسمى من قيمة انتصاراته على أبناء فرنسا أنفسهم داخل الحدود . فلم يتردد فى الاعتذار عن قبول هذه الخدمة الجديدة مدعياً أن صحته فى حاجة الى الراحة والعلاج .

وقفه وحرمانه من مرتبه

ولقد ترتب على رفض نابليون لما عرضته عليه لجنة الحربيـة أن أوقف وحبس عنه مرتبـه فساءت حاله وحال أسرته معه . ولم يعد لهم من مورد يستندون اليه إلا ماقبضه يوسف من مهر عروسه ابنـة المسيو كلارى التى تم زواجه بها حديثاً فى مارسيليا ويستطيع الأنسان أن يقدر قيمة هذه المعونة متى عرف أن نابليون نفسه كان يغبط أخاه على هذه الزيجة ويتمنى لنفسه مثلها وهو يقول « ما أسعد حظ هذا الأبله يوسف ! » .

شطب اسمه من الجيش

وحدث أن سقطت الحـكومة القائمة فى فرنسا فى ذلك الوقت وقامت فى مكانها هيئة جديدة فبادر نابليون بالسفر إلى باريس وهو يرجو أن يأتيه الفرج على يدها فيعود إلى مركزه السابق فى الجيش ولـكنه لم ينل منها مأربا . وأخيراً فكر فى السفر إلى تركيا حيث كان السلطان يرغب فى اعادة تنظيم جيشه بمعاونة خبراء عسكريين من الجيش الفرنسى .

فرشح نفسه لذلك فعلا مع غيره من المرشحين وبينما هو يمنى نفسه بقرب الخلاص من هذا الضيق ويحلم بما سيصادفه فى الشرق من النجاح كانت الحكومة تقلب ملف خدمته بين يديها تمهيداً للنظر فى أمر ارساله إلى تركيا فلا تجد فى سلوكه معها إلا مخالفة من بعدها مخالفة بسبب كثرة غيابه فى كورسيكا وتخلفه عن المواعيد التى كان يرخص له بها واعتــــذاره عن قبول المناصب التى تعرض عليه فقررت بشطب اسمه من كشف القواد . وبذلك حلت النكبة كاملة بعد أن ظلت زمانا تحلق فوق رأسه وهو يتقلب تحتها بين الرجاء واليأس .

ولقد كان لهذه الضائقة فى نفس نابليون من الأثر ما لم تقو الأيام على محوه وإزالته . واليك ما قصه هو بنفسه على زملائه الذين صحبوه فى سانت هيلانه عما كان يعانيه من الآلام بعـد ما فوجىء بشطب اسمه من الجيش وأصبح على الرغم من كل مواهبه عاطلا شريدا يتسكع فى طرقات باريس :

كنت فى ذلك الحـين فريسة لتلك الحالة النفسية التى يخلقها الضيق ويشل معهـا حركة الفكر وتصبح الحياة على صاحبها حملا ثقيلا لا يطاق وورد إلى من أمى كتاب تصف لى فيه ما وصلت إليه من العجز التام عن القيام بنفقات إخوتى

الضرورية ورأيت نفسى لا عمل لى ولا راتب ولم يكن فى جيبى غير ريال واحد . فاستيقظت فى نفسى غريزتها البهيمية فى العمل على التخلص من هذا الشقاء الذى لا يحتمل وفقدت كل أمل فى أمكان الخلاص من هذه التعاسة الملازمة . فرأيت أقدامى تقودنى إلى جانب النهر وكنت أحس بما فى الأقدام على الانتحار من عدم الرجولة ولكنى لم اكن أستطيع مقاومة الدافع الذى يدفعنى إلى إلقاء نفسى فى الماء . ولم تكن بينى وبين هذه الخاتمة الشنيعة إلا لحظات قصيرة كان لابد منها لهذا الخاطر المشئوم حتى ينضج وينتقل إلى دور التنفيذ وعند ذلك لم أشعر إلا وانسان يطوقنى بذراعيه ويناديني باسمى فنظرت فأذا أنا بين ذراعى صديق قديم كان معى فى المدرسة . وكان هذا الشاب من سلالة إحدى الأسر الشريفة بفرنسا ثم هاجر منها مع المهاجرين ولكنه كان يعاود زيارة باريس فى الخفاء من حين إلى حين ليزور أمه العجوز .

وكأنما راع صديق ما رآنى عليه من الكأبة وما كان باديا على ملامحى من النوايا الشريرة فأقبل على بلهفة يسألنى « ما بالك يا نابليون ؟ إنك لا تلتفت الى ! وكأنى بك لم تسر

بلقائى ! أى شيء يشغل بالك ؟ أنك لتنظر إلىّ نظرات رجل مجنون يوشك أن يقتل نفسه ! » .

وكأنما كشفت فراسة صديقى الغطاء عن دخيلة نفسى فلم أعد أفكر فى أخفاء شيء عنه مما كان يجول بخاطرى وأفضيت اليه بكل سرى . فما كدت أفرغ من حديثى حتى رأيته يحل عن وسطه نطاقا كان يشده عليه وهو يقول : أهذا كل شيء ؟ دونك ستة آلاف ريال ذهباً لا حاجة لى بها الآن خذها وفرج بها كربة أمك ! » فلم أدر والذهب أمامى كيف سمحت لنفسى بأن استولى عليه ولكنى اختطفته من غير وعى وغلبنى الانفعال فطفقت أعدو حتى أدركت البريد المسافر لى مرسيليا فحملته إياه . وعند ذلك عدت إلى نفسى وبدأت أفكر فيما صنعت . وكان أول ما فكرت فيه أن أعود إلى حيث تركت صديقى ولكنى حاولت عبثاً أن أنتظره أو أهتدى إليه . ولقد لبثت أياماً وأنا أذهب إلى ذلك المكان كل صباح ولا أعود منه إلا فى المساء لعلى أظفر بلقاء هذا الصديق ولكن ذهبت كل جهودى فى هذا السبل أدراج الرياح ولم أوفق للعثور على هذا الصديق إلا بعد أن تربعت على عرش الأمبراطورية فوجدت أن الفرصة مؤاتية للانتقام

لنفسى من جميله الذى أسداه إلىّ وانتشلنى به من وهدة الضياع . فسألته عن رأيه فى تصرفى معه فى تلك الليلة العصيبة فأجابنى بانه لم يكن فى حاجة إلى المال ولذلك لم يبرز لمطالبتى به بعد ذلك . وقال إنه خشى أن يقدم نفسه لى فأحرمه من عزلته التى كان يعيش فيهـــا هادئاً بين مزارعه وبساتينه . فأغلظت عليه فى قبول ستين ألف ريال وفاء لمبلغ ستة الآلاف التى دفعها إلى فى محنتى . والححت عليه فى قبول وظيفة المدير العام للحدائق الامبراطورية بمرتب سنوى قدره ستة آلاف ريال وعينت شقيقه كذلك فى مركز من المراكز السامية »

الفصل السادس

الحكومة فى خطر

كانت حكومة فرنسا أيام لويس السادس عشر حكومة ملكية استبدادية ثم تقرر جعلها حكومة دستورية . وأقسم الملك يمين الولاء للدستور الذى وضع تحت إشرافه . ولكنه حنث بيمينه فثار عليه الشعب وسجنه وقتله وأعلن انقضاء عهد الملكية فى فرنسا . ودعى مؤتمر وطنى (سنة ١٧٩٢) ليرسم للبلاد نظام حكومة جديدة . ووقع الاختيار على النظام الجمهورى . ولكن قامت بعد ذلك « حكومة الأرهاب » بسبب الأخطار التى تهددت فرنسا . وقاست البلاد فى ظلها الويلات فلما قتل روبسبير. وانتقل الحكم من يد (اليعاقبة) إلى (المؤتمر) عاد الناس يتنفسون فى جو الحرية المنعش وحاول المصلحون أن يقبضوا مرة أخرى على دفة الحكم ليعودوا بتلك السفينة المرتطمة التى خلفها لهم روبسبير الى شاطىء السلام والرخاء والنظام . وعاد المؤتمر يستأنف جهوده فى وضع نظام الحكومة الجديدة .

ولكن اليعقوبيين لم تكن تروقهم هذه الحركة بطبيعة الحال فانتشروا يثيرون الناس على هيئة المؤتمر وساعدهم على نشر هذه الدعوة ما كان يقاسيه العامة من الضيق وقلة الاقوات فكثرت اجتماعات العمال والغوغاء . وأخيراً تقدموا إلى المؤتمر بطلباتهم وفى مقدمتها تنفيذ (دستور سنة ١٧٩٣) الذى وضع فى عهد الارهاب وحالت ظروف البلاد فى ذلك الوقت العصيب دون تنفيذه وكان يمتاز هذا الدستور بأنه يجعل الحكم للشعب مباشرة لأن حق الانتخاب فيه مقرر لكل من بلغ عمره ٢١ سنة . وكانت السلطة التشريعية بمقتضاه فى يد مجلس واحد ينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام وكان لا بد لنفاذ القوانين التى يُصدرها هذا المجلس من استفتاء الشعب فيها استفتاء عاماً . وغنى عن البيان أن مثل هذا الدستور كان أدعى إلى الفوضى منه إلى النظام نظراً لأنه يحاول أن يشرك أفراد الأمة كلها فى حكم البلاد . فقرر المؤتمر ادخال بعض التعديل على نصوص هذا الدستور . وعينت لجنة للقيام بهذا العمل . فثار الجمهور بايعاز اليعاقبة وهاجم دار المؤتمر واقتحم أبوابها واختلط بالأعضاء وحاول أن يحملهم بالارهاب على إجابة مطالبه . ولكن هيئة المؤتمر ظلت ثابتة . واعتصمت

بالحكمة والرزانة حتى تفرق الثائرون وزال الخطر وعند ذلك بادرت بالرد على هذه المباغتة الآثمة فأصدرت قراراً بأن حرية مداولات المؤتمر قد اعتدىَ عليها فى ذلك اليوم . وأنه لا بد من اجراء التحقيق لمعرفة زعماء هذه الفتنة وتوقيع العقاب عليهم كما قررت نفى أربعة من زعماء اليعقوبيين فى فرنسا وإعلان الأحكام العرفية فى باريس وتعيين الجنرال « بشيجرو » حاكما عسكرياً للمدينة حتى تستأصل عناصر الفتنة ويعاقب مدبروها . وهكذا تمكن المؤتمر من رد كيد العصاة فى نحورهم .

ورأى اليعاقبة بعد هذه الهزيمة المنكرة أن المؤتمر أثبت من أن تزعزعه المظاهرات فقرروا فيما بينهم أن يرسموا خطة منظمة لمهاجمته واضطرار أعضائه بقوة السلاح إلى التسليم بمطالبهم وأهمها الافراج عن زعمائهم . وإعادة (دستور سنة ١٧٩٣) من غير تعديل .

وفى صبيحة اليوم التالى (٢٠ مايو سنة ١٧٩٥) أطبقت جموعهم حول قاعة الاجتماع ثم دخلوها مدججين بالسلاح وأحاطوا برئيس الجمعية ليحملوه على إقرار ما يطلبون . ولكنه بقى رابط الجأش على الرغم من وقاحة مهاجميه .

وأخيراً تقـدم أحد النواب ليصد عنه الغوغاء فرماه أحدهم برصاصة ألقته صريعاً . فهجم الثوار على جثته وحملوها إلى الخارج حيث مثل بها الرعاع وقطعوا رأسه ثم دخلوا به إلى القاعة محمولا على رمح طويل . وبعد أن خيمت الفوضى على قاعة المؤتمر نحو ست ساعات تمكن جنود الحكومة فى النهاية من طرد الثائرين وتخلص الأعضاء مما كان يحيط بهم من الأخطار . ثم رأى المؤتمر أن ينتقم لنفسه هـذه المرة انتقاماً ذريعاً يجعـــله بمأمن من خصومه اذا وسوس لهم الشيطان بالفتنة من جديد . فقرر القبض على جميع الزعماء اليعاقبة ومحاكمتهم وتجريد كل من يشتبـــه فى انتمائه إلى اليعقوبيين من السلاح وسيرت حملة عسكرية على معقل الفتنة فى شارع سانت أنتوان لتنفيذ هـذا القرار فوقع فى يدها كثير من الزعماء وحكم على كثير منهم بالأعدام . وبذلك هدأت الأحوال وعاد المؤتمر يتناقش فى مشروع الجمهورية الجديدة .

فتقرر أن تكون الهيئة التشريعيـة من مجلسين يتألف أحدهما من خمسمائة عضو ويسمى (مجلس الخمسمائة) ويتالف الآخر من ٢٥٠ عضواً لا يقل عمر أحدهم عن أربعين سنة

ويسمى (مجلس الشيوخ) . وقد جعل لمجلس الخمسمائة وحده الحق فى تقديم مشروعات القوانين والمناقشة فيها على أن تعرض بعد ذلك على مجلس الشيوخ ليقرها أو يرفضها . أما السلطة التنفيذية فقد وضعت فى يد مجلس يتألف من خمسة مديرين يتعاون فى انتخابهم مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ ويسقط كل سنة واحد منهم بالاقتراع .

وقد رأى المؤتمر أن يمنع نفوذ اليعاقبة ما استطاع عن أن يتسرب إلى الحكومة الجديدة فقرر أن يحتفظ لأعضائه بثلثى المقاعد فى الهيئة التشريعية الجديدة وأن ينتخب الثلث الباقى فقط من الخارج وبذلك سد طريق الحكم فى وجه كل ساع إليه لأنه ضمن الأغلبية لرجاله . وكان قراره هذا كفيلا بأن يجمع أحزاب المعارضة كلها فى صف واحد . وأصبح من المحقق وقوع معركة فاصلة بين الفريقين تحدد نتائجها مستقبل الحكومة . وتكون حكما بينها وبين الثائرين .

وسرعان ما اجتمع من أهل باريس نحو أربعين ألفاً من المعارضين — ملكيين ويعقوبيين — وتولى قيادتهم زعماء مدربون وكانت نية الجميع أن يحملوا على المؤتمر حملة مسلحة يطلبون إليه فيها أن يعدل عن قراره هذا . وأن

يخضع لمطالب الشعب فلم تكن المسألة هـــذه المرة مسألة مظاهرة اعتيادية يتحطم فيهـا بعض ألواح الزجاج كالمعتاد وترجم فيهـــا بعض النوافذ والأبواب بالحجارة ثم يعود المتظاهرون أدراجهم قانعين ولـكنها كانت غارة منتظمة بمدافعها وبنادقهـا وموسيقاها تسير كما يسير الجيش النظامى إلى ميدان القتال .

ولقد تنبه المؤتمر للخطر المحدق بكيـانه فأعد على وجه السرعة نحو خمسة آلاف جندى سلم قيادتهم للجنرال (مينو) ووكل إليه قمع هذه الحركة . وكان مينو رجلا ليناً ضعيف الأعصاب فما هو أن طلعت على قوته طلائع الثائرين وتبين وفرة عدد خصومه حتى أصدر أمره بالانسحاب إلى سراى التويلرى حيث كان ينعقد المؤتمر .

الفصل السابع

طالع السعد

كان نابليون بونابرت — الجنرال سابقاً ! — يجوب فى تلك الساعات شوارع باريس ويشهد ما يجرى فيها والقلق يكاد يأكل قلبه على ما قد يصيب البـــلاد من الفوضى إذا انتصر الثائرون. فلما انسحب مينو بجنوده إلى التويلرى تبعهم إليها. وكان الظلام قد بدأ يرخى سدوله على المدينة الهائجة فانصرف الثـائرون وقد امتلأوا يقيناً بأن الحكومة سوف تدين لأرادتهم ما دام جنودها قد انهزموا أمامهم ولما تنطلق منهم طلقة واحدة ! .

وبقى نابليون يستمع للمناقشات المحتدمة فى المجلس حتى كانت الساعة الحادية عشرة ليلا . وعند ذلك أجمع الأعضاء على وجوب عزل الجنرال مينو وتسليم أمر الدفاع عن المؤتمر إلى (باراس) Barras أحد رجال المؤتمر الممتازين نظراً لما

يتطلبه الموقف من اليقظة والحزم . وأدرك باراس مافى المهمة الملقاة على عاتقه من الخطر وود لو أزاح مسئولياتها عن رأسه وعلقها فى عنق غيره . وكأنما لمح وجه نابليون فى أروقة المجلس فانه صاح بزملائه قائلا : « أنى أعرف الرجل الذى يستطيع حمايتنا والدفاع عنا . ذلك هو الضابط الكورسيكى نابليون بونابرت الذى عرفته فى تولون ! » .

وأرسل المؤتمر فى طلب نابليون يستدعيه . وجلس الأعضاء ينتظرون ذلك المارد الذى يقول لهم (باراس) عنه : « انه يستطيع حمايتنا والدفاع عنا ! » ولم يكن لمعظمهم معرفة سابقة بهذا الضابط الكورسيكى الذى عرفه باراس حول تولون فأيقنوا فى أنفسهم بكثرة الشحم واللحم . . . ودخل عليهم نابليون فأذا هم أمام شخص قمىء وجسم ضئيل يضن الناظر إليه بان يقول عن صاحبه أنه بلغ العشرين . فوجه إليه الرئيس كلامه قائلا .

— « هل لك إلى أن تتولى الدفاع عن المؤتمر ؟

فأجابه نابليون بكل إيجاز : — « نعم ! »

فأطرق الرئيس قليلا ثم قال :

— « أو تدرك خطر المهمة التى عهدت إليك ؟ » .

فرمقه نابليون بعينى النسر اللتين حبته الطبيعة بهما وقال :

— « أعرفها تماماً ! وأن من عادتى أن أقوم بكل ما أتعهد به ! . . . . ولكن لى شرطا واحداً لا بد لى من توفره قبل القيام بهذه المهمة . ذلك أن تكون يدى مطلقة فى العمل لا تقيدها إرشادات المؤتمر ولا تعليماته ! » .

ولم يكن المجال يسمح بمجادلة نابليون فيما يشترط فأطلقت يده ليفعل كيف يشاء .

وكان على مقربة من باريس نحو خمسين مدفعا من المدافع الضخمة الرشاشة فأمر نابليون باحضارها فى الحال فأحضرت ونصبت حول التويلرى . وصوبت فوهاتها إلى جميع الطرق المؤدية إلى مكان المؤتمر . وظل نابليون طول الليل يتنقل حول المكان ليشرف على كل معدات الدفاع . وأخيراً بعث إلى أعضاء المؤتمر نحو ثمانمائة بندقية وكمية وافرة من الذخيرة لتكون تحت أيديهم عند الضرورة . وكان ذلك دليلا على تقدير نابليون لحرج الموقف حيث لم يكن من المتعذر على الثائرين وهم على ما هم عليه من وفرة العدد أن يحاصروه هو وأعضاء المؤتمر أياماً حتى يضطر إلى التسليم تحت تأثير الجوع ونفاد الذخيرة .

وأخيراً أسفرت أضواء الفجر الشاحبة عن قصر التويلرى وهو محاط بتلك الاستحكامات كأنه قلعة شاكية لم تعرف قط غير السلاح والجنود . . . وبكر الثائرون إلى الميادين التى تواعدوا على الاجتماع فيها وأقبلوا على المؤتمر فى صفوف متراصة كثيفة ورآهم نابليون يتقدمون إليه ولم يبق إلا أن يشتبك الخصمان : أربعون ألفا يهاجمون ونحو خمسة آلاف يدافعون ! . . . ولكن نابليون عول على الانتظار حتى تقع مسئولية الضربة الأولى على عاتق الثائرين . ولا بأس من أن تقع على عاتقه هو مسئولية الضربة الثانية . ولم يكن يحلم الثائرون بأنهم سيصادفون أدنى مقاومة من جانب المؤتمر وكانوا يعتقدون أن بضع طلقات يطلقونها على حاميته سوف تخلى لهم السبيل . وما دروا أن نابليون قد بات ليلته وهو يعد مدافعه ليستقبلهم فى الصباح برصاصها الرشاش ! .

ولما اقتربت طلائع الثائرين من صفوف نابليون ورأوهم جاثمين حول المؤتمر ينظرون إلى تقدمهم نحوهم ولا يحركون ساكناً صوبوا بنادقهم إليهم وأطلقوها . ووقعت مسئولية الضربة الأولى فعلا على عاتق الثائرين كما أراد نابليون وعند ذلك أمر بأن تفتح عليهم أفواه المدافع وتفرغ فى صفوفهم

كل ما تستطيع إفراغه من طلقاتها الرشاشة . فانسابت عليهم ميازيبها بوابل من الرصاص وانفجرت الزوبعة التى قضى نابليون فى تعبئتها ليلة كاملة . فارتبكت صفوف الثوار تحت هذا البلاء الهاطل . وحاولت الثبات ولكن العاصفة بقيت ثائرة برعدها وصواعقها حتى لم يطق الشعب عليها صبراً . فحاول الاحتماء منها ولكنها كانت خلف كل واحد كأنما تتعقبه وحده من دون زملائه . فلم يبق إلا الفرار وإخلاء الميدان . ولكن الزوبعة بقيت أيضاً تطارد الجميع لا تهدأ لها حدة ولا تنطفى لها سورة . ولم تكد تمضى ساعة حتى كان نابليون يلتمس فرداً من الأربعين ألف الذين أطبقوا عليه من كل صوب فى الصباح فلا يجد إلى واحد منهم سبيلا . ولكنه لم يكتف بذلك بل أرسل جنوده وراء الثائرين ووكل بكل حى من أحياء باريس طائفة من رجاله ينزعون السلاح من أهله حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة . ولما فرغ من كل ذلك عاد أدراجه إلى المؤتمر هادئاً ساكناً .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهناك قابله الأعضاء بما استحقه من التكريم والاعجاب

وأعلنوا اعترافهم له بأنه صاحب الفضل فى إنقاذ الجمهورية.

وكأنما آن أوان الحصاد لكل ما بذل نابليون من الجهود الجبارة سواء أكان ذلك فى إكبابه على الدرس والتحصيل فى برين وباريس أم فى تفانيه فى العمل على شواطئ فرنسا الجنوبية ضد الانجليز أم فى حملاته التى قام بها فى جبال الألب على النمساويين. فان صديقه (باراس) عين مديراً من بين المديرين الخمسة الذين تألفت منهم الحكومة الجديدة فكوفئ هو تبعاً بتعيينه قائداً عاماً للجيش الداخلى وهو مركز عظيم. وافر الدخل. انتقل به نابليون من حياة البؤس والشقاء إلى حياة العز والرفاهية. فأصبح له قصر مشيد يسكن فيه. وعربة خاصة تجرى به فى شوارع باريس. وخدم. وحشم. وحاشية وياوران وما شئت من بقية مظاهر الوجاهة.

وكان أول ماخطر بباله وهو يتلقى البسمات الأولى لهذه الدنيا التى بدأت تقبل عليه أن يبادر إلى جوار أمه لتنعم معه بما هو فيه من نعيم وملك عظيم. فسافر إليها فى مرسيليا حيث كانت تقيم مع إخوته. ومنذ هذه اللحظة أخذ يتجلى بر نابليون بوعده حين كتب لأمه عقب وفاة والده يقول:

« أى أمى العزيزة! تعزى واصبرى. فان الأحوال توجب

علينا العزاء والصبر . وسنضاعف نحن العناية بك والاعتراف بجميلك . فاذا وفقنا إلى تعويضك بعض الخسارة فى الفقيد العزيز كنا سعداء الطالع ! »

الكتاب الثانى

الجنرال بونابرت

الباب الأول

زواج نابليون

الفصل الأول

عواطف نابليون

لم تكن طبيعة نابليون من تلك الطبائع الهادئة التى يزينها القصد والاعتدال ولكنه كان حاد العواطف . إذا أحب أغرم . وإذا أبغض مقت . وإذا رغب أراد . وحيث تتجه ميوله تمتد قبضته بكل ما أودع الله فيها من قوة ليحصل على بغيته . وحيث تقع كراهيته ينقض كالصاعقة بكل ما أودع الله فى روحه من عنف وبكل ما تصل إليه يده من الوسائل

ولقد تجلت هذه الطبيعة فى نابليون منذ صباه ولكن ماكان يعانيه من الفقر بعد موت والده وما كان يرى فيه أمه وأخوته من العسر والضيق صرف كل ميوله إلى العمل على انتشال الأسرة من تلك الوهدة التى سقطت فيها . فكان عنفه فى دراسته وكانت حدته منصبة على الكتب وقتلها اطلاعا وبحثاً . ولقد كان ذلك سبباً فى أن تتركز كل عواطفه فى تلك الناحية . فشب وبلغ أشده دون أن تجد

عواطف الشباب عنـده مجالا للظهور والنمو وبقيت محتبسة فيه زماناً وهى مهملة لا حساب لها عنده حتى اشتهر عنه بين النساء أنه جامد العواطف جاف الطباع . ويروى عنه أنه لما كان مع فرقته فى فالانس كان يقيم مع جماعة من زملائه فى دار حلاق . فبينما كانت ربة الدار موضع تودد اخوانه وملاطفتهم لم يكن لها حظ مطلقاً من عناية نابليون وملاطفته فكان ذلك اهمالا بالغاً منـه لم تنسه قط له ولم تغفر له أبداً خطيئته فيه . ومن مأثور كلام نابليون فى تلك الفترة من عمره قوله : « انى أرى الحب مضراً بمصلحة المجتمع . وبسعـادة الفـــرد ! »

وليس بعجيب طبعاً أن يصدر مثـل هذا الكلام عن شاب لا يملك رزقه ورزق أخيه (الذى كان يعيش معه فى فرنسا فى ذلك الوقت) إلا بشق الأنفس . فان الحب « يحتاج إلى معدة ملأى » كما يقول الانجليز .

ولقد قال نابليون أيضاً : « الحب مشغلة الخلى . وملهـاة الجندى . ومنقصة الملوك » — ولـكنه قال ذلك أيام لم يكن يريد أن يفتح قلبـه لانسان ولأيام كان يستنفد العمل كل جهوده . وأيام كان مجرى عواطفه ينصب فى ناحية واحدة

وهى ناحية أسرته العاجزة المعوزة . أما بعد ذلك فان تلك العواطف المحتبسة قد انتقمت لنفسها وبرزت فى صورة شرهة ضارية . فأن نابليون لم تكد تنصلح حاله حتى تفتح قلبه للحب بنفس الحدة التى اتسمت بها سائر عواطفه . بل لقد أصابه فى هذه العاطفة بالذات نوع من رد الفعل كان أشبه الأشياء بالنهم المخيف الذى يعقب الجوع المدقع . فكان اذا اتصل بامرأة ذاب فى هواها وتوله بها وارتمى بين يديها يطلب الزواج منها غير آبهٍ لما قد يكون بينه وبينها من الفوارق التى تجعل الزواج بينهما مستحيلا . ومما يروى عنه أنه وقع فى غرام سيدة كهلة تكبره بعشر سنوات ولكنه ولع بها ولعاً شديداً ولم يكن يهنأ له عيش إلا بمجالستها . وأخيراً طلب اليها أن تتزوجه فأغرقت فى الضحك قائلة : « أنك بهذا تجعل الناس يضحكون منك . فأننى فى سن أصلح معها أن أكون لك أماً لا زوجة . فأقلع عن هذا الحب الذى يجعلك أضحوكة بين عارفيك ! »

فيئس منها نابليون وسلاها ... ولكنه مالبث أن وقع فى غرام امرأة أخرى كانت بالفعل أكبر من أمه سناً حتى قيل أنها كانت قد تزوجت لأول مرة قبل أن يولد هو بثلاثين سنة

على أن نابليون كان ضحية أكثر من غرام واحد فى بدء حياته فلقد مر بنا ذكر الآنسة (دزيريه) بنت المسيو كلارى التى أحبها دون أن يتلقى عن حبه لها غير الصد والازورار مما جعله ينقم من أخيه يوسف توفيقه فى الوصول الى قلب أختها جوليا وزواجه بها بعد ذلك « هـذا الأحمق يوسف الذى ما أسعده ! » كما كان يقول عنه نابليون .

وكأنما سئمت نفس نابليون هذا الرفض المتواصل فعاد الى كظم غرامه واكتفى بالتردد على صالونات الشهيرات من نساء باريس أمثال مدام تاليان Mme Tallien حيث كانت تلتقى صفوة القوم من كل ذى جاه وحسب أو ذات جمال وأدب . وبقى على هذه الحال حتى عرف جوزفين بوهارنيه Josephine Beauharnais ودخل فى دائرة جاذبيتها وعندئذ تنبهت فيه كل عواطف الحب ووقع فى غرامها الوقعة الكبرى التى لم يسبق له مثلها . وأحس بأن هذا هو الحب الذى طالما تمرد على سلطانه حتى وقع أسيراً فى قبضته . فاستسلم وألقى سلاحه طائعاً مختاراً للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخ حياته .

الفصل الثانى

جوزفين

ولدت جوزفين باحدى جزائر الهند الغربية التابعة لفرنسا في الثالث والعشرين من شهر يونيه سنة ١٧٦٣ (فهى أكبر من نابليون بنحو ست سنوات) وكان أبوها قبودان مينا سان بيير St. Pierre فى جزيرة المارتنيك . وبحكم نشأتها فى تلك الجزيرة لم تتلق من التعليم الا المبادىء الأولية التى يسمح بها مثل هذا الوسط . غير ان الطبيعة عوضتها عما نقصها من مؤهلات العلم بما أسبغت عليها من المحاسن الساحرة التى جعلتها ملء عين الجميع حيث أقامت ولم تكد تبلغ الخامسة عشرة من عمرها حتى رحلت الى فرنسا . وسرعان ما التقطها هناك الفيكونت اسكندر بوهارنيه أحد أشراف فرنسا . فتزوجها وولدت له صبياً اسمه أوجين ثم فتاة اسمها هورتنس ولم يمض على ذلك قليل حتى حصدت مقصلة الثورة رأس بوهارنيه فيما حصدت من رؤوس الاشراف اثناء عهد



الامبراطورة جوزفين

الارهاب (سنة ١٧٩٤) وأوشكت جوزفين أن تلحق بزوجها حيث قبض عليها وأودعت سجن الكونسيرجرى Conciergerie رهن الطلب ولكن حدث عند ذلك أن سقطت حكومة روبسبير وانتهى عهد الارهاب فانفتح طريق النجاة أمامها وأمام أمثالها ممن أوشكوا أن يكونوا ضحايا ذلك العهد.

ومن عجيب ما يروى بهذه المناسبة أن زنجية من اهل المارتنيك تنبأت لجوزفين وهى بعد فتاة فيها بأنها ستتزوج ولكن زوجها الأول سيموت عنها ويتركها فريسة فى يد الدهر يعبس لها حقبة من الزمن ثم يعود فيبسم لها ويرتفع شأنها حتى تصير من ربات العروش والتيجان فكانت هذه النبوءة مما خفف عنها آلام سجنها حيث كانت تمنى نفسها بنصف النبوءة الثانى بعد أن تحقق فيها نصفها الأول . ولقد بالغت جوزفين فى حسن ظنها بكلام الزنجية العجوز الى حد انها وعدت صاحباتها فى السجن بأنها ستتخذهن لنفسها وصيفات بعد أن تجلس على عرشها الموعود.

ودار الزمان دورته ووكل إلى نابليون أمر الدفاع عن المؤتمر كما مر بنا الكلام فى الفصول السابقة . وأنقذت الجمهورية على يديه بفضل ما بذله من الجهود فى تشتيت

الثائرين ونزع السلاح من أهل باريس عامة حتى لا يكون هناك خطر يتهدد الحكومة بعد تلك الثورة . وقد جمع رجاله فيما جمعوه من الأسلحة سيف الفيكونت بوهارنيه الذى خدم الثورة فى بدء أيامه كقائد من قوادها . فجاءه بعد ذلك بأيام أوجين بوهارنيه يلتمس منه أن يرد اليه سيف أبيه وكان أوجين فى العاشرة من عمره وعليه من مخائل النجابة والوسامة ما فتح له قلب نابليون فتلطف له وحنا عليه حنوا عظيما تأثر له قلب جوزفين لما عاد صبيها وقص عليها ما كان بينه وبين نابليون . ولقد بلغ من تأثر جوزفين أنها قامت فى اليوم التالى بزيارة هذا القائد الكريم الذى أحسن الى ولدها كل هذا الاحسان . وكانت جوزفين علاوة على ما وصفناها به من رقة الشمائل متفردة فى حسن الذوق بارعة فى آداب اللياقة وأصول المجاملات ووقعت زيارتها فى نفس نابليون أجمل وقع وأخذت محاسنها بمجامع قلبه حتى أنه لم يتمالك أن يعجل برد الزيارة لها فى منزلها طمعاً فى الاستمتاع بحديثها ومجلسها مرة أخرى . واستقبلته جوزفين أحسن استقبال وأعربت له مرة أخرى عن حسن تقديرها لجميله ثم استرسلت فى حديثها تقص عليه من أنباء زوجها ما استأنس له نابليون

فذكرت له كيف كان (الكونت) المرحوم من أجمل رجال باريس وجهاً وأبرعهم رقصاً . وكيف أنه حظى بشرف مراقصة مارى أنتوانت نفسها أكثر من مرة . وكيف أنها حرمت عشرة زوجها وهى فى ميعة صباها . وكيف أن ولديها باتا يتيمين وهما بعد فى سن طفولتهما . وطفق نابليون من ناحيته يقص عليها أيضاً تاريخه فى كورسيكا . ويقابل بين حاله هو وأخوته بعد موت والدهم وبين حال أوجين وهورتنس . وأظهر عليهما من العطف ما كان كفيلا بأن يكسبه هو عطف جوزفين . وهكذا انتهت هذه الزيارات العارضة بتلك النتائج الخطيرة التى فتحت أمام نابليون طريق غرام جديد ملك عليه حواسه وفتحت أمام جوزفين ذلك الطريق الذى تنبأت لها به زنجية المارتنيك . ومالبث أن انتهى بها الى العرش والتاج .

على أن جوزفين — وان تكن قد رحبت بنابليون فى مبدأ الأمر كصديق — قد ترددت قليلا قبل أن توافق على خطبته وترضى به كزوج . ولكنها أخيرا أمام تفانى نابليون وتحبيذ الأصدقاء وافقت على الزواج به فتم العقد فى ٩ مارس سنة ١٧٩٦ . وكان نابليون قد عين قبل ذلك بيومين اثنين

فقط قائدا للحملة الايطاليـة ليتولى بنفسه تنفيذ خطة كان قد وضع تصميمها قبل ذلك وقدمها الى لجنة الأمور الحربية .

ولقد كتب كثيرون عن نابليون وجوزفين فقالوا عنها إنها كانت خليلة (باراس) وأن نابليون الطموح لم يكن يبغى من وراء الاتصال بها إلا أن ينال الحظوة عند رئيسه . وأيدوا كلامهم هذا بأن جوزفين لم تكن تحبه بدليل خيانتها له . وأن باراس لم يعينه قائدا لجيش إيطاليا إلا إكراما لخاطرها بدليل أن التعيين لم يتم إلا بعد الاتفاق على الزواج .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن باراس لم يكن يملك تعيين نابليون بمفرده فى مثل هذا المركز وأن المديرين الخمسة أجمعوا على انتخابه لقيادة جيش ايطاليا بسبب ما تحققوه من أهليته وكفاءته . وأن باراس كان عشيق مدام تاليان صديقة جوزفين وليس عشيق جوزفين نفسها وأن جوزفين لم تكن تحب نابليون حقا فى بادىء الأمر . ولـكنها توسمت فيـه الرجولة والذكاء والطموح . ورأت أن الميدان أمام مستقبله واسع فسيح . وكانت هى من الجانب الآخر أرملة تكفل يتيمين ولا ناصر لها ولا معين كما كانت لعوبا طروبا تميـــل الى الاسراف وحيـاة البذخ وتطمح الى الشهرة والظهور بينما

كانت مواردها لا تسمح لها بتحقيق شيء من هذه الأماني العريضة فرأت في نابليون خير مطية تصل بها إلى هذه الغايات جميعها . فلم تتردد في التعلق به والتودد اليـــه حتى خبلته وملكته واستولت على أعنته .

أما نابليون فقد رأى في جوزفين أرملة شابة جذابة ما تزال تحمل لقب زوجها الشريف . وراقت في عينه كل مظاهرها . وحببه فيها ما كانت تتسم به كل حركاتها واشاراتها من سمات الأرستقراطية فبهره هذا السناء الجذاب وزاد حبه فيها ما أحس به من الحاجة في الاستناد بمظهره القميء إلى مثل مظهرها الوهاج المضيء لتكون له المنزلة التي يبتغيها لنفسه في المجتمع . وكأنما كان يدخر في قلبه كل ما حال الفقر بينه وبين اظهاره من عواطف الشباب في أيامه الأولى فما كاد يجتمع له من جوزفين ذلك الجمال الفاتن وتوددها اليـه ذلك التودد الساحر حتى عشقها عشقاً عظيما يؤهله ولا شك لأن يقف في صف واحد مع أبطال الغرام في أساطير الأولين .

وبحسبي أن أنقل لك هنا شيئا من رسائله اليهـا لتتحقق بنفسك إن كان نابليون يحب باراس في شخصها كما يتقول عليه بعض المؤرخين أم يحبها لذاتها .

كتب اليها مرة على أثر سهرة قضاها معها :

« أنى أستيقظ ولا أرى أمامى غيرك . فأن صورتك والسهرة المسكرة التى قضيناها أمس لم تبقيا لحواسى شيئاً من الراحة . فما هذا التأثير الغريب الذى أحدثته فى قلبى ياجوزفين ياعزيزة المثال ! إنى إذا رأيتك مكدرة الصفاء أو حزينة القلب او قلقة الفكر تفطر فؤادى و فقدت الراحة . . اعطنى ألف قبلة ! لا بل امنعيها عنى فأنها تحرق دمى فى عروقى ! »

على أن كتب نابليون اليها بعد الزواج كانت أفصح كثيراً فى الدلالة على ما يكنه قلبه نحوها كما سترى فى السطور التالية إذ قضت الظروف أن يسافر على رأس جيشه الصغير الى ايطاليا بعد زواحه بأيام قلائل فلم يكد يتجاوز الحدود حتى كتب اليها يشكو ألم الفراق و يتوسل اليها بأن تكتب له كل يوم رسالة طويلة . ولكن ردودها عليه كانت بطيئة ولا يتجاوز الواحد منها ثلاثة أو أربعة أسطر . فما لبث نابليون أن عدل طلباته ورجاها فى أن تسافر للحاق به فى ايطاليا غير أن جوزفين لم تكن لتترك باريس وشبانها الظرفاء ومجالس الأنس فيها لتدخل فى معسكر نابليون وتقيم معه فى خيامه المتنقلة تحت ظلال الموت والهلاك . فماطلته فى أول الأمر

ولكنه لم يكف عن مطالبتها بالحضور وأخيراً ألح عليها فى وجوب السفر فوراً لأنه أصبح لا يطيق الصبر على فراقها وأوشك أن يفكر فى التخلى عن جيشه فى شمال ايطاليا ليعود اليها وعند ذلك أرسلت «سيدة النصر» كما كان يسميها أهل باريز بعد ما توارد اليهم من أخبار نابليون وانتصاراته فى ايطاليا — تعتذر عن السفر بأنها مريضة تشكو آلام الحمل وانها لذلك تفضل البقاء فى فرنسا . فأثار هذا العذر كل ما كان كامناً فى نفس نابليون نحوها من حب وشوق وقلق وكتب اليها هذه الرسالة الفريدة :

« . . . صارت حياتى كلها أحلاماً مخيفة . وصرت كأنى لست بين الأحياء . وفقدت ما هو أغلى من الحياة والسعادة وكاد اليأس يتولانى . . . اكتبى لى عشر صفحات فأن هذا هو الأمر الوحيد الذى يعزينى بعض التعزية . . قلت أنك مريضة . وأنك تحبينى . وأننى أحزنتك . وأنك حامل . فاذا أذنبت اليك ذنوبا عديدة لاأدرى كيف أكفر عنها فاغفريها لى واعذرينى أيتها الصديقة لأن حبك ذهب بعقلى فلست أجد الى التفكير سبيلا .

« إن مابى من الداء لايقبل الشفاء . وما عنـــدى من

الأفكار السوداء بلغ حداً صرت أكتفى معه بأن أراك فأضمك ساعتين الى قلبي ثم نموت معاً . . . . ألا خبريني من يعتنى بك ؟ أظنك دعوت هورتنس إليك . . . إن حبي لهذه الفتاة اللطيفة زاد الف ضعف منذ عرفت أنها تقدر على انزال شيء من السلوان على قلبك . أما أنا فلا عزاء لى ولا راحة ولا أمل قبل أن يرد على كتاب طويل منك أعرف منه ماهو مرضك . فاذا كان من خطر عليك فأنى أسرع إلى السفر نحوك . . . أيتها الصديقة قولى لى أنك مقتنعة كل الاقتناع بأن حبي لك يتجاوز ما يستطيع الفكر أن يتصوره . وبأنى لا أفكر فى امرأة غيرك وبأن كل النساء هن فى نظرى عاطلات من حلى اللطف والظرف والجمال والذكاء . وبانك أنت وحدك تعجبيني وتروقين ناظرى وبأن قواى وساعداى ومداركى كلها لك وروحى مقيم فى جسمانك فاذا مت مت أنا معك ... أيتها الصديقة المعبودة أنا مريض لمرضك والحمى تتسعر فى جسمى فلا تدعى البريد يتأخر أكثر من ست ساعات بل أعيديه إلىّ على عجل بكتاب من سيدتى ومولاتى » .

ولم تكن جوزفين عند ماوصلتها هذه الرسالة تشكو اى مرض ولكنها كانت على عادتها تلهو وتلعب وتضن بروحها

المرح الطليق أن يستأثر به من دون الناس زوجها نابليون فبقيت فى باريس تنتحل الأعذار وبقى نابليون يرسل اليها الكتاب تلو الكتاب حتى ضاقت به الحيل وأخيراً علمت بأنه أرسل الى باريس رسولا يحمل اليها الرايات والغنائم التى غنمها من النمساويين . وعند ذلك خشيت ان يعود فيخبر نابليون بحقيقة امرها فى باريس فأسامت أمرها الى الله واعتزمت الرحيل .

الباب الثانى

نابليون يضع أساس شهرته

الفصل الأول : فرنسا والتحالف الأول
« الثانى : الحملة الايطالية
« الثالث : بين الحملتين
« الرابع : الحملة المصرية

الفصل الأول

فرنسا والتحالف الاول

لعلك لم تنس بعد أن انجلترا كانت قد جمعت كثيرا من دول أوربا فى حلف لتقاوم الثورة الفرنسية وتحصرها داخل الحدود الفرنسية قبل أن تنتشر عدواها الى ما جاورها من البلاد فيختل النظام فى أوربا ويصيب حكوماتها ونظمها ما أصاب الحكومة الفرنسية ونظمها من الانهيار .

ولقد فوجئت فرنسا بهذا التحالف فى أول الأمر فانهزمت جيوشها كما أسلفنا أمام الجيوش المتحالفة فى كل مكان وأوشكت آمال أوربا فى القضاء على الثورة أن تتحقق ولكن الشعب الفرنسى ما لبث أن استرد كل حميته وثقته بنفسه . ووقف للحلفاء وقفة مشرفة ردتهم على أعقابهم ثم إنه اتخذ لنفسه خطة الهجوم بعد خطة الدفاع فطارد هؤلاء الحلفاء الى قلب أوربا وأعلن عن عزمه فى استرداد حدود الغال القديمة وهى التى تجعل فرنسا تمتد من خليج بسكاى

غربا الى نهر الرين وجبال الألب شرقا . ونجحت فرنسا فعلا في الوصول — أولا — الى نهر الرين حيث وضعت يدها على بلجيكا وهولندا وثانيا — فى بلوغ جبال الألب حيث استولت على سافوا ونيس .

وبعد أن كانت انجلترا تثير الرأى العام فى أوربا لتدرأ الخطر قبل وقوعه . أصبحت بعد وقوع الخطر بالفعل تسعى لاعادة الحال الى ما كانت عليه . وإجلاء فرنسا عن البلاد التى استولت عليها لا سيما مصبات نهر الرين وثغر انفرس نظرا لما لها من الأهمية التجارية عند انجلترا مما تجعلها تستهين بالحرب عشرين سنة عن أن ترى هذه الاصقاع تحت سيادة منافسة قوية لها كفرنسا .

بيد أن هذا التحالف — على رغم كونه حيويا بالنسبة لانجلترا — تفكك إذ انسحبت منه بروسيا سنة ١٧٩٥ . وتبعتها كافة الولايات الألمانية ثم أسبانيا . أما الروسيا فشغلتها مصالحها فى پولندا عن شئون أوربا الغربية . فلم يبق من الدول المكونة للتحالف إلا النمسا وانجلترا .

ولقد شاهدنا ما كان يحمل انجلترا على الاستمرار فى العمل ضد فرنسا أما النمسا فكان الدافع لها على البقاء إلى

جانب انجلترا من دون الدول الأخرى ما كان لهـــا من الثارات عند الفرنسيين وذلك بسبب ما يأتى :

أولا — قتـل رجال الثورة مارى انتوانت وهى عمة امبراطور النمسا فرنسيس الثانى

ثانياً — استيلاء الفرنسيس على نيس وسافوا واعتداؤهم بذلك على سلطة النمسا فى إيطاليا .

ثالثا — اعتداؤهم كذلك على نفوذها فى ألمانيا باستيلائهم على بعض الجهات الواقعة غرب نهر الرين .

وقد وضحنا فى الفصول السابقة (١) أن انجلترا اكتفت بحصر شواطىء فرنسا . وتركت للنمسا منازلة الفرنسيين فى البر حيث لا قبل لها هى بالاشتباك معهم فى قتال .

---

(١) راجع فصلى التحالف الدولى الاول — ونابليون والتحالف الاول من الباب الثالث من الكتاب الاول

الفصل الثانى

الحملة الايطاليـــة

لما رأت النمسا أنها أصبحت وحدها من دون الدول الأوربية كافة فى وجه فرنسا رسمت خطتها كما بسطناها فى بعض الفصول السابقة (نابليون والتحالف الأول) وعولت على غزو فرنسا من جهة الشرق بمساعدة مملكة سردينيا (بيدمنت) وحشدت جيوشها فعلا على الحدود ولكن كان ما كان من توجيه الحكومة لنابليون الى تلك المنطقة وتحويله خطة الجيوش الفرنسية من الدفاع إلى الهجوم . وانتصاره بذلك على جيوش سردينيا ثم استيلائه على كافة الممرات التى توصل بين شمال إيطاليا وفرنسا

ورأت حكومة الادارة بعد ذلك أن تنازل النمسا بلا هوادة . فأعدت لذلك حملتين حملة رئيسية كانت خطتها أن تسير شرقا وتعبر الحدود الى النمسا لتلاقى جيوشها التى كانت تحت قيادة الأرشيدوق شارل . وحملة فرعية كان المقصود منها أن تدخل الى شمال ايطاليا لتقوم بمشاغبة النمسا من

الجنوب وتكون سببا فى توزيع قواتها حتى يتمكن جيش الشمال من التغلب على الأرشيدوق شارل والوصول الى فينا

خطة الحملة .

وكان نابليون قد تقدم منذ زمان إلى حكومة فرنسا بخطة حربية لاكتساح شمال ايطاليا . فعرضتها الحكومة على القائد العام لقوات الجنوب كى يبدى رأيه فيها . فما كاد يطلع عليها حتى أعادها فى استنكار وتهكم قائلا : [إن الذى وضع هذه الخطة رجل مجنون . ومن توحى اليه شياطينه بخطة مثلها فليأت هنا لتنفيذها] ولكن كارنو — رئيس اللجنة الحربية — لم تخف عليه قيمة هذه الخطة وانتهى الأمر بأن عهدت حكومة الادارة الى نابليون بونابرت بتنفيذها

استعداد نابليون :

وكان نابليون يعلم أنه سيلاقى فى شمال إيطاليا جيشين . أحدهما جيش النمسا والآخر جيش حليفتها سردينيا . وكان يعلم أيضا ما كانت عليه الجيوش النمساوية من الاستعداد لهذه الحرب . وكانت قد وصلت الى سمعه كذلك تهديدات النمسا وتوعد قوادها العتاة بأنهم سيجعلون إيطاليا مقبرة

الفرنسيين » . وكان هو فى الوقت نفسه شابا هزيلا صغير السن . ولم يكن له فى الجندية نسب عريق يشفع له فى تولى الرياسة على أمثال أوجيرو Auguereau ومسينا Massena وبرتييه Berthier وكلهم من رجال الحرب الذين مارسوها ونشأوا فى حجرها . وركبوا أهوالها أيام كان هو لا يزال صبيا يلهو بمدفعه النحاسى فى جزيرة كورسيكا . ولقد برم هؤلاء الابطال بحكومتهم فعلا حين رأوها تولى عليهم مثل نابليون وأضمروا له السوء فى نفوسهم حسداً له وحقداً عليه . ولم يكن يخفى على نابليون شىء من كل ذلك ولكنه كان شديد الثقة بنفسه وبهمته وكان يحس بأن غيره قد يفوقه فى كبر السن ووفرة التجاريب وضخامة الجثة ولكنه كان يحس أيضاً بأن له روحا قوياً فذا لم تودعه الطبيعة فى أضخم الجثث ولم يخلعها الزمن على أكبر المعمرين . وان هذا الروح كفيل بأن يخضع لسلطانه أشد النـــاس غروراً بنفسه وأكثرهم اعتزازاً بمظهره . وقد يكون من المستحسن أن أنقل هنا ما يرويه الأستاذ جوستاف لوبون عن أول لقاء وقع بين نابليون وقواده عند استلامه مقاليد جيش إيطاليا ليتبين منه القارىء كيف أخذ نابليون بزمام هؤلاء الرجال من أول مقـابلة

وكيف سلس قياد أجسامهم الضخمة تحت نفوذ روحه الكبير.

« جاء قواد الفرق إلى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة. وكان بينهم اللواء (أوجيرو) وهو جندى عظيم الجثة غليظ الطبع مختال بطول نجاده نخور بشجاعته. وكان ممتعضاً يسب بالشتائم على نابليون من يوم أن سمع به وعرف أوصافه فسماه (صنيعة باراس) — (ولواء الشارع) ونعته بالدب لأنه كان مكتنز الجسم قليلا ميالا إلى العزلة والتفكير. فلما اكتملوا أدخلوهم غرفة الاستقبال. فأبطأ نابليون فى الخروج اليهم وبعد زمن طلع عليهم متقلداً سيفه ثم اتشح بردائه وأفضى إليهم بتعليماته وأنفذ إليهم أوامره وأشار إليهم بالانصراف. أما أوجيرو فقد تولاه الصمت ولم يرجع إلى نفسه إلا بعد أن خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه أقر مع زميله (مسينا) أن هذا القائد الصغير أوقع الرعب فى قلبه وأنه حار فى التأثير الذى أخذه به أول ما وقع بصره عليه »[١].

أما القوة الفرنسية التى أسندت قيادتها إلى نابليون فكانت لا تشرف الدولة التى جردتها. إذ كانت رثة الثياب

---

(١) ترجمة فتحى زغلول لكتاب جوستاف لوبون « روح الاجتماع »

قليلة الغذاء معطلة الاجور وعلى الرغم من كل هذه المساوى كان نابليون مغتبطاً بها لأنها كانت مؤلفة من شبان متحمسين يلقون العدو بأرواحهم لا بأجسامهم ويسيرون للقتال سير المجاهد الذى يحارب فى سبيل عقيدته ليدفع عنها كيد الكائدين ولينشرها بين العالمين .

سير القتال :

ولقد تجلت براعة نابليون فى فن القيادة والزعامة حين أشرف بهذه القوة على سهول إيطاليا الخصيبة وألقى على رجالها الخطاب التالى الذى لمست كلماته أوتار آمالهم ووقعت عليها أشهى الأنغام :

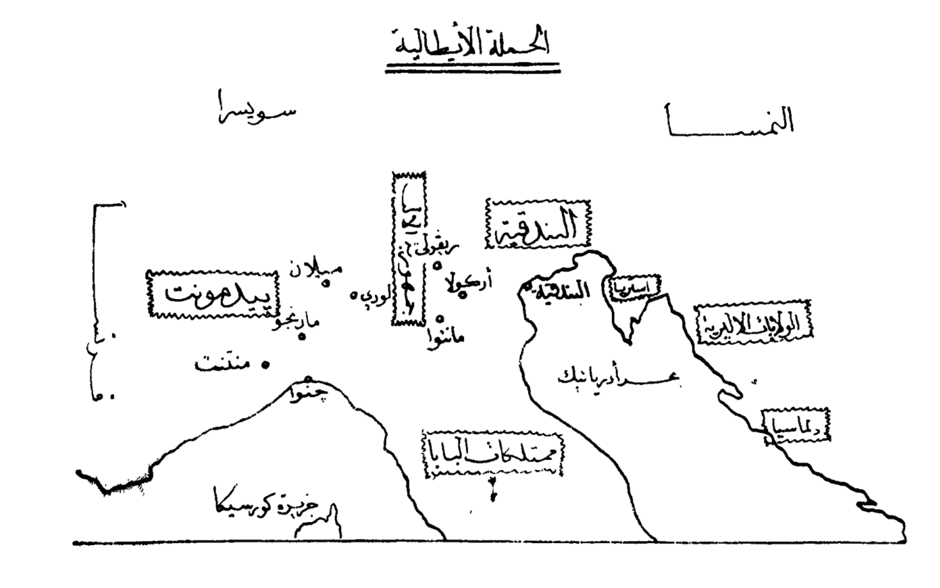
« أيها الجند إنكم والله لجياع عراة . وأن الحكومة لمدينة لكم ولكنها لا تستطيع أن ترفع عنكم سوء حالكم وان صبركم على ذلك وتجلدكم لن يجديا كم غير الشرف فلا كسب فيهما ولا نفع . وهاءنا أقودكم الى أخصب سهول العالم حيث المدن العظيمة والغنى الوفير . بل حيث تجدون الشرف والعزة ولذات الحياة ! فيا جنود جيش إيطاليا : أو تنقصكم فى ذلك الشجاعة ؟ »

ولقد كان لهذه الكلمات المثيرة أثرها فى نفس الجنود

فانهم انقضوا على الجيش المؤتلف ومزقوا وحدته . وتمكن بفضل ضرباته السريعة المتتاليـة أن يفصل السردانيين عن حلفائهم النمســـاويين . فتراجعت جنود القائد النمسوى (بوليو — Beaulieu) إلى الشرق وانسحبت جنود سردانيا إلى الغرب وهذا عين ما كان يرمى إليه نابليون لأنه أراد أن ينفرد بكل واحد من خصومه حتى يكيل له من الضربات ما لا يجد منه مجيراً ولا ظهيراً . وما لا يرى معه مفراً من التسليم . ولما كان ميدان العمل مع النمساويين واسعاً فسيحاً فانه اتجه أولا إلى جيش حليفتها سردانيا وتعقبه فى انسحابه وانتصر عليه فى أيام قلائل عدة انتصارات باهرة سارع السردانيون على أثرها إلى طلب الهدنة منه فقبل مهادنتهم مع أنه لو شاء لسحقهم سحقاً ولـكنه فضل أن يترك وراءه وهو يحارب النمسا أصدقاء يوالونه عن أن يخلف أعداء يأتمرون به ويثورون عليـه وهكذا فرغ نابليون من نصف مهمته وشرع فى تنفيذ النصف الثانى .

معركة لودى Lodi

وكانت خطته بعد ذلك أن يطارد النمسويين فى شمال


الحملة الأيطالية
سويسرا
النمسا
البندقية
بيدمونت
ميلان
لودي
ريفولي
أركولا
مانتوا
مارنجو
منتنت
جنوا
جزيرة كورسيكا
ممتلكات البابا
البندقية
استريا
الولايات الاليرية
بحر أدرياتيك
دلماسيا

ايطاليا حتى يجليهم عنهـا ثم يعبر جبال الألب شمالا لأنجاد جيش فرنسا الرئيسى الذى يحارب الأرشيدوق شارل. وكان الجنرال بوليو النمسوى قد تراجع أمام نابليون حتى أتى مدينة لودى على نهر أدا Adda فعبر النهر عندها ورابط خلف الجسر ليمنع جنود نابليون من عبوره ودخل الفرنسيون المدينـة عند الغروب وكان أول ما عمله نابليون أن عقد مجلسا حربياً لبحث الحالة ورسم خطة الهجوم فما من أحد من قواده الا وحذره من التفكير فى عبور الجسر مقررين أن عبوره من المجازفات التى لا يقدم عليهـا رجل رشيد. غير أن نابليون لم يكن يبالى بالمجازفات بل انه كان يتلمسها تلمسا لأنها مفترق الطرق بين ما يستطيع أن يعـــمله كل انسان وما لا يقدم عليه الا كل جبار عنيد. ولقد اعترض عليه أحد الضباط قائلا:

« إنه من المستحيل على أية قوة أن تعبر هـذا الجسر الضيق وهى تواجه تلك النار المدمرة التى لا بد أن يقابلها بها العدو! »

فالتفت اليه نابليون وأجابه بتلك الـكلمة المأثورة التى تداولتها الأجيال من بعده « ماذا تقول؟ مستحيل؟! إن

هذه الكلمة ليست فرنسية ! »

على أن ضباطه ظلوا على أحجامهم فما كان منه الا أنه تناول العلم بيده وتقدم فوق الجسر ثم صاح فى جنوده قائلا « أيها الجند اتبعوا قائدكم ! »

فأذهلت هذه الجرأة رجاله وساروا من خلفه ونار الأعداء تحصدهم حصداً وهم يتساقطون عن يمينه وشماله وكأنه فى وسطهم طلسم مسحور لا تصيبه النار ولا يعمل فيه البارود حتى وصل من وصل منهم أخيراً الى صفوف النمسويين وقتلوا رجال مدفعيتهم بحرابهم وذللوا الطريق أمام زملائهم فعبروا الجسر آمنين .

ولقد كانت نجاة نابليون من مخالب الموت فى هذه المعركة الحامية ذات أثر عظيم فى مستقبله فانها ألقت فى روعه أنه فوق يد الهلاك . وان ملاكا حارسا يحميه من كل خطر وثبت فى وجدانه أن قوة خفية تعمل لرفعه فوق مستوى البشر . ولقد أشار نابليون نفسه إلى شىء من هذه الخواطر فى كلمته المأثورة التى قال فيها

انى لم أشعر بقدرتى على أن أكون عاملا من أفعل عوامل السياسة الا بعد أن عبرت قنطرة لودى واجتزت

تلك المفازة الرهيبة . يومئذ طارت شرارة مطامعى والتهب بها صدرى! » .

حصار مانتوا .

ولم يبق بعد (لودى) أمام النمسويين إلا حصن مانتوا فى أقصى الشرق من سهول ايطاليا فاحتموا فيه وهم يعلمون أن المعركة التى ستقوم بينهم وبين نابليون حول هذا الحصن ستكون معركة حاسمة فاصلة . فأما اخلاء لكل الولايات الايطالية وفرار إلى النمسا . وإما استرداد لممتلكاتهم الواسعة ونفوذهم الضائع فى تلك البلاد .

وأدركت حكومة النمسا خطورة الموقف ورأت ميدان القتال ينتقل الى ايطاليا بعد أن كان مقدرا له أن يكون فى الشمال فأسرفت فى ارسال النجدات لمانتوا . ووقف نابليون بجنوده القلائل يتلقى تلك الفيالق الجرارة التى كانت تبعث بها النمسا لنجدة مانتوا . فلم يفلح جيش واحد منها فى الاقتراب من أسوارها . وذلك بفضل ما أبداه نابليون من الخفة المتناهية والنشاط المربك الذى خبل شيخوخة القواد النمسويين وسخر من فنونهم العتيقة وحير ألبابهم وملأ

قلوبهم يأسا منه حتى لقد صاح أحدهم ناقما متذمراً .

« هذا الشاب الأمرد كان ينبغى كسره مراراً وتكراراً إذ من ذا الذى رأى قط مثل هذه (التكتيكات) . إن هذا الغبى لا يعرف حرفا واحداً من أصول الحرب . فبينا تراه اليوم فى مؤخرتنا إذا به فى الغد إلى جانبنا وبعد غد أمامنا . ان الاعتداء على قواعد الحرب الراسخة بهذه الصورة أمر لا يطاق . »

وليس للقارىء أن يتوهم أن خفة نابليون ونشاطه كانا يصلان به الى هذه الانتصارات الباهرة على محفة ناعمة لا تعرف الأهوال والأخطار . فأن الجهود التى كان يقوم بها هو وجنوده كانت أفدح من أن تطيقها غير طبيعته الجبارة وأعظم من أن يوحى بها غير روحه العاتى . ولقد كان خصومه من أمهر قواد أوربا فى ذلك العصر وأشدهم مراسا وكانت الحرب سجالا بينهم وبين نابليون . ولقد تقهقرت أمامهم الجنود الفرنسية غير مرة . بل لقد قتل تحت نابليون فى احدى المعارك ثلاثة جياد . وأوشك هو مرة على الغرق فى النهر تحت ضغط النمساويين له ولجنوده على جسر أركولا عند حصاره لمدينة (منتوا) . ولم ينج من الهلاك إلا

بأعجوبة ولـكنه كان فى كل مرة يستعيد قواه بسرعة البرق الخاطف . ويفاجىء العدو وهو ما يزال فى غمرات المعركة بين مسترخ يلتمس الراحة من وعثاء القتـال ومستنيم يحلم بالنصر القريب فيوقع الهزيمة فى صـفوفهم على غير انتظار ويضطرهم الى التسليم .

وهكذا تمكن نابليون أخيراً من دخول مانتوا وتراجع النمساويون الى التيرول . وأصبحت ايطاليـا الشمالية كلها تحت أقدام الفرنسيين .

نجاح الحملة :

وكان نابليون كلما فتح اقليما ايطاليًا جال بيده فى حواشيه وجمع منه الغنائم الـكثيرة واستولى على تحفه وطرفه وأرسل بها جميعاً الى حكومة الأدارة فامتلأت خزائن باريس الخاوية وازدانت متاحفها العـاطلة وتجاوزت الحـكومة تحت تأثير هذه الهدايا عن استقلال نابليون بالتصرف فى ايطاليا دون الرجوع اليها والاتفاق معها سلفا على ما يبرم من الأمور . ولقد كان ذلك من حسن حظ فرنسا نفسها إذ لا يخفى ما كان بين رجال الثورة الفرنسية وبين رجال الـكنيسة من

العداوة . ولو أن قائداً غير نابليون كان يقود الحملة الأيطالية لما منعه من دخول روما واذلال البابا فيها أى مانع ولكن نابليون بيعد نظره أبى أن يثير على فرنسا وعلى نفسه العالم الكاثوليكى بالتعرض للبابا وشعر بحاجته الى كسب عطف الدول المسيحية . فسعى للاتفاق مع البابا فى معاهدة ودية اكتفى فيها بأخف المغانم . وضمن بها صداقته ورضاه . وكان هذا الانتصار السلمى الذى أحرزه نابليون أبعد أثراً فى مستقبله من انتصاره فى الستين معركة التى عقد له لواء الفوز فيها على النمساويين فى هذه الحملة .

ويطول بنا الحديث اذا نحن فصلنا كل ما قام به نابليون فى ايطاليا من الأعمال الجليلة قبل أن يرحل عنها الى النمسا للقضاء على الارشيدوق شارل . ولكنا نكتفى بتسجيل تنظيمه للأصقاع التى استولى عليها فى شمال ايطاليا وتقسيمها الى قسمين أقام فى كل واحد منهما جمهورية على نسق الجمهورية الفرنسية .

ولقد قام نابليون بكل هذه الأعمال فى ايطاليا فى مدة لا تكاد تتجاوز العشرة الشهور واستطاع بنحو ستة وثلاثين ألفا من الفرنسيين أن ينتصر فى أكثر من ستين موقعة على نحو ٢٥٠ ألف رجل منهم ٢٠٠ الف تقريبا من النمساويين.

وكانت تتواتر أخبار هذه الانتصارات على فرنسا فتقوم لها البلاد وتقعد ويشتد شوقها الى ذلك اليوم الذى يعود اليها فيه قائدها الصغير لتقوم بما يجب عليها نحوه من التكريم والتعظيم . ولكن النمسا حالت دون هذه العودة السريعة بأصرارها على الاستمرار فى الحرب . فعقد نابليون نيته على ان يزحف على فيينا نفسها ليصل الى الصلح الذى كان يسعى اليه هو وفرنسا وتأباه عليه النمسا . وتساعدها انجلترا على عدم تحقيقه .

نابليون والبندقية .

ورأى نابليون قبل مغادرة ايطاليا أن يطمئن على فتوحه فيها فعرض على جمهورية البندقية أن تدخل معه فى حلف فرفضت فأرسل يحتم عليها أن تكون على الحياد قائلا :

« لتبق جمهورية البندقية إذن على الحياد . ولتذكر أنها اذا أخلت بشروط حيادها وتعرضت لجنودى ومواصلات جيشى فان انتقامى سيكون ذريعاً . انى أسير الآن الى فيينا والساعة التى تجترىء فيها البندقية على خيانتى هى الساعة التى أمحو فيها استقلالها من الوجود . »

نابليون والنمسا .

ثم انه ترك نحو عشرة آلاف من جنوده فى ايطاليا وصعد بالباقين جبال الألب الشاهقة فى عاصفة مَطِيرة ضاعفت من وعورة الطريق . ولكن نابليون كعادته استخدم نفس هذه العوائق فى تحقيق خطته فانه فاجأ النمساويين بجيشه وهم لا يحلمون بأمكان اقتراب الفرنسيين منهم بكل هذه السرعة . وفى مثل هذه الظروف . وأوقع فى صفوفهم الهزيمة بعد الهزيمة حتى قاربوا مدينة فيينا وهنالك بعث نابليون بالكتاب الثانى الى غريمه الارشيدوق شارل :

« أيها القائد العام

أن الجنود الشجعان يحاربون وهم راغبون فى الصلح . وهذه الحرب قد دارت رحاها ست سنوات . أفلم يكف ما قتلنا من إخواننا فى الأنسانية ؟ أولم ترزح هذه الأنسانية تحت ما سخرنا عليها من الويلات ؟ إنها لتلتمس الراحة فى جميع نواحيها ! وها هى أوربا التى رفعت سلاحها فى وجه الجمهورية الفرنسية قد ألقت فى آخر الأمر هذا السلاح ولم

يبق على العداء معنا إلا النمسا ! وهذه الدماء توشك أن تفيض بأغزر مما جرت في الماضى . وأن هذه الحرب مهما كانت نتيجتها فأنها لن تنتهى إلا بقتل الألوف من كلا الجانبين . ثم هى لا بد أن تنتهى على كل حال . فأن لكل شىء غاية حتى عاطفة العداء . وأنت أيها القائد العظيم بحكم مولدك لا بد أن تكون فوق تلك العواطف التى تتحكم فى الوزراء والحكومات فهل وطنت العزم على أن تستحق لقب « مخلص النمسا » « وصاحب الفضل على الأنسانية » ؟ أنى لأرجو ذلك ! أما عن نفسى فأن هذه الدعوة التى لى شرف القيام بها إذا كانت سبباً فى إنقاذ روح واحد من الموت فأنى أفخر بمجدها أكثر من فخرى بتيجان المجد الكئيبة التى يمكن أن يضعها النصر فوق رأسى ! »

على أن الأرشيدوق شارل لم يجد ما يرد به على هذه الدعوة السامية إلا أن قال :

« إن الواجب الذى أُلقى علىّ فى هذه الحرب لا يخولنى البحث فى أسبابها ولا تحديد مداها . ولذلك لا أرانى قادراً على الدخول معك فى أية مفاوضات للصلح ! »

وليس يخفى على القارىء ذلك البون الشاسع المتجلى بين

روح هاتين الرسالتين فبينما تقرع الأذن نغمات السيطرة التى ترن فى كل لفظ من كلمات نابليون يلمح الأنسان بين سطور الأرشيدوق شارل كل تلك الأغلال التى يمكن أن يرسف فيها تابع مسخر . وعلى قدر ما أبدى نابليون من السماحة فى دعوته النمسا إلى الصلح وهو الظافر المنتصر على قدر ما أبدت النمسا من العناد فى رفضها لهذه الدعوة وجيوش العدو قاب قوسين من عاصمتها أو أدنى .

وكانت مدافع نابليون أول من تكلم بعد حبوط هذه المفاوضة . فاكتسحت قذائفها جيوش الأرشيدوق شارل اكتساحا . ولم تمض أيام حتى كان أمراء النمسا وأقيالها وعلى رأسهم الأمبراطور يفرون من فيينا كقطعان الغزال . فأسرع الأرشيدوق شارل إلى رفع علم الهدنة طالبا من نابليون أن يوقف القتال أربعاً وعشرين ساعة وكان نابليون قد بلغ مدينة ليوبن Leoben على بعد نحو ١٠٠ ميل من فيينا . فلم يشأ أن ينخدع بهذا العلم وقال إنه يرى أن الوقت ثمين جداً وأنه لا بأس من أن تجرى المفاوضات التى ترغب النمسا فيها مع بقاء الحرب مستمرة . ولكن الامبراطور أرسل اليه سفراءه يلتمسون منـــه وقف الحرب مدة خمسة أيام ريثما تجرى

المفاوضات على شروط الصلح . فلما رأى نابليون جدية الدعوة أجاب طلب الامبراطور . وانتهت المفاوضات الأولى فى أبريل سنة ١٧٩٧ . ورجع نابليون إلى إيطاليا ريثما يتم الاتفاق النهائى على شروط الصلح .

معاهدة كامبوفورميو Campo Formio

وبينما كان نابليون يجاهد هذا الجهاد فى النمسا قام أهالى البندقية بثورة أوقعوا فيها بجنوده الذين تركهم وراءه فى إيطاليا فما كان منه بعد عودته إلا أن دخلها بجيشه عنوة . واستولى على ما فى خزائنها ومتاحفها من غنائم وبعث به الى فرنسا وجرت بعد ذلك المفاوضات النهائية لعقد الصلح الذى تم فى معاهدة كامبوفورميو وفيما يلى بيان ما كسبته فرنسا على يد نابليون فى هذه المعاهدة :

أولا : اعترف امبراطور النمسا بأن يكون نهر الرين حد فرنسا الشرقى .

ثانيا : تنازل لها عن بلجيكا .

ثالثا : أعترف بانشاء جمهورية شمال إيطاليا (الخاضعة لنفوذ فرنسا) .

رابعـا : تنازل عن دوقية ميلانو ولمبارديا لهذه الجمهورية
خامسا : استولت فرنسا على جزائر أيونيان Ionian
(التابعة للبندقية) فى البحر الأبيض المتوسط
فقوى بذلك مركزها البحرى .

أما ثمن هذه الشروط فقـد جعله نابليون ضم البندقية نفسها إلى النمسا . وبذلك أصاب العصفورين بحجر واحد — كما يقولون — فأنه كفل بهذا الضم موافقة الامبراطورية على التنازل عن بلجيكا وغيرها من الأصقاع التى كسبتها فرنسا . وفى الوقت نفسه انتقم لجنوده الذين ضاعوا فى ثورة البندقية بسبب عدم رعايتها للحيدة التى رسمها لها فى إنذاره .

ولقد أثبت نابليون بهذه المعاهدة أنه لا يقل دهاء عن أدهى ساسة أوربا فى ذلك العهد كما أثبت فى خلال الحرب أنه لا يقل فى قدرته الحربية عن أقدر جنود أوربا .

ولقد كانت هذه الحملة الايطالية الأساس الحقيق لعظمة نابليون فانه صادف فيها نجاحاً باهرا على طول الخط ونبهته حوادثها الى ما يمكن ان يصل اليه فى مستقبل ايامه وافسحت الطريق امام مطامعه الواسعة ولاقى بسببها من التكريم والتعظم ما رفعه فوق مستوى البشر حتى لقد ذكر أيامها

وهو فى منفاه بكلمته المؤثرة المشهورة .

« ربما كان أسعد أوقاتى أيام فزت بالنصر فى ايطاليا .. هنالك كانت الجموع لاهجة بذكرى متحمسة . هنالك كانوا يصيحون من اعماق قلوبهم « ألا فليحى محرر ايطاليا » — كل ذلك وانا فتى لم أعد الخامسة والعشرين من العمر ! منذ تلك البرهة تمثل لنفسى ما صرت اليه فى مستقبل الأيام . رأيت العالم جميعه يمر من تحتى كأنما قد ولدت فى الهواء .... ! »

الفصل الثالث

بين الحملتين

رأينا قبل أن نتكلم فى الفصل التالى عن الحملة المصرية أن نقف قليلا لننظر فى آثار الحملة الايطالية وما أنتجته من النتائج الخطيرة .

(١) مصير البندقية .

ولا شك ان اول هذه النتائج هو تقلص نفوذ النمسا عن ايطاليا الشمالية بعد ان ظل علمها ذو النسر الأسود يرفرف على ربوعها اجيالا طويلة متعاقبة . ولكنا بينما نرى هذا العلم ينطوى فى غرب ايطاليا إذا بنا نرى نابليون ينشره فى شرقها فى ربوع البندقية .

ولقد كان اعتداء نابليون على استقلال هذه الجمهورية موضعا لأقسى الهجمات وأعنف الحملات من اقلام بعض المؤرخين حتى لقد وصفه بعضهم فى هذه المناسبة « ببعده عن الانسانية »

وقد يكون من المفيد ان نقف هنا قليلا لنحلل هذا العمل الذى عمله نابليون فى البندقيـة كى نستطيع ان نقدر قيمة هذه الحملات .

ويذكر القارىء مما اسلفنا فى الفصل السابق ان نابليون قد عرض على البندقية ان تحالفه فرفضت ان تمد يدها اليه . فطلب اليها لزوم الحيدة وأنذرها بتعريض استقلالها للضياع إذا هى لم ترع هذا الطلب فما هو ان رحل عنها حتى قام اهلها بثورة كان يقتل فيهـا جنوده الجرحى وهم على فراشهم فى المستشفيات .

فهذه الفتنة التى طعنت بها البندقية نابليون فى ظهره هى التى استحقت من اجلها فى نظره ان تمحى من خريطة اوربا فقام بعض المؤرخين يصفونه بسبب هذا العمل « ببعده عن الانسانية » بينما لم ير غيرهم فيه الا مثالا مما جرى عليه باقى الدول فى كل عصور التاريخ .

(٢) انشاء جمهورية شمال ايطاليا .

وهناك حادث آخر ربما كان أبعد أثراً فى نتائجه من حادث الاعتداء على اســـتقلال البندقية . وذلك هو ضم

مقاطعة لمبارديا إلى جهات ما وراء البو Po إلى بعض اقسام صغيرة من البندقية ومن سويسرا لتكوين جمهورية واحدة مستقلة عن النمسا . وتكون على شاكلة الجمهورية الفرنسية فى نظامها (حكومة إدارة ومجلسين) عملا بمبدأ الثورة الفرنسية الذى قامت من اجله جيوشها تحارب الدول المجاورة . وهو نشر مبادىء الحرية والديمقراطية وانقاذ الشعوب الضعيفة من أيدى حكامها المستبدين .

على ان القيمة التاريخية العظمى لهذا العمل الذى قام به نابليون هى انه وضع بتكوينه لهذه الجمهورية الصغيرة نواة ايطاليا المتحدة (١) التى اصبحت فى العصور الحديثة احدى القوى الأوربية التى تشترك مع زميلاتها فى تقرير سياسة العالم .

(٣) القضاء على الرجعية فى فرنسا

وهناك حادث ثالث تحسن الاشارة اليه فى هذا المقام وقد حدث قبل التوقيع على معاهدة الصلح فى كامبو فورميو بشهر واحد ونابليون ما يزال فى قصر ممبلو Mombello الأنيق فى

---

(١) لم تكن ايطاليا فى العصور السالفة الا مجموعة إمارات مستقلة لا يربط بعضها ببعض أى رباط سياسى

ضواحى ميلان يعيش عيشة الملوك العظام ويستقبل الوفود والسفراء ويستمع إلى قصائد المديح والأناشـــيد التى سماه الشعراء فيها — بطل الزمان — ومشيد أركان السلام — وهانيبال الجديد — ورسول الانسانيـة . . . وذلك أن حل موعد الانتخابات فى فرنسا لتجديد فريق من رجال الهيئة التشريعية فاذا بنابليون يرى أن الغـالبية فى هذا الفريق قد انتخبوا من (اللاجمهوريين) أنصار الملـكية القـديمة وكان نجاح هذا الحزب معناه القضاء على نابليون وآماله فان عودة البوربون إلى عرش فرنسا لا يدع مجالا يعمل فيه أمثـال نابليون من ربائب الثورة . ولذلك عول على القضاء على هذه الحركة فأعد منشورات باسم الجيش وبعث بها إلى باريس وكانت كلها احتجاجاً على أن يضحى نابليون وجنوده بأرواحهم فى سبيل اعلاء كلمة فرنسا فى أوربا حتى إذا عادوا إلى وطنهم ظافرين كان جزاؤهم أن تتلقاهم الحـكومة بالخناجر! وأرسل أوجيرو بفرقته إلى باريس لنجدة الحـكومة القديمة وتطهير المجلس من الأعضاء الرجعيين الذين تسربوا إليـه وقد نجح أوجيرو فى ارهاب تلك العناصر الرجعية ومطاردتهم وبذلك زال الخطر وتعـزز مركز « الديركتوار » . ولـكن

هذا الحادث جاء سابقة أخرى لاستعانة الحكومة بالجيش في تثبيت أقدامها . وقد كان لهذه السوابق قيمتها فى تمهيد الطريق أمام الدكتاتورية الحربية التى وصل بها نابليون فيما بعد إلى أسمى المراكز .

٭ ٭ ٭

عودة نابليون الى باريس :

وأخيراً وصل نابليون بنفسه إلى فرنسا ودخل باريس فى السابع من شهر ديسمبر سنة ١٧٩٧ . وكانت المدينة كلها تتحرق شوقاً لاستقبال هذا البطل الصغير الذى فاقت أعماله قصص الخيال . أما هو فدخل متنكراً ونزل فى دار أعدها لاقامته فى شارع شانترين « Chantereine » فما بلغ المجلس البلدى هذا الخبر حتى أمر بأن يدعى ذلك الشارع شارع النصر تكريماً لنابليون وتخليداً لذكرى فتوحه . وحددت حكومة الديركتوار يوم ١٠ ديسمبر لاستقباله استقبالا رسمياً فى قصر اللوكسمبرج واستلام شروط الصلح التى وقعتها النمسا فأعدت القاعة العظمى لاقامة هذه الحفلة وزينت أحسن زينة . وفى الساعة المعينة أقبل أعضاء الحكومة والوزراء

والسفراء والحكام واعضاء المجلسين واستوى كل فريق على مقاعده ثم دخل قائدان يحملان رايتين كتبت عليهما أسماء السبع والستين معركة التي دارت فى إيطاليا وألمانيا وعقد النصر فيها كلها لنابليون وأخيراً وصل الجنرال بونابرت نفسه ومعه تاليران فقدم الجنرال للحاضرين بكلمات فخمة أنيقة تناسب المقام الذى أعدت له ثم جلس وقام بونابرت ليلقى كلمته فخفتت الأصوات وأرهفت الآذان وثبتت الأحداق على ذلك الهيكل الضئيل فى ملابسه العادية البسيطة . وقد وقف كأنه تمثال من الرخام فى هدوئه وتمالكه لنبرات صوته حين وجه الكلام للحاضرين قائلا :

« أيها المواطنون :

إن رغبة الشعب الفرنسى فى أن يعيش حراً حملته على محاربة الملوك . وإن رغبته فى الحصول على دستور يستند إلى أصول العقل حملته على مغالبة المبادئ السقيمة التى ظلت تحكم العالم ثمانية عشر قرناً من الزمان . . . . أما الآن فستتخذ هذه اللحظة التى صدقتم فيها على هذا الصلح تاريخاً يوقت به عهد الحكومات الدستورية النيابية . . . وهانا أتشرف بتقديم المعاهدة التى وقعنا عليها فى كامبو فورميو واعتمدها

الامبراطور وهى معاهدة تكفل للجمهورية حريتها ورخاءها ومجدها . . . » .

ولم يكد يتم نابليون كلماته حتى انطلقت تلك الأنفاس المحتبسة المعلقة وتحركت تلك الأطراف الجامدة المتشنجة ودوى المكان بالهتاف الحار « لفاتح إيطاليا » « ومعيد السلام إلى أوربا » « ومنقذ فرنسا » وعند ذلك قام (باراس) بالنيابة عن المديرين وألقى الكلمة الآتية :

« أيها السادة . .

لقد أجهدت الطبيعة نفسها فى خلق بونابرت . — ثم أدار رأسه إلى نابليون وقال اذهب أيها القائد وتوج أعمالك الباهرة بفتح جديد تدعوك إليه أمتنا العظيمة كى تثأر فيه لشرفها المعتدى عليه . اذهب إلى لندن وألهب ظهر وزرائها بسوطك واجعلهم أمثولة يزدجر بها كل من تحدثه نفسه بالنيل من هذا الشعب الحر . إن اليوم الذى يخفق فيه علم الثورة على شواطئ التاميز الدامية لهو اليوم الذى تتلقاك فيه هذه الأمة الكريمة هاتفة بحق . « ليحى محرر فرنسا » — » .

وفى وسط هذه النشوة التى مالت برءوس الجميع دقت الموسيقى لحن الحفلة الختامى وانفرط عقد هذا الاجتماع

التاريخى ولا حديث للنـاس إلا نابليون وأعماله وقد ظلت المدينة تقيم له الزينات والحفلات أياماً وليـالى وهو مصر على عزلته كأنما يعد نفسه لذلك العرش العـالى الذى تبوأه بعد قليل فوق رأس الجميع .

وليس أدل من النادرة الآتية على اتزان نابليون ورجاحة عقله ووقوفه على حقيقة طبـائع الجماهير وعدم انسياقه مع تياراتها اذ قال لهصديقه بُورْيِنُ والأفراح على أروع ماتكون عند ما كان هو فى طريقه إلى توقيع معاهدة الصلح فى إيطاليا .

« لا بد أن يكون من المطرب حقاً أن يقابل الانسان بكل هذه الحماسة وهذا الاعجاب ! » .

فما كان من نابليون إلا أن أجاب : « وحقك يا صاحبى إن هذا الجمهور الغر إذا ما طرأ على الظـــروف أقل تغيير ليشيعنى بنفس هذه الحماسة إلى آلة الاعدام ! »

الفصل الرابع

الحملة المصرية

(١) العدوة الاولى والاخيرة .

كان من مظاهر التقدير التى قوبل بها نابليون فى فرنسا بعد عودته من ايطاليا أن عرضت عليه (أكاديمية) باريس مقعداً من مقاعدها الخالدة . فقبله نابليون مع السرور العظيم وبعث الى الاكاديمية بالرسالة الآتية :

« إن القرار الذى قرره رجال المجمع النابهين ليشرفنى . وأنى لأحس بأنى قبل أن أتمكن من الوقوف معهم فى موقف الزمالة ينبغى على أن أبقى زمناً طويلا تلميذاً لهم . وأن النصر الحقيق الذى لا يعقبه أسف ولا ندم هو ذلك النصر الذى يحرزه العلم على الجهل . وأن أنبل وأنفع ما تسعى له الأمم هو سعيها فيما تتسع به مملكة الذهن البشرى وأن عظمة فرنسا الحقيقية يجب أن يقوم بناؤها من الآن على حيازة سائر كنوز العلم التى وضع العقل البشرى يده عليها . وعلى عدم السماح لأية فكرة علمية جديدة أن تنبت بغرس أيد غير أيدى الفرنسيين . »

ومنذ ذلك اليوم حلا لنابليون أن يخلع عن أكتافه كسوته العسكرية موقتاً ويرمى بنفسه فى بحر هذا المجمع العلمى يحضر جلساته بنظام ويشترك فى بحوثه ويطلق العنان لذهنه الوثاب يسرح ويمرح فى ميادينه الفسيحة .

وكانت الجمهورية الفرنسية فى تلك الفترة على وفاق مع كافة الدول الأوربية ما خلا حكومة انجلترا فانها ظلت على عدائها لفرنسا بحكم جوارها لها وخشيتها من تسرب مبادئها الثورية اليها . ولم تأل جهدا فى اثارة الخواطر عليها وفى تسخير

أسطولها لمناوأة تجارتها ممـــا جعل فرنسا تعود إلى حمل سلاحها لتستأنف جهادها فى الدفاع عن نفسها أزاء هـذا الاعتداء المتواصل .

(٢) أسباب الحملة

ولم يكن بد للجمهورية الفرنسية فى هـذه الضائقة أيضاً من أن تفكر فى نابليون صاحب الأيادى البيضاء عليها فى كل الأزمات التى اجتازتها فعهدت اليه فى تجهيز حملة لغزو الجزائر البريطانية . وسرعان ما كان نابليون فى طريقه الى شواطىء فرنسا الشمالية يرتادها ويعـاين قلاعها . ويطبق خططه على مواقعها ولـكنه لم يلبث أن اقتنع بعدم أرجحية رأى الحـكومة فى مهاجمة انجلترا ذاتها وخطرت له إذ ذاك فـكرة مهاجمتها فى مستعمراتها . فما هو أن لاح له هذا الخاطر حتى استجابت له كل ميول نفسه . فان أهم مستعمرات انجلترا فى الشرق . والشرق كان مسرح خيالات نابليون منذ حداثته ففيه ظهر الاسكندر قدوته الأكبر وأستاذه الذى ما فتىء يتتبع خطاه ويسير على نهجه ويطمع فى مثل مكانته من التاريخ . وفيه المجال الفسيح الذى يتسع لو ثبات روحه الطموح فدوله

إذ ذاك أضعف الدول وشعوبه أطوع الشعوب وأسلسهم قيادا .
وكان أول ما خطر ببال نابليون أن يسير الى مصر فيستولى عليها ويجعلها قاعدة لأعماله الحربية ضد انجلترا فيسير منها الى الهند أو يتغفل أسطول انجلترا الذى يتعقبه فى البحر الأبيض وينقض عائدا الى بحر المانش فيدخل لندرة ويملى شروطه على حكومته قبل أن تتهيأ لها وسائل مقاومته . أو يسير إلى الشام اذا فشلت كل هذه الخطط ويتابع سيره إلى القسطنطينية فيستولى عليها ثم يعود إلى فرنسا عن طريق جنوب أوربا ناشرا مبادىء الثورة فى البلاد التى يمر بها وبذلك تتحقق له ولفرنسا جل غاياتهما المشتركة

على أن حكومة الادارة فى ذلك العهد كانت تحس بضعف موقفها أزاء الشعب الفرنسى الذى أنهكته سنو الثورة وتركته فى حاجة ماسة الى الاصلاح من كافة نواحيه وتحس فى الوقت نفسه بتعلق هذا الشعب بنابليون وتطلعه اليه فى سد هذه الحاجات . فكانت تغار على سلطتها من نفوذه المتزايد . وتخشى أن يفلت زمام الحكم من يدها اليه .

وحدث فى شهر يناير سنة ١٧٩٨ أن حل موعد الاحتفال السنوى الذى كانت تقيمه الحكومة إحياء لذكرى مقتل

لويس السادس عشر . فدعى نابليون لحضور هذه الحفلة بصفته العسكرية ولـكنه رفض الاشتراك فيها قائلا :

« إن هذا اليوم يعيـــد إلى الذهن ذكرى مأساة لا تلذ ذكراها إلا للقليل وأن الاحتفال بذكرى قتل انسان ليس مما يليق بحكومة أن تقوم به فانه يعمل على إثارة الخواطر بدلا من أن يعمل على تهدئتها ويزعزع أركان الحـكومة بدلا من أن يثبت قواعدها » .

ولـكن الحـكومة ألحت عليه فى وجوب حضور هـذه الحفلة بأية صفة يختارها لأن الشعب لن يتردد فى تأويل غيابه تأويلا يضر بصالح الحكومة . فقبل نابليون أخيرا أن يحضرها ولـكن مع زملائه رجال (الأكاديمية) . وهناك كان قبلة الأنظار وموضع تطلع كل انسان . وما كادت تنتهى مراسم الاحتفال حتى انقلب هذا الجمع الحافل الى مظاهرة عامرة سار الناس فيها يشقون أطباق الفضاء بالهتاف له وذهب الانفعال ببعضهم إلى حد أن صاح :

« لا بد لنا من طرد هؤلاء المحامين (يعنى رجال الادارة) وتتويج الـكاورال الصغير (يعنى نابليون) ملكا على فرنسا ! »

وكان من شأن هذه الحوادث وأمثالها أن دفعت حكومة

الادارة إلى التعجيل فى التخلص من بقاء نابليون فى فرنسا فما هو أن أفضى اليها بخطته فى السفر إلى مصر ومهاجمة انجلترا فى الشرق حتى رحبت برأيه وهى تتمنى من كل قلبها لو أنه سار إلى غير رجعة من هذا السفر الطويل .

(٣) معدات الحملة

أما نابليون فأنه انهمك كعادته فى اعداد معدات هذه الحملة الجديدة وكانت تجرى تجهيزاته سرا فى ثغر تولون حتى لا تتنبه انجلترا إلى نواياه فتعرقل مساعيه وبذلك تمكن من جمع ٣٨ الف مقاتل . ونحو أربعمائة نقالة بحرية لحملهم وأسطول حربى مؤلف من نحو عشرين بارجة عظيمة كانت من بينها (لوريان — L'Orient) أو مركب نصف الدنيا كما كان يسميها المصريون لضخامتها . ولأنها كانت تحمل على ظهرها مايقرب من ١٢٠ مدفعاً . ولما تمت هذه المعدات أخذ نابليون يترقب غفلة نلسون أميرلاى الأسطول الانجليزى الذى كان منوطا بمراقبة شواطىء فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط ليقلع هو الى مصر . وفى التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٧٩٨ ثارت عاصفة شديدة اضطر الأميرال نلسون تحت تأثيرها إلى

الانسحاب نحو جزيرة سان بيترو St Pietro فى جنوب سردينيا . فخرج نابليون فى هذا الجو العصيب ناشرا أشرعته وسار فى محاذاة الشاطىء حتى بلغ جنوا ثم مر بأجاكسيو مهبط رأسه ومن هناك سار إلى صقلية وأخيرا أشرف على جزيرة مالطا بأسطوله الضخم وكانت إذ ذاك فى حكم فرسان القديس يوحنا فاستأذن رئيس الفرسان ليسمح لبوارجه بأخذ ما يلزمها من الماء ولكن الرئيس رفض هذا الطلب . فأنزل اليها نابليون فرقة من جنوده حاصر بهم عاصمتها (لافاليت) « La Valette » فما لبثت حاميتها أن طلبت التسليم . وبذلك دخلت هذه الجزيرة وما حولها من الجزائر الصغيرة تحت سيادة فرنسا . وبعد ذلك استأنف نابليون سيره إلى الاسكندرية . وكانت البوارج لكثرتها تسير كأنها مدينة طافية على وجه الماء . وكان نابليون قد اصطحب معه جماعة من العلماء الذين اتصل بهم عند دخوله (الأكاديمية) ليعاونوه فى دراسة مصر حتى يتسنى له وضع المشروعات اللازمة لتعميرها واحيائها فكان معه علماء التاريخ القديم كما كان معه الاخصائيون فى علم النبات والخبراء فى الشئون الاقتصادية والصناعية . وكان يجتمع بهم على ظهر مركبه كل ليلة يتبادل

معهم الحديث ويستعرض أمامهم آراءه ومشروعاته التى اعتزم تنفيذها فى بلاد الفراعنـة . وهكذا انقضت الأيام الباقية من سفر الحملة على خير حال .

أما نلسون فانه ما لبث أن عاد تجاه الشواطئ الفرنسية حيث علم بخروج الأسطول الفرنسى ولـكنه لم يكن يعرف وجهته بالتحقيق وذلك لسرية المعدات التى قام بها نابليون فتبادر إلى ذهنه خاطر حضوره إلى مصر فسار إليها رأساً وهو ينهب البحر نهباً بمراكبه السريعة . ومن عجائب الصدف أنه مر فى طريقه بجوار المراكب الفرنسية دون أن يراها أو تراه . وأخيراً بلغ الاسكندرية قبـل أن يصل اليها أسطول نابليون فأرسل إلى الحـــاكم يخطره بقرب وصول هذا الاسطول طالباً إليه أن يسمح له بالبقاء فى الميناء ليمنعه حين يصل من الاعتـداء على الديار المصرية . فلم يستطع السيد محمد كريم حاكم المدينة تصديق هذه الدعوى وظن أن نلسون يريد أن يخدعه بهـا ليبقى هو فى ميناء الاسكندرية فأرسل اليه بأنه ليس بين مصر وفرنسا ما يدعو إلى حضور نابليون إليها . وعلى ذلك لا حاجة بالاسطول البريطانى إلى البقاء فى المياه المصرية الا ريثما يحصل على ما يريده من المـاء والزاد

ولما رأى نلسون أن لا سبيل إلى البقاء فى مصر وأن البوارج الفرنسية لم يظهر لها أى أثر بقرب شواطئها أقلع إلى الاستانة ظناً منه أن نابليون ربما يكون قد قصد اليها دون مصر . ولكن لم يمض على ذلك يومان حتى ظهر الأسطول الفرنسى تجاه مدينة الاسكندرية . فما كاد الناس يرونه وقد غاب الأفق من وراء أشرعته حتى انخلعت أفئدتهم من الخوف وأدركوا أن نلسون كان صادقاً فيما ادعاه وأن الجو أصبح خالياً أمام نابليون ليفعل بهم ما يشاء ،

أما السيد محمد كريم فلم يملك حين شاهد هذا الأسطول أكثر من يبعث إلى مراد بك فى القاهرة بالرسالة الآتية :

« سيدى

إن العمارة التى حضرت إلى مدينة الاسكندرية تتألف من مراكب كثيرة وليس لها أول يعرف ولا آخر يوصف . لله ولرسوله أدركونا بالرجال . . . » .

(٤) حالة مصر .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر أن مصر كانت خاضعة فى ذلك العهد لحكم المماليك الذى يضرب به المثل حتى اليوم

فى الفوضى والاستبداد. ولقد كان من آثار حكومتهم السيئة الظالمة أن تضاءل فى عهدهم عدد السكان فأصبح ثلاثة ملايين بعد أن كان نحو عشرين مليوناً مدة حكم الرومان والعرب . وكان الشعب المصرى . إذ ذاك يتألف من ثلاثة عناصر متباينة. فالأقباط أولا وهم سكان البلد الأصليون. ثم العرب الذين استوطنوا بعد ذلك فى عهد الدولة الاسلامية ثم الأتراك الذين نزحوا إلى مصر بعد أن فتحها السلطان سليم .

أما حكومتها فكانت فى يد المماليك الذين جاء بهم سلاطين الدولة الأيوبية ليكونوا لهم خدما وأتباعا فكثر عددهم ونما نفوذهم واستقلوا بالسلطة دون سادتهم وأصبحت لهم حكومة البلد الفعلية . ولقد رأى السلطان سليم أن يستعين فى حكم مصر بهؤلاء المماليك وذلك بسبب بعدها عن مقر ملكه ولسوء وسائل الاتصال فى ذلك العهد. فولاهم إدارتها على أن يسلموا خراجها لوزير الدولة العلية الذى كان يبعث به السلطان إلى مصر ليمثل حكومة الباب العالى فيها . غير أن المماليك لم يلبثوا أن أعلنوا استقلالهم عن السلطان . واستبدوا بوزرائه . وتسلطوا عليهم إلى حد أنهم كانوا يعزلون من يقف منهم فى طريقهم أو يحاول بأية وسيلة أن يعترض على إرادتهم .

وبذلك استتب لهم الأمر فى هذه البلاد . وأصبحوا هم حكامها الفعليين . وانتهى الأمر ببعضهم أن امتنع عن دفع الاتاوة المفروضة للباب العالى . فلم يبق للسلطان على مصر إلا السيادة الاسمية . وفى أواخر القرن الثامن عشر كانت السلطة فى يد زعيمين كبيرين من زعماء المماليك وهما ابراهيم بك ومراد بك . وقد كثر فى عهدهما النهب والسلب حتى ضج التجار الفرنسيون الذين كانوا بمصر وقدموا شكاياتهم العديدة إلى فرنسا يستغيثون بحكومتهم مما كانوا يلقونه على أيدى هذين الزعيمين ورجالهم فخابرت فرنسا حكومة تركيا فى هذا الشأن فكان جواب الباب العالى أن المماليك قوم عصاة !

وجاء هذا الجواب متمشياً مع عزم فرنسا على مهاجمة انجلترا فى مستعمراتها فرأت أن الفرصة قد سنحت لتسيير حملتها على مصر وقام نابليون فعلا بتجهيز هـذه الحملة على النحو الذى وضحناه بعد ان اشترط على حكومة الاداره أن تبعث بتاليران وزير خارجيتها إلى الاستانة ليتفق مع الباب العالى على عقد محالفة مع فرنسا تخولها دخول مصر وطرد المماليك من ربوعها

ولقد كان من صالح الباب العالى لو أن تاليران وفق فى

مهمته فان التفاهم مع فرنسا على شئون مصر فى تلك الظروف كان أدنى إلى التحقق من التفاهم عليها مع المماليك . ولكن انجلترا كانت أسبق إلى اذن السلطان من فرنسا ولذلك فشلت مفاوضات تاليران . وأقبل نابليون بأسطوله على مصر وهو يواجه أربع خصومات قوية إذ كان أمامه المماليك بخيلهم ورجلهم والأهالى بتعصبهم وجهلهم والأتراك بنجداتهم المتتالية — ومن وراء كل هؤلاء الانجليز بأساطيلهم ودعايتهم .

(٥) فتح الاسكندرية .

وكان لا بد لنابليون ازاء هذه العوامل من أن يلجأ إلى أساليبه الخاصة التى امتاز بها وحده والتى كفلت له النصر فى إيطاليا من حيث سرعة التحرك . ومفاجأة العدو . وعدم تمكين خصومه من التجمع عليه فى جبهة واحدة . فأسرع بنحو خمسة آلاف جندى إلى النزول عند (العجمى) وهو مكان يقع على مسيرة نحو ست ساعات فى غرب الاسكندرية ثم واصل السير ليلا حتى طلع الفجر عليه وهو على أبواب المدينة وشرع يهاجم أسوارها فورا فلم يتمكن أهلها من الدفاع أكثر من ساعتين لضعف استعدادهم وسوء وسائل

الدفاع المتوفرة لديهم — فدخلها نابليون بجنوده وفى اليوم التالى أرسل اليه السيد محمد كريم يعرض التسليم بصفته حاكم المدينة فقابل طلبه بالترحاب وعرض عليه أن يكون عوناً للفرنسيين فى مهمتهم التى جاءوا مصر من أجلها وهى إبادة دولة المماليك الظالمة فأقسم له السيد محمد يمين الاخلاص والولاء فأبقاه نابليون فى عمله ثم أخذ فى تأمين الأهالى وطمأنتهم على أموالهم وأنفسهم ومعتقداتهم باسطاً لهم مبادئ الجمهورية الفرنسية التى أخذت على عاتقها أن تذيعها فى العالم وهى أن يسوس كل أمة عقلاؤها وأن يتساوى أمام القانون أفرادها. وأن لا يفضل أحد منهم أحداً إلا بقدر ما فيه من علم وكفاية يميزانه على غيره. فاستنام الأهالى لهذه المبادئ وألقوا اليه سلاحهم فأناب عنه فى حكم المدينة الجنرال كليبر. وشرع هو يصدر منشوراته لكافة بلاد مصر كى يمهد لنفسه سبيل الاستيلاء عليها غير تارك وسيلة للتأثير فى عواطف الشعب إلا استغلها. فأعلن فى تلك المنشورات بأنه أنما جاء مصر لطرد المماليك الذين استأثروا دون الأهالى بأوفر غلاتها وأجمل نسائها وأفخر قصورها وادعى أن الفرنسيين مسلمون مستدلا على ذلك بأنهم دخلوا إيطاليا

وهدموا فيها سلطة البابا واستولوا على مالطا وشتتوا فرسانها الذين كانوا يدعون أن الله أقامهم لمحاربة الاسلام . ثم نوه بأن الفرنسيين كانوا منذ القدم حلفاء السلطان العثمانى وأعداء أعدائه . ووعد الذين يتفقون معه من المصريين بالأمان والسعادة ثم انتهى بأن هدد كل من اتفق مع المماليك بالويل والهلاك . ولما فرغ من ذلك بعث إلى وزير الدولة التركى الذى كان يقيم فى القاهرة إلى جوار مراد بك وابراهيم بك بكتاب خاص هذه خلاصته :

« دولتلو أفندم حضرتلرى

إن جمهورية فرنسا عزمت على ارسال حملة لقطع دابر المماليك من مصر ومع أنكم أنتم أصحاب السيادة والسلطان فان المماليك قد جعلوكم كالأسرى تحت نفوذهم وسطوتهم ولذلك لابد أن يسركم مجيئنا إلى هذه الديار . فهلموا للقائنا والعنوا معنا المماليك ؟ بونابرت »

(٦) الحالة فى القاهرة

وكان مراد بك قدهاج وانتابته نوبة لدى وصول رسالة السيد محمد كريم الأولى التى بعث بها إليه وذهب إلى قصر ابراهيم بك واختلى به زماناً وذاع الخبر فى كل القاهرة

فاختلجت له وارتبك أهلها واجتمع المماليك والعلماء والأعيان بمنزل ابراهيم بك وأخذوا يتشاورون فى الأمر فصرح مراد بك لوزير الدولة بأنه يعلم أن حكومة تركيا هى التى دبرت مع فرنسا أمر هذه الحملة الفرنسية . ثم قال متهكما :

« ولا ريب أن حضرة الوزير يقدر أن يخبرنا بشىء عن ذلك ! غير أن العناية لابد أن تسعفنا على الاثنين ! » .

فرد عليه الوزير مستهجناً لهذه الظنون حاثاً له وللمصريين على الاسراع فى العمل لانقاذ مصر بدل اضاعة الوقت فى إثارة الشكوك حول موقف السلطان .

فاجتمعت كلمة الحاضرين على وجوب إلقاء القبض على قنصل فرنسا وسجنه هو والتجار الفرنسيين خوفاً من الخيانة . وأخذ مراد بك على عاتقه جمع قوة يواجه بها الأعداء فاجتمع له فى أيام قليلة نحو ٢٠ ألف مقاتل سار فيهم للقاء نابليون .

(٧) معركة الرحمانية :

وكان نابليون قد غادر الاسكندرية قاصداً فرع رشيد ليسير إلى جانبه حتى يصل إلى القاهرة ورأى أن يختصر الطريق إلى النيل باجتياز قفر دمنهور بدل أن يصل إليه عن

طريق الشاطئ فلاقى فى قطع هذا القفر كل مشقة وعناء إذ لم يكن فيه ماء للشرب ولا ظل تأوى إليه الجنود مع أن ذلك كان فى شهر يولية حيث تشتد الحرارة اشتداداً عظيما ولم يكن يرى الفرنسيون فى هذا القفر من بشر غير فرسان العرب الذين كانوا يختبئون منهم خلف تلال الرمل ثم ينقضون على مؤخرهم فيفتكون بالمتخلفين من رجالهم ولذلك كثرت الشكوى بينهم واشتد التذمر ومات كثير من الظمأ ومن ضربة الشمس. وكان يتزايد سخط الجنود كلما أوقفهم رجال البعثة العلمية التى ترافقهم أثناء فحصهم لأثر من الآثار التى كانت تصادفهم فى طريقهم حتى بدأ الجيش يتشكك أخيراً فى صدق نية الحكومة الفرنسية ظناً منهم بأنها لم تبعث بهم إلى مصر لفتح ولا لحرب ولكن لحراسة هؤلاء العلماء أثناء بحثهم وتحقيقهم وأخيراً زالت عنهم كل هيبة لهؤلاء العلماء وصاروا ينتهرونهم ويشتمونهم إذا أرادوا إيقافهم.

وكان من بين رجال هذه البعثة مهندس بارع فى فنه ولكنه كان أعرج قطعت رجله فى حرب سابقة فاستعاض عنها برجل من الخشب ولذلك سماه المصريون فيما بعد — (أبو خشبة) — وكان هذا العالم بصفة خاصة كثير البحث شديد

التدقيق إلى حد أن الجنود كانوا من شدة ضيقهم يتفكهون فيما بينهم بأمره — قائلين :

وما ذنبنا نحن اذا كان هـذا الرجل يريد أن يهلك فى مصر ولا يرجع إلى بلاده لأنه دفن رجله الأخرى فيها . »

☆ ☆ ☆

وأخيراً بعـد أن لبثت الحملة على هذه الحـال أربعة أيام طوال ذاقت فى خلالهـا ألوان العذاب أشرفت على شاطئ النيل فما لاح للجنود حتى تسابقوا إليـه يطفئون ظمأهم على ضفافه وينعمون بأكل البطيخ والشمام فى ظلال أشجاره .

ورأى بونابرت أن يعوض جنوده عما قاسوه فى رحلتهم هذه فأقام فى تلك البقعة نحو أربعة أيام أخرى ولـكن مراد بك طلع عليهم بجيشه فى اليوم الخامس وعند ذلك انتشبت بين الفريقين معركة الرحمانية المشهورة التى انكسرت فيها جماعة مراد والتى تابع نابليون من بعدها سيره إلى مدينة القاهرة .

وسرعان ما وصلت أنبـــاء هزيمة مراد بك إلى زميله ابراهيم بك فى القاهرة فجمع نساءه وأمواله وملأ بها مراكبه الراسية فى النيل عند بولاق لتكون بضاعة حاضرة تحت يده اذا دعا داعى الفرار . ثم كتب إلى مراد بك يستدعيه ليرابط

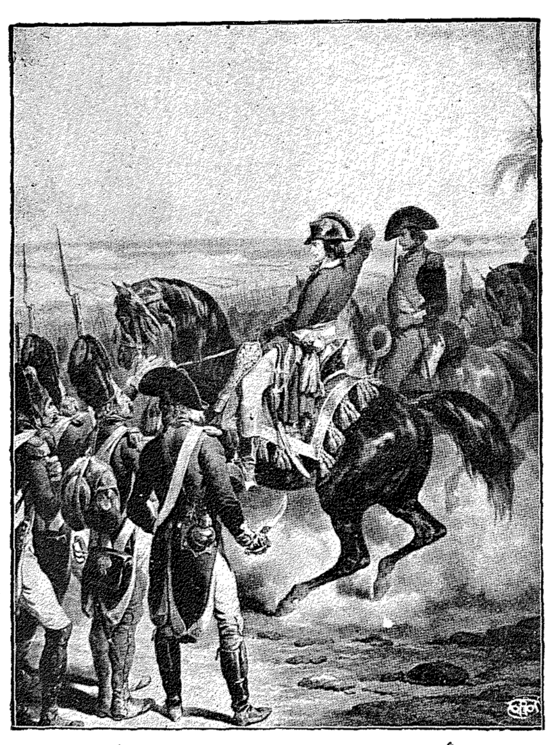
أمامه فى جهة امبابة حتى يحولا معاً من تقدم نابليون.
وثارت حماسة الأهالى واحتمل كل واحد منهم سلاحه الذى قدر عليه بينما سار العلماء فى موكب حافل تتوسطه الراية النبوية قاصدين بولاق ليشتركوا فى لقاء العدو وكل عدتهم فى ذلك اليوم العصيب هتافهم ملء حناجرهم .

« الله أكبر على من طغى وتكبر ! »

(٨) معركة الأهرام :

وفى الحادى والعشرين من شهر يولية سنة ١٧٩٨ أشرف نابليون برجاله على مدينة القاهرة . وما لاح لهم منظر مآذنها العاليـة عن شمالهم ومنظر الأهرام الجاثمة فى وسط الرمال عن يمينهم وأشعة الصباح الباهتة تكلل هامة الجميع حتى بهرتهم تلك الصورة السحرية فشخصوا إليها حامدين وتملكت نفس نابليون الحماسة وصاح فيهم قائلا : « أيها الجنود ! إن اربعين جيلا تنظر إليكم من فوق هذه الأهرام » فأشعلت هـذه الكلمة حماسة الجنود وتطلعوا أمامهم فرأوا جيوشاً جرارة فى بطن السهل بالقرب من إمبابة عليها أفخر اللباس وفى مقدمتها ما لا يقل عن عشرة آلاف فارس تحتهم أفراس مطهمة تأخذ

حللها بالأبصار . ونظر نابليون بمنظاره إلى العدو وعلى وجهه كل علائم الاهتمام ثم ما لبث أن نزل بالمنظار عن عينه وعلى شفتيه ابتسامة الثقة بالنصر القريب . ذلك بأنه رأى ما لم يره مئات الضباط حوله ممن يحملون مثل منظاره . واستطاع ببصره الثاقب أن يعرف أن المدافع التى مع المماليك ثابتة فى الأرض وليست محمولة على دواليب تديرها حيث يكون العدو ولكنها مصوبة كلها نحو الشمال فدار نابليون بجنوده عن وجهة أفواهها وهاجم خصومه من جناحهم الأيسر فسقط فى أيديهم . وعلموا أن مدفعيتهم قد شلت بهذه الحركة فهاجوا وانقضوا على الفرنسيين انقضاض الصاعقة ولكن هجومهم كان كالسحابة التى تصطدم بالطود الراسخ فيسقط مطرها على رأسه دفعة واحدة ثم تنقشع ولا يبقى لها أثر . وكذلك ثبت الفرنسيون تحت هجوم المماليك كالطود حتى حسب هؤلاء أن بعضهم لا بد أن يكون مربوطاً ببعض فسرى اليأس إلى قلوبهم ودب الفشل فى صفوفهم وسرعان ما تشتتوا كل يلتمس لنفسه الخلاص . أما مراد بك فانه أحرق السفينة العظيمة التى كان قد جمع فيها أمواله وخزائنه . وولى هارباً نحو الجيزة ثم أوغل فى قلب الصعيد وأما ابراهيم



« إن أربعين جيلا تنظر اليكم من فوق هذه الأهرام »

فانه ما كاد يرى رجاله يشتبكون مع الفرنسيين ويحس بتفوق هؤلاء عليهم حتى فر بأمواله ونسائه قاصداً إلى الشام يصحبه وزير الدولة بكر باشا . ولما رأى الشعب زعماءه يفرون على هذه الصورة ويتخلون عنه فى أشد الأوقات وقع الرعب فى قلبه . ولم ير أمامه غير التسليم فاتفق أهل الرأى منهم على ذلك وجاءوا بقنصل فرنسا وزملائه الذين كانوا فى سجن القلعة وبعثوا برسولين منهم إلى نابليون ليطلبا إليه تأمين الأهالى على أموالهم وأنفسهم فى نظير تسليمهم إليه فأجاب نابليون سؤلهم وأرسل الجنرال ديبوى لاستلام المدينة وتأمين أهلها فقابله العلماء والأعيان عند بولاق فى مساء ذلك اليوم ودخلوا المدينة أمامه بالمشاعل والمنادى بين يديهم ينادى :
« الأمان للرعية جميعها . »

(٩) دخول القاهرة :

وفى اليوم التالى دخل نابليون القاهرة هو وبقية جنوده وخرج الأهالى للقائهم فى الطرقات فرحين بهم معجبين ببساطة لباسهم بالنسبة لما ألفوه من بذخ المماليك وأبهة ملابسهم العسكرية وقد نزلت جيوش نابليون فى منازل بكوات المماليك

الفسيحة الجميلة . أما هو فاختار لنفسه منزل محمد بك الألفى الذى كان على بركة الأزبكية وأقام فيه (وشارع الألفى الموجود الآن بالقاهرة ليس إلا رمزاً لمكان هذا القصر العتيق)

(١٠) اصلاحات نابليون

واستتب الأمر لنابليون فى القاهرة . فرسم أساس حكومة البلاد بأنشاء عدة مجالس للادارة والقضاء . ثم أخذ فى تقسيم القاهرة نفسها إلى أقسام أقام على كل قسم منها حاكما فرنسياً لحفظ الأمن وتوطيد السلام وأمر بأن يتعهد الأهالى نظافة الطرقات ورشها واضاءتها كل فى دائرة مسكنه ثم رأى حاجة السكان إلى دار عامة يتعالجون فيها فأنشأ مستشفى القصر العينى لتطبيب المرضى والجرحى . وأمر بأن تضرب النقود فى القلعة باسم السلطان سليم حسب العادة . ثم قسم القطر المصرى كله إلى اقاليم وجعل على كل اقليم منها قائداً من قواده ثم أرسل وراء مراد بك من يطارده ويقضى عليه فى الصعيد وعلم بأن ابراهيم بك وبكر باشا قد وقفا فى طريقهما عند مدينة بلبيس وأنهما ينويان جمع أمرهما فيها بقصد العودة لمهاجمة القاهرة فسار اليهما بنفسه . فما لبثا أن انقلبا على عقبيهما وتابعا سيرهما

إلى مدينة غزة فى حدود سورية واتصلا منها بالجزار باشا والى عكا وشرعا بتحريضه يبعثان إلى مصر بالمنشورات السرية لحض الأهالى على الثورة والعصيان. فجمع نابليون علماء البلد وذوى المكانة فيها وكلفهم بأن يقوموا بأسداء النصح إلى مواطنيهم ويدعوهم إلى الطاعة والامتثال وتأدية الخراج فى سكينة وهدوء مرددين عليهم ماسبق لنابليون إذاعته من أن الفرنسيين حلفاء السلطان وأنصار الاسلام. وأنهم ما جاءوا مصر إلا لتطهيرها من عسف المماليك وفسادهم فصدرت نشرة طويلة بهذا المعنى ذيلها بتوقيعه كل من السيد خليل البكرى والشيخ عبد الله الشرقاوى. وأعلام شيوخ ذلك العصر كالمهدى والفيومى وغيرهما.

وانصرف نابليون بعد ذلك إلى الاصلاح على مافيه خير هذه البلاد فكان فى مقدمة ماعنى به تعيين أمير للحج ومخابرة الولايات الاسلامية الغربية كطرابلس وتونس والجزائر بأن مصر ترحب بحجاج تلك البلاد الذين يفدون اليها فى طريقهم الى الحجاز علماً منه بما يترتب على مرور تلك القوافل فى مصر من الرواج والرخاء. ثم جاء موعد الاحتفال بفيضان النيل وكان هذا اليوم من أيام مصر المشهودة التى يجتمع فيها الناس

من جميع الجهات لحضور مهرجانه فاشترك نابليون وجنوده في إحياء هذا العيد الوطنى وأقام الولائم لأعيان البلاد وابتدع لهذا العيد بدعة الألعاب النارية التى ظلت من تقاليد المهرجان حتى اليوم . وجاء بعد ذلك موعد الاحتفال بالمولد النبوى فحضر بنفسه وليمة السيد خليل البكرى نقيب الأشراف الجديد الذى ولاه نابليون بدلا من السيد عمر مكرم النقيب السابق الذى فر إلى الشام مع ابراهيم باشا وبكر . وقد عرف نابليون كيف يستولى على مشاعر المصريين فى ذلك العيد العظيم حيث يروى أنه دخل معهم إلى المسجد فى وقت الصلاة وجلس متخشعاً يتلو معهم مايلقنونه من آيات القرآن الكريم ويركع ويسجد مع الراكعين والساجدين .

ولقد قام نابليون إلى جانب هذه الأعمال بتنفيذ مشروعه الجليل الخالد الذى كان فاتحة عصر جديد لمصر بل وللعالم أجمع فى كل مايصل بينه وبين مصر وذلك بأنشاء المجمع العلمى وتنظيم أعماله وتقسيمه إلى فروع ليأخذ كل فرع منها القيام بمهمته فشرع المهندسون فى مسح الأراضى وضبط حدودها ورسم خرائط مفصلة لجهاتها . وأخذ آخرون فى دراسة نهر النيل ووضع المشروعات اللازمة لضبط مياهه وصرفها لفائدة الأهالى واهتم

فريق آخر بدراسة نباتات مصر وحاصلاتها وتربتها ومناخها وأخذ علماء الآثار فى الحفر والتنقيب للبحث عن الآثار القديمة التى تنير تاريخ مصر القديم وتكشف عن أسراره . وقد وفق أحد الضباط الى العثور على لوحة من البازلت فى مدينة رشيد كانت تحمل على جوانبها عبارة كتبت بالمصرية القديمة وبالرومية فى آن واحد . فجاء كشف هذه اللوحة نصراً باهراً فى هذا الميدان جنى منه العالم بأجمعه أطيب الثمرات حيث تمكن بعض العلماء بواسطتها من حل رموز الكتابة الهيروغليفية وانفتح بذلك باب البحث امام العلماء والمؤرخين .

(١١) معركة ابى قير البحرية

على أن نابليون ما كاد يجتمع له من أمر مصر كل هذا الشأن حتى فوجىء بصدمة هادمة لم يكن يقوى غيره على الاستواء بعدها على قدميه . وذلك أن نلسون أمير البحر الانجليزى الذى كان يتعقب أسطوله ما لبث أن عاد إلى الاسكندرية بعد أن علم بوصوله اليها فرأى مراكبه راسية فى خليج أبى قير فهاجمها من فوره وكان الفرنسيون على غير أهبة للقتال . فانتشبت بين الفريقين معركة عنيفة بدأت فى مساء أول أغسطس سنة ١٧٩٩

ودامت الليل بطوله واسفرت قبيل ظهر اليوم التالى عن تحطيم معظم البوارج الفرنسية وفرار البقية الباقية منها إلى مالطا. وبذلك انقطعت الوسيلة الوحيدة التى كانت تربط رجال الحملة بفرنسا وتحرج موقف نابليون أكثر من ذى قبل.

ويدهشك بعد ذلك أن تعلم أن كل ما أثارته هذه النكبة من الخواطر فى صدر نابليون هو أنه أحس بأن واجباً عليه أن يوسع دائرة العمل الذى كان ينوى القيام به فى الشرق بعد أن أصبح لا أمل له ولو موقتاً فى الاتصال بالغرب. وأنك لتقرأ ذلك صراحة فيما كتب الى الجنرال كليبر بالاسكندرية على أثر هذه الحادثة حيث أرسل اليه يقول « إن ما حدث فى أبى قير يحملنا على أن نقوم بأعمال أعظم من الأعمال التى شرعنا فى القيام بها ».

ولقد أخذ نابليون فعلا بعد ذلك فى تجنيد فرقة من الشبان المصريين ممن تتراوح سنهم بين ١٦ و ٢٤ سنة وأنشأ فى مصر معملا للبارود والرصاص وأصناف الذخيرة اللازمة حتى يكون فى غنى عن الرجوع الى فرنسا فى طلب نجدة أو مؤنة وأقام بريداً بين القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة واستمر فى إدخال اصلاحاته والقيام بأعماله المعتادة حتى تغلب بثباته وقوة

روحه على ما كان قد تسرب الى قلوب رجاله من اليأس والضعف والاستسلام للمقادير .

(١٢) ثورة القاهرة

على أن نكبة أبى قير ما لبثت أن انتشرت أخبارها بين الأهالى وتوسع المعارضون فى تأويل نتائجها والتعليق عليها بما تطمئن له قلوبهم حتى حسب الناس أن لا قبل للفرنسيين بعدها بالمقاومة وكانوا قد بدأوا يحسون بثقل الضرائب التى فرضها عليهم نابليون لتنفيذ إصلاحاته كما أنهم لم يرتاحوا لكثير من هذه الاصلاحات لما فيها من التكاليف التى لا عهد لهم بها كانارة الطرقات والعناية بكنسها ورشها والامتناع عن دفن الموتى داخل المنازل وغير ذلك . فاختمرت الفتنة فى نفوسهم وباتوا يتربصون للايقاع بنابليون وجنوده متى سمحت الظروف . وتمكن عمال نابليون فى تلك الفترة من ضبط رسالة بخط السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية يحرض فيها مراد بك على الحضور من الصعيد ليسلمه المدينة . فقدمه نابليون للمحاكمة وحكم عليه المجلس بالاعدام فكان لهذا الحكم صدى شديد فى نفوس الأهالى واشتد حقدهم بسببه

على نابليون . وحدث فى أواخر أكتوبر سنة ١٧٩٨ أن خرج نابليون إلى الجيزة ليتفقد بعض الأعمال العسكرية التى كانت تجرى هناك . فانتهز أهالى القاهرة فرصة غيابه وقرروا مهاجمة رجاله . فاجتمعوا فى الطرقات العامة أفواجاً أفواجاً ثم هاجموا الجنرال ديبوى حاكم المدينة الفرنسى وقتلوه واعتدوا على الجنود الفرنسيين حيث وجدوهم ثم تحصنوا فى المساجد الكبيرة وكان الأزهر مركز رياسة هذه الحركة التى ما لبثت أن انتشرت إلى الأقاليم انتشار البرق حيث قام الأهالى يقتلون الفرنسيين فى كل مكان يصادفونهم فيه . ولم يقفوا فى اعتدائهم عليهم عند حد فقد حدث ذات يوم أن أقبلت ثلة من الفرنسيين إلى المدينة ومعها نحو ٢٠ جندياً من الجرحى فهاجمها البدو ففر رجالها وخلفوا أولئك العجزة تحت رحمة خصومهم فقتلوهم عن آخرهم .

وأقبل نابليون فى مساء ذلك اليوم العصيب عائداً من الجيزة ولكن الأهالى كانوا قد أغلقوا دونه باب المدينة . فلم يتمكن من دخولها إلا بعد أن دار حول أسوارها حتى دخل من باب آخر . وهناك اجتمع برجاله وشرع فى مقاتلة الثائرين فوقع اختياره على تل مرتفع بجوار قلعة صلاح الدين تشرف

قته على الجامع الأزهر . فأقام عليه صفاً من المدافع ولبث ينظم وسائل دفاعه حتى انتصف الليل وعند ما تمت معداته أرسل لشيوخ الأزهر يطلب إليهم أن يعودوا إلى الهدوء والطاعة ووعدهم بالعفو إذا هم دانوا له وأقلعوا عن العصيان فرفضوا طلبه ظناً منهم بأن الخوف هو الذى دفعه إلى مفاوضتهم . فما كان منه إلا أن أمر بمحاصرة منطقة الأزهر من نواحيها الأربعة حتى لا يتمكن أحد فيها من الفرار . ثم صب على الثائرين ناره بدون انقطاع مدة ساعتين وهم لا يجدون عنها مصرفاً إلا إلى رماح جنوده التى أحاطت بحيهم . فلما أيقنوا بالهلاك إذا هم صبروا على هذا البلاء أرسلوا إليه يستغيثون بعفوه فأجابهم لقد عرضت عليكم السلم فأبيتم إلا الحرب والعدوان فأنا الآن أتمم ما شرعتم أنتم فيه .

أزاء ذلك لم يبق من أمل للثائرين إلا أن يستميتوا فى الدفاع فهجموا على خطوط الحصار المضروبة حولهم يلتمسون اختراقها ولكنهم كانوا يرتدون عنها كل مرة بعد أن تذوب صفوفهم تحت نار المحاصرين وأخيراً تقدم كبار العلماء بغير سلاح طالبين مواجهة نابليون فأذن لهم هذه المرة بالدخول

عليه ثم أمر بايقاف القتال ، ولكنه ألقى القبض على زعماء الفتنة وتشكلت هيئة لمحاكمتهم فى الحال فحكمت عليهم بالاعدام . وأعدموا فى نفس ذلك اليوم . وأعلنت بعد ذلك الأحكام العرفية فى القاهرة وفرضت على أهلها غرامة طائلة . وبذلك عادت الأمور تجرى فى مجاريها الأولى وانصرف كل إلى ما كان قد شرع فيه فعاد الأهالى إلى شئونهم وعاد نابليون إلى عمل الاستحكامات اللازمة لجنوده والضرب على أيدى اللصوص وقطاع الطرق الذين انتشروا فى ظل عهد الفوضى وأقام كثيراً من المنشآت العامة فى القاهرة كالملاهى والمتنزهات والمكاتب والصحف وهكذا كانت ثورة القاهرة سبباً فى رسوخ أقدام الفرنسيين فيها .

(١٣) الحملة السورية

ولكن الانجليز كانوا ما فتئوا يعملون على إثارة السلطان ضد نابليون ويحضونه على إرسال قوة لطرده من مصر ووعدوه بتقديم كل مساعدة ممكنة عن طريق البحر فتحرك السلطان أخيراً وجهز حملة برية عظيمة بمساعدة أحمد باشا والى عكا الملقب بالجزار . وكانت تتألف هذه الحملة من

عشرات الألوف من المقاتلين الذين اجتمعوا من مختلف الأقاليم . وظهرت طلائعهم عند حدود مصر حوالى يناير سنة ١٧٩٩ واستولت فعلا على قلعة العريش . وكان نابليون إذ ذاك بجهة السويس ينقب عن آثار القناة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر فلما جاءته هذه الأنباء رحب بها لأنه كان من جانبه ينوى غزو الشام والحصول منها على المدد اللازم له فى حفظ مركزه بمصر وتعويض نفسه عن الخسائر التى أصابته على يد الانجليز والمماليك ولكنه كان كعادته لا يريد أن يتحمل مسئولية البدء فى العدوان . فلما استولت جنود االجزار على العريش أسرع اليهم وحاصرهم فيها ثمانية أيام طوال عرضوا عليه من بعدها أن يخلوا له القلعة إذا هو سمح لهم بالخروج منها بسلاحهم فسمح لهم بذلك وأطلق سراحهم على أن لا يعودوا لقتاله قبل مضى سنة فأقسموا له على ذلك وتابع هو سيره إلى غزة ولم تطل إقامته حول أسوارها لأن أهلها بادروا بتسليمها إليه بعد أن أمنهم على حياتهم . فأقام فيها ليلة ثم سار عنها قاصداً يافا فأرسل إلى حاكمها رسولا يطلب إليه أن يحقن دماء أهلها ويسلمها إليه على أن يكون آمناً هو ورجاله كما فعل أهل غزة . فكان جواب الحاكم

أن قتل الرسول ورفع رأسه على برج من أبراج المدينة العالية فهاج لرؤيته الفرنسيون وحمل بهم نابليون على تلك المدينة حملة شديدة تمكنوا بها من فتح أبوابها على أن أهلها رفضوا التسليم على الرغم من ذلك واستمروا فى القتال . فدامت الحرب بين الفريقين يومين كاملين كانا من أشأم أيام الحروب لوفرة ما ذهب فيهما من الضحايا وكثرة ما ارتكب فيهما من ضروب القسوة وأعمال العنف والتخريب . وأخيراً تم لنابليون إخضاع هذه المدينة وكانت غنيمة الفرنسيين من فتحها عظيمة وافرة إذ حصلوا على زاد كثير ومدافع عديدة ووقع فى أسرهم نحو ثلاثة آلاف جندى فأمر نابليون باطلاق سراحهم أيضاً على أن يهادنوه سنة كاملة. وكان الذى يدفع نابليون إلى سلوك هذا السبيل مع أسراه أنه كان لا يجد المئونة الكافية لجنوده إلا بكل مشقة . فكان من غير الميسور له أن يحتفظ بهؤلاء الأسرى معه فيلتزم بأطعامهم وحراستهم وهو محتاج الى كل لقمة يأكلونها والى كل جندى يشغلونه .

(١٤) حصار عكا

ولم يبق بعد يافا امام نابليون الا حصن عكا ليتم استيلاؤه على سورية بأكملها وقد قدر فى نفسه انه متى تم له ذلك فلا بد للسلطان من مهادنته وطلب الصلح منه لأن عكا كانت القلعة الشمالية الوحيدة التى تستطيع أن تحول دون تقدمه إلى القسطنطينية فسار إليها وقد علق كل آماله على إسقاطها ولكن الطاعون كان قد علق بأردان جيشه مذ خرج من مدينة يافا فما بلغ مدينة عكا وألقى عليها الحصار حتى كابد من الطاعون أكثر مما كابد على يد الجزار والعثمانيين وحلفائهم الانجليز الذين تولوا تموين المدينة عن طريق البحر كما كانوا يفعلون فى تولون. ومن سوء حظ نابليون أيضاً أنه كان قد بعث بمدافعه الثقيلة عن طريق البحر لتجتمع به عند عكا فتنبه الانجليز إلى ذلك وتربصوا لها فى البحر حتى ظفروا بها وبالسفن التى كانت تحملها واستولوا عليها جميعاً. ثم أقاموا تلك المدافع بعينها لتعزيز الدفاع عن أسوار المدينة وهكذا أصبح نابليون عند عكا يحاربه أعداؤه بسلاحه وتحاربه الطبيعة بما لا قبل له على دفعه ولكنه تجلد وبدأ الهجوم على

المدينة فى الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٩ بكل ما أودع الله فيه من عنف وقوة حتى وقع الرعب فى قلب الجزار . وفكر فى إخلاء القلعة والفرار بنفسه منها لولا وقوف الانجليز فى وجهه واعتراضهم عليه . وقد وفق السير سيدنى سميث كوميدور الأسطول الانجليزى الذى كان يعاون الجزار إلى الاتصال فى تلك الفترة بالمهندس الفرنسى بيكار دى فيلبو « Picard de Phélippeau » صاحب الشهرة الواسعة فى شئون المدفعية وهو من أنصار الملكية الذين فروا من فرنسا إبان الثورة الكبرى . فكان من المعونة التى قدمها هذا المهندس أكبر مشجع للجزار على البقاء واستئناف الدفاع .

واجتمع خارج المدينة جيش جرار من كافة أنحاء سوريا يبلغ تعداده ثلاثين ألفاً وعلم نابليون بزحف هذا الجيش نحو المدينة لنجدتها فخرج للقائه فى وسط السهل ودارت بين الفريقين معركة هى من مفاخر الفرنسيين حيث انتصر ستة آلاف منهم على هذه الثلاثين ألفاً وغنموا كل ما كان معها من مدافع وذخيرة وبذلك اشتد ساعدهم وقوى روحهم وعاد بهم نابليون لاستئناف الهجوم على عكا وهم أوفر عدة

وأرحب آمالا .

ولم يكتف السير سيدنى سميث مدير حركة الدفاع عن عكا بما كان يلقيه على خصومه من القنابل والمفرقعات ولكنه امعاناً فى النكاية بنابليون لجأ إلى الطريقة الانجليزية المشهورة المأثورة فوزع على الجنود الفرنسية نشرات يقطع فيها أصدق الوعود على نفسه بأن يعيد الى فرنسا كل من يلتجىء إليه منهم تاركا خدمة بونابرت . وكان فى ذلك اغراء تدور له أرسخ الرءوس لا سيما فى مثل تلك الظروف التى كان يكابدها الفرنسيون بين الطاعون المبيد وبين النار والحديد . على أن جندياً واحداً لم يستمع لهذه الدعوة فيروى التاريخ عنه أنه فر من فرقته . وقد لذ لنابليون أن يجيب على نشرة السير سيدنى سميث بنشرة أخرى أذاعها هو وقال فيها « أبشركم أيها الجنود فقد أصيب الكوميدور الانجليزى بالجنون ! » فبلغ ذلك السير سدنى سميث فاهتاج وأرسل لنابليون يطلب إليه أن يخرج لمبارزته فأجابه بونابرت : « إذا أمكن السير سدنى سميث أن يبعث مارلبرو Marlborough من قبره ليبارزنى فانى سأفكر فى الموضوع . أما إذا أراد هو أثناء ذلك أن يظهر بطشه ومبلغ قوته فانى على استعداد

لتعيين مكان أرسل إليه فيه أحد جنودى المماليك ليقاتله » .
فكان ذلك أنكى للسير سدنى سميث وأبلغ فى إيلامه .

وظل الحصار مضروباً حول عكا حتى تهدمت أسوارها واندكت منازلها وتشققت طرقاتها ولم يبق لها من معالم المدن ما يجعلها جديرة بهذا الاسم وأخيراً ظهرت فى البحر أمام عكا عدة بوارج أجنبية ظنهـا كل فريق من المتقاتلين أنها قد جاءت لنجدته فهدأت حركة القتال انتظاراً لقدوم هذه البوارج وخرج إليها السير سيدنى سميث ليضمهـا إليه ان كانت موالية له أو ليحاربها فى عرض البحر إن كانت آتية لنجدة خصومه . فاذا بها بوارج عثمانيـة جاءت لعكا بنجدة جديدة فلما تحقق الفرنسيون ذلك هاجوا وعولوا على مهاجمة المدينة للمرة الأخيرة قبل أن تصل هذه النجدة غير أن هجومهم كلفهم ضحايا غالية كثيرة . وأخيراً علم نابليون بأن البوارج العثمانيـة قد سارت إلى مصر لتتمكن من الدخول أثناء غيابه . ووصلته فى تلك الفترة أخبار عن فرنسا كانت هى الأولى بعد ثمانية شهور قضاها فى عزلته التى سببتها نـكبة أبى قير البحرية . وعرف نابليون من هذه الأنباء أن حكومة الادارة واقعة فى أشد الارتباك بسبب تحالف الدول عليها

من جديد . وأن ميدان القتال انفتح فى أوربا وأن نظراءه مورو وأوجيرو وغيرهما يتولون القيادة العليا هناك وهو هنا مرابط أمام عكا يجالد أقدر خلق الله على الجلد وقد تنقضى شهور وشهور قبل أن يقلع سدنى سميث عن الدفاع . وليس هذا الصبر البليد من طبع نابليون الذى كان من مأثور كلامه : « شيئان يجب على الانسان أن يستولى عليهما بالهجوم المفاجئ أو يتركهما دون أن يتعرض لهما — الحصون والنساء ! » — ولذلك عول على رفع الحصار عن عكا والعودة إلى مصر للدفاع عنها أولا أمام الجيش التركى الذى كان يسير فى طريقه إليها حتى إذا ما اطمأن عليها أمكنه انابة بعض قواده عنه وسافر هو إلى فرنسا .

(١٥) الانسحاب

وليس يخفى إن ارتداد نابليون عن عكا كان فى الواقع شر هزيمة لقيها هذا البطل منذ بدء حياته العسكرية . وفيها انهارت آماله التى كان يمنى نفسه بها للوصول إلى الهند . ولتكوين امبراطورية عظيمة فى الشرق . ولكن لما كانت هذه الآمال سرا بالنسبة لجنوده الذين لم يكونوا يعلمون من

أمر الحملة السورية الا أنهـا وجهت لتفريق تلك الجيوش التى اتفق الأتراك والانجليز على تسييرها على مصر فقـد رأى هؤلاء الجنود أن الحملة السورية قد تكللت بالنجاح فى مقصدها حيث استولوا فيها على مدينتى غزة ويافا وهدموا حصن عكا وأسواره وتركوه خراباً بعد أن كسروا ذلك الجيش الجرار الذى كان كل ما يمكن أن تهددهم به سوريا ولذلك عاد نابليون إلى مصر ودخلها دخول الظافرين وقد سبقته اليها أخبار نصره فى غزة ويافا ومعارك عكا الشهيرة المشرفة .

(١٦) نابليون فى ميزان التاريخ

على إن قصة عودة هذه الحملة من سورية كانت فى ذاتها فاجعة أليمة من تلك الفواجع التى نكب بها نابليون والتى لم يكن غير روحه العاتى يقوى على مناهضتها وحمل أثقالهـا . فأن أكثر من ألف من جنوده القلائل الذين نجوا معه من الهلاك أثناء الحملة كانوا بين الموت والحياة من أثر الطاعون . أو أثر المعارك . ولم يكن يملك نابليون من الخيـل ما يكفى لحملهم وتخفيفـاً لآلامهم فنزل عن جواده الخاص وأمر ضباطه

بان يترجلوا عن خيلهم لتكون فى خدمة هؤلاء الجرحى والمرضى وسار هو وسط جنوده تحت شمس الصيف المحرقة يقطع على قدميه تلك القفار الجرداء التى خربتها الحروب حتى قارب الحدود المصرية . وهناك علم بأن جماعة من جنوده المصابين بالطاعون أصبحوا لا أمل فى شفائهم وإنهم لاشك هالكون بعد قليل . فاقترح على طبيب جيشه أن يرحم هؤلاء البائسين باعطائهم جرعاً من الافيون تذهب بصوابهم فيما بقى من ساعات نزعهم . وتعجل بهم فى قطع المرحلة الأخيرة من حياتهم الأليمة . ولكن الطبيب اعترض عليه قائلا إن مهمته أن يشفى المرضى وليس أن يقتلهم ! فما كان من نابليون إلا أن سلم مكرهاً بتركهم يموتون على مهلهم تحت حراسة ثلة من جنوده أمرها بالبقاء لحراستهم حتى يسلموا الروح

ولقد كان هذا الحادث سبباً فى حملة أثارها بعض المؤرخين على نابليون وأكثروا فيها من ذكر الوحشية وسفك الدماء وموت الضمير وأذاعوا تفاصيل الأمر على الوجه الذى أرادوا تصويره للناس فى كافة انحـــاء أوربا وفى أمريكا ليشوهوا أعمال نابليون وليدمغوا سمعته ولن يعدم الانسان حتى اليوم مؤرخاً من هؤلاء المؤرخين ما يزال يرمى نابليون

بمثل هذه النعوت بعد أن وضحت الحقيقة وتكلم نابليون بنفسه مؤكداً أنه ما كان يتردد فى طلب مثل ما طلب من ذلك الطبيب لو أنه رأى ابنه فى مثل تلك الحالة التى كان يعانيها جنوده .

على أن أخبار تلك الأيام السوداء مليئة بأعمال البر والعطف والمعونة الكفيلة بأن تخلد اسم نابليون بين أسماء احب المحسنين لولا أن خصومه حرصوا على أن لا يعلم الناس من أمر غريمهم إلا ما يزرى به ويبخس من قدره ولذلك نسمع منهم أن نابليون فكر فى تسميم جرحاه ومرضاه ولا نسمع منهم انه بعد أن نزل عن جواده لهؤلاء الجرحى وسار هو على قدميه فى قفر ملتهب ورمل غزير محرق . صادف ضابطاً من ضباطه صحيح الجسم ما زال يحتفظ بجواده تاركا رفاقه العاجزين يجرون على الرمال المحرقة أطرافهم المهشمة فاشتد غيظه وهجم عليه فى سرجه ورماه عنه بضربة من قبضة سيفه طرحته على الأرض ثم أمسك بيد أحد الجرحى القريبين منه ورفعه إلى ظهر الجواد وسط هتاف الجنود وتهليلهم لهذا العمل الانسانى المجيد

على أن المنزلة التى كان يتمتع بها نابليون فى نفوس رجاله

كانت من السمو بحيث لم يرو التاريخ لها شبيهاً عن عظيم من عظمائه . فان جنوده لفرط عنايته بأمورهم وحنوه عليهم كانوا لا يترددون فى التضحية بأرواحهم لحمايتـه من كل ما يهدده ويحولون بأجسامهم دون الخطر المحدق به . وقد حدث حول أسوار عكا نفسها أنه كان فى خندق من خنادق الحصار يصدر بعض تعليماته لجنوده فسقطت قنبلة تحت قدميه فما هو أن رآها الجنود حتى انقض منهم اثنان على نابليون واحاطا جسمه بأطرافهما وانفجرت القنبلة فأحدثت فجوة فى الأرض «تسع عربة بجواديها » كما يروى الرواة فلم يلبث الثلاثة أن انهاروا وغطتهم الانقاض والحجارة وأوشك أحد الجنديين أن يهلك من أثر السقوط . أما نابليون فانه أصيب برضوض خفيفة وكان أول ما عمله بعد أن أفاق من غشيته أن رفع هذين الجنديين الى رتبة الضباط

وانك لتقرأ أخبار مثل هذه التضحية فى كل صحيفة تقلبها من تاريخ نابليون والحقيقة التى لا مرية فيها أن قائداً من قواد العالم لم يظفر بمثل ما ظفر به هو من محبة جنوده وتفانيهم فى الولاء له .

* * *

وأخيراً (فى ١٤ يونيه سنة ١٧٩٩) بعد مسيرة ثلثمائة ميل على طريق قفرة وعرة وطعام تافه ضئيل وصل جيش الشام الى القاهرة . وبرهن بذلك السفر الذى استغرق ٢٦ يوما على مبلغ مايستطيع الانسان احتماله من الشدائد والآلام إذا ما أتيح له قائد عظيم ينفث فيه من سحر همته وينفخ فيه من روح إرادته .

(١٧) حالة الفرنسيين فى مصر .

دخل نابليون القاهرة بعد أن غاب عنها نحو ثلاثة شهور فألفى روح القلق سائد على من خلفهم فيها من رجاله إذ كانت أخبار أهلهم ووطنهم قد انقطعت عنهم قرابة عام . وباتوا كلهم يتطلعون إلى العودة من هـذه الديار التى كانوا يمنون أنفسهم قبل دخولها بقصور الرخام والمرمر فاذا هم لا يرون فى بلدانها غير الطوب والآجر والتى كانوا يطمعون فى لين جانب أهلها واستسلامهم فأذا هم لا يجدون فيها أمنا إذا ما ابتعدوا عن خيامهم بضع خطوات .

ولـكن كان على نابليون قبل أن يفكر معهم فى العودة أن يلاقى ذلك الجيش الذى جهزته له تركيا وأمدته الروسيا

وعادته انجلترا وقيل عنه إنه جاء فى طريقه إلى مصر . غير أنه لم يكن يعرف حتى هذه الساعة متى تصل السفن التى كانت تقل هذا الجيش ولا فى أى مكان عزمت على أن تلقى مراسيها فلم ير بدا من انتظارها والتربص لأخبارها .

وفى ذات مساء بينما كان يساير صديقاً له فى ظل الأهرام إذا بفارس يقبل نحوهما وقد غشيته سحابة من الغبار . فلما جاءهما ترجل وسلم نابليون رسالة كان يحملها إليه من الاسكندرية مؤداها أن أسطولا بحرياً عظيما قد وصل مياه أبى قير ونزل منه نحو ثمانية عشر ألف مقاتل شاكى السلاح تعززهم مدفعية قوية وأن أخباراً وردت عن مراد بك بأنه فى نفس الوقت يغادر الصعيد بجيش كبير لينضم إلى هؤلاء الجنود العثمانيين .

فعندما وقف نابليون على هذه الأخبار الهامة قرر السير من فوره إلى أبى قير لمفاجأة تلك الحملة قبل أن تأخذ عدتها للقتال . ثم دخل خيمته وظل يملى أوامره على أركان حربه حتى الساعة الثالثة صباحاً . وفى الساعة الرابعة ركب فرسه وخرج فيمن اجتمع له من رجاله قاصداً أبا قير .

(١٨) معركة أبي قير البرية

كانت القوة التى تيسر لنابليون جمعها فى تلك الليلة نحو ستة آلاف مقاتل وكان الجنرال كليبر مكلفاً باعداد فرقة أخرى قوامهـا ألفان للحاق بقوة نابليون . على أن نابليون واصل زحفه ليلا ونهاراً بدون تمهل مدة سبعة أيام وفى منتصف الليلة الأخيرة (ليلة ٢٥ يولية سنة ١٧٩٩) أشرف على خنادق العدو فى أبى قير واستطاع بخبرته الحربيـة أن يقدر قوة أعدائه فاذا هى لا تقل عن عشرين ألفاً لا يملك لقتالهم إلا هذه الثمانية آلاف على فرض أنه ينتظر حتى يصل إليه كليبر ومن معه . ولـكنه كان يتحرق شوقاً للثأر لنفسه ولوطنه من نـكبة أبى قير البحرية . ولتعويض ما أصابه فيها من الخسائر . وكان يعلم أنه لو كسر فى هذه المعركة فسوف لاتقوم له من بعدها قائمة . وأن الضربة التى تصيبه فيها ستكون القاضية عليه وعلى جيشه كما كان يقدر أن النصر الذى يحرزه فى هذا الميدان سيفتح له طريق الخلاص من جديد . فيذهب إلى فرنسا حيث يتيسر له الاشتراك فى الدفاع عنها ضد الدول الأوروبيـــة التى تألبت عليها . وهناك ميدان العمل المطلق

الفسيح . وهناك الحياة والمستقبل الواسع فقرر الهجوم من فوره دون انتظار كليبر .

وأجفل الجيش العثمانى عندما أشرقت عليه أشعة الفجر الأولى فاذا هو أزاء نابليون وفرسانه واذا بوابل من القنابل يهطل عليهم وهم فى خيامهم وخنادقهم آمنون فدب الرعب فى قلوبهم وبادروا إلى سلاحهم ولكن سرعة نابليون وعنف هجومه كان لهما أثرهما فى نشر الذعر بين صفوف أعدائه فصاروا يتخبطون تحت حملات الفرنسيين ويروغون منهم هنا وهناك يلتمسون التخلص من تلك النار التى تنصب عليهم كأنما تفتحت عنها أبواب السماء فلا يجدون حولهم الا ماء البحر المحيط بهم . فدفعهم يأسهم إلى أن يلقوا بأنفسهم فيه لعلهم يصلون سباحة إلى بوارجهم الراسية قريباً من الشاطىء . ولكنهم بعد أن نزلوا فى الماء أمسوا غنيمة باردة لنار الفرنسيين وأصبح التخلص منهم لا يكلف نابليون أكثر من إطلاق مدافعه عليهم وهم فى الماء لا يملكون لها دفعاً ولا رداً وبالفعل لم تمض إلا ساعات قلائل حتى كانت تطفو على سطح ميناء أبى قير اثنتا عشرة ألف جثة خضبت دماؤها زرقة الماء . ولم يبق من رجال هذه الحملة الا الألفى الأسير الذين وقعوا فى

يد نابليون فى ذلك اليوم العصيب . وبذلك تم له هذا النصر المبين . وتمكن نابليون من أن يمحو بذكره كل ما يمكن أن يكون قد علق باسمه من عار المعركة البحرية الأولى . وأمن بعده على مصير مصر . واطمأن اليه كختام باهر لتاريخه القصير فى الشرق . وارتضاه شاهداً يشهد له ببراعة المقطع إذا هو ختم جهاده فى ميدان من ميادين القتال !

(٢١) مغامرات العودة الى فرنسا :

واتصل نابليون عقب هذه المعركة بأمير البحر الانجليزى يتظاهر بمفاوضته فى أمر تبادل الأسرى وكل همه فى الحقيقة أن يصل منه إلى شىء من أخبار فرنسا وأوربا وكان السر سيدنى سميث من جانبه قد أعيته الحيل فى مقاومة نابليون واقصائه عن هذا الميدان الشرقى الذى أمسى وجوده فيه أكبر مهدد للانجليز فى امبراطوريتهم الشرقية العظيمة . ففكر فى أن يشغل باله بأخبار فرنسا وما هى متورطة فيه من الحروب والهزائم (بعد أن تألف ضدها التحالف الدولى الثانى) لعله يفكر فى العودة إليها واخلاء مصر . ولذلك أرسل إليه مجموعة من الجرائد فحملها ياور نابليون من فوره

إلى خيمته فاذا هو نائم فى فراشه . فناداه أنه قد حمل إليه مجموعة من الصحف الأوربية . فاستوى نابليون جالساً فى سريره . وسأل بلهفة « وما هى أخبار أوربا ؟ » . فأجابه ياوره بأن (شِرَرْ) قائد الجيوش الفرنسية فى إيطاليا قد انهزم أمام الأعداء وأن إيطاليا توشك أن تفلت من أيدى الفرنسيين . فوثب نابليون من سريره وأكب على تلك الصحف يقرؤها حتى طلع الفجر وهو يصرخ كلما جاء على خبر يسوؤه صراخ الاستنكار والحنق . ولما فرغ من قراءته دعا إليه رئيس أسطوله ولبث معه فى خيمته زهاء ساعتين وبعد ذلك قفل راجعاً إلى القاهرة .

(٢٠) مجازفة بارعة

ولقد كان من مظاهر عبقرية نابليون أنه كان إذا اعترضت طريقه عقبة أبرم فيها رأيه بسرعة البرق . ولم يكن لسرعة تفكيره فى مثل هذه المواقف من شبيه إلا سرعة إجراءاته فى العمل على تنفيذ أفكاره . فما علم من الجرائد التى تصفحها بأن ملوك أوربا قد اجتمعوا لمقاومة الجمهورية الفرنسية فى حلف جديد (التحالف الدولى الثانى) وانهم نجحوا

فى طرد الفرنسيين من إيطاليا وفى تعقبهم إلى الحدود الفرنسية نفسها حتى قرر العودة فوراً إلى فرنسا ضارباً عرض الحائط بكل ما كانت تعج به مياه البحر الأبيض المتوسط من السفن الانجليزية والتركية والروسية. ورسم الخطة التى يريد أن تدار بها شئون مصر بعد سفره ثم أناب عن نفسه الجنرال كليبر ليشرف على إدارة البلاد وبعد أن تم له ذلك أعلن عزمه على السفر إلى شمال الدلتا لفحص بعض جهاتها. وذلك لكى يصرف أذهان الناس عن حقيقة نواياه حتى لا يحدث منهم ما يعوقه عن السفر ثم جد فى السير حتى وصل الاسكندرية فى بضعة أيام. وفى مساء ٢٢ أغسطس خرج فى جنح الظلام ومعه ثمانية من رجاله المخلصين وهم لا يعلمون أين يذهب بهم قائدهم فسار بهم إلى مكان منقطع فى المينا كانت ترسو فى مياهه بارجتان. وقد شدت إلى الشاطئ تجاههما جملة زوارق صغيرة. فلما جاء نابليون إلى تلك البقعة فاجأ رجاله بأنه سيستصحبهم معه إلى فرنسا فكادوا يطيرون من الفرح لذكرى بلادهم وأهليهم ونزلوا عن أفراسهم وتركوها تعدو وحدها إلى الاسكندرية واستقلوا القوارب إلى البارجتين فأقلعتا بهم توا وما أصبح الصباح حتى غابت

عن أعينهم أرض مصر ؟ .

وكان على ظهر هاتين البـارجتين خمسمائة جندى أمر نابليون بأعدادهم ليصحبوه فى هـــذه الرحلة إلى فرنسا وليكونوا عدته إذا ما اصطدم فى طريقه ببوارج الانجليز . وكان قبطان البحر الفرنسى يرغب فى قطع الطريق إلى فرنسا فى عرض البحر حتى لا يظل فى مياهه المحفوفة بالمخاطر طويلا ولكن نابليون أمر بأن تسير البـارجتان بجوار شواطئ أفريقية الشمالية حتى لا تكون عرضة لأنظار الانجليز « وحتى نكون قريباً من البر فننزل اليه ونسير نحن ورجالنا الأبطال ومدافعنا القليلة إلى أوران أو تونس ومنها إلى فرنسا » وبعد أن أقاموا فى البحر أربعين يوماً لاحت لهم فى الأفق جبال كورسيكا فقصدوها وألقوا مراسيهم فى مياه مينا أجا كسيو . وانتشر خبر وصول نابليون إلى أهلهـــا فطاروا إلى لقائه والاحتفاء به وغصت المينا بزوارقهم وأعلامهم وكلهم يدعى القرابة لذلك البطل الذى خرج هو وأمه واخوته منذ ست سنوات فقط يلتمس النجاة من شرهم وأذاهم .

والناس من يلق خيراً قائلون له
ما يشتهى ولأم المخطئ الهبـل

وبعد أن تزودت البعثة بما تحتاج اليه من ماء وطعام وبعد أن استطلع نابليون من الأهالى أخبار فرنسا وما لحقها من الهزائم استأنفوا سيرهم نحو تولون . ولكنهم لم يبتعدوا عن شواطئ كورسيكا مسيرة يومين حتى لاحت لهم بعض البوارج الانجليزية فصاح القبطان : « إلى الوراء » ! يريد العودة إلى كورسيكا ولكن نابليون صاح بدوره : « إلى الأمام ! — فان الذهاب إلى كورسيكا يصل بنا إلى انجلترا فى حين أنى إنما أريد الوصول الى فرنسا ! » .

وكان ظهور تلك البوارج عقب غروب الشمس بقليل فلما أرخى الليل سدوله على الفرنسيين وحجب عنهم غرماءهم لم يعرفوا كيف يتقون الوقوع فى قبضتهم وزادت مخاوفهم وضعف كل أمل فى الخلاص حتى أن نابليون نفسه أمر بتهيئة زورق ليفر به اذا ما اشتبك الانجليز بمركبه وجمع كل أوراقه التى يخشى عليها أن تقع فى يد أعدائه لتكون حاضرة أمامه ساعة فراره ثم ظل هو وصحابه يترقبون طول الليل على أى حال تطلع عليهم شمس الغد ولكن الحظ كان فى هذه المرة أيضاً يسير فى ركاب نابليون . فانه وجد نفسه فى صباح اليوم التالى ازاء جبال فرنسا الجنوبية الشاهقة فاطلع فى الجهة

الأخرى فاذا هو يرى أطراف البوارج الانجليزية وهى تغيب أمامه تحت الأفق . . .

وبعد أن قضى نابليون فى البحر خمسين يوماً وطئت أقدامه هو ورجاله أرض فرنسا فى الساعة الرابعة من صباح يوم ٨ أكتوبر سنة ١٧٩٩ قرب مينا فريجو Fréjus وانتشر الخبر فى جميع أنحاء فرنسا انتشار البرق . وبلغ من فرح الناس واستبشارهم بعودة نابليون فى تلك الضائقة التى كانوا يعانونها أنهم هجروا قراهم ومنازلهم وخرجوا لاستقباله على طول الطريق من فريجو الى باريس . بل لقد حدث أن نائباً من نواب الشعب اسمه بودان Baudin بلغت به غيرته ووطنيته أنه قضى نحبه من فرط السرور والانفعال لدى علمه بأن نابليون ظهر فى فرنسا من جديد وأن الأمل فى التخلص من أعداء الوطن على يديه بات قوياً عزيزاً .

(٢١) نتائج الحملة .

وجدير بنا قبل أن نختتم هذا الفصل وننتقل مع نابليون الى فرنسا أن نلقى نظرة سريعة على ما خلفته هذه الحملة المصرية من الآثار .

فأما عن مصر فقد كانت غارقة بمماليكها وحكومتها فى أغوار العصور المظلمة متخلفة عن ركاب الزمن الذى سار بغيرها الى ساحات التقدم والرخاء . فامتدت يد نابليون واستخلصتها من ذلك الحضيض . وكشفتها لضوء الشمس وأمدتها بما تيسر من عناصر المدنية الحديثة . وأوقدت فيها تلك الجذوة التى يصح أن تعتبر بحق أساس كل ما يرى اليوم فيها من نور . فمستشفى القصر العينى الذى أنشأه نابليون كان أول ما عرفته مصر الحديثة من المنشآت العامة التى تعمل على محاربة الأمراض وتخفيف آلام المصابين . وحجر رشيد الذى اكتشفه أحد رجال نابليون كان مفتاح التاريخ المصرى القديم بكنوزه وفنونه . ووضح تحت ضيائه ما استتر على العالم من تاريخ الفراعنة العظام عدة قرون . وكتاب « وصف مصر » الذى وضعته بعثة نابليون العلمية كان أول وأدق ما وصل الى علم العالم المتمدين من شئون مصر بعد الذى كتبه عنها رجال الدولة الرومانية . ولسنا نذكر فى هذا المقام ما شقته الحملة من الطرق الرئيسية فى مدينة القاهرة القديمة ولا ما أقامته من الجسور ولا ما استحدثته من البدع المفيدة ولعل آخر ما كان يتوقع القارىء سماعه فى هذا الصدد أن مدفع

الظهر الذى يطلق الآن وقت الزوال كان واحـدا من تلك البدع .

وأما عن نابليون فقد صدقت فراسته فيما سيكسبه لنفسه من الشهرة والمجد بظهوره فى هذه الميادين الشرقية التى ظهر فيها قبله كبار الأبطال والزعماء . وسطع فيها نجم الاسكندر المقدونى . ولقد عاد من الحملة الايطالية تحيط باسمه هالة من السحر اكتسبها لنفسه على جسر لودى وحول أسوار مانتوا ولـكنه لم يكن يستطيع أن يقوى ضوء هـذه الهالة ويؤكد نورها بأكبر من ربط اسمه بتلك الأسماء التاريخية الخالدة كالاهرام ويافا والناصرة .

ولقد كانت الأحوال فى فرنسا أثنـاء غيبة نابليون فى مصر تدعو أهلها إلى اليأس والقنوط . فان الابتسامة التى افتر لهم عنها ثغر الدهر فى معاهدة كامبو فورميو بعد حرب مهلكة استمرت نحو عشر سنوات ما لبثت يد الحوادث أن عفت آثارها فتقلص نفوذهم عن ايطاليا — ايطاليا التى كسبها لهم نابليون — وانكسرت فيهـا جيوشهم — تلك الجيوش التى أدهشت أوربا تحت لواء نابليون — وتزعزع من جديد مركز الحكومة — تلك الحكومة التى حماها وثبت قواعدها نابليون

ــ فبات الناس ينتظرون رسولا من عند الله يقوى ضعفهم ويشد أزرهم ويقيل عثراتهم . وفى تلك اللحظة ظهر أمامهم نابليون عائدا من مصر وكأنما هبط عليهم من السماء . فالتفوا حوله واستسلموا اليه . وكان هذا اكبر مشجع له على احداث (انقلاب برومير) الذى سار به خطوة جديدة نحو العرش .

الباب الثالث

فى منزل نابليون

الفصل الأول

خيانة جوزفين

وضحنا فى بعض الفصول السابقة كيف كان حب نابليون لجوزفين، وكيف أن تكوين هذا الرجل الخاص جعل من هذا الحب تتيماً وولها . وكيف أن ارادته الحديدية التى كان ينثنى تحت ضغطها أصلب الأعواد كانت تلين بدورها وترق حتى تصبح كالهواء أمام رغبات جوزفين . وذكرنا أن نابليون سافر وحده عقب زواجه إلى ايطاليا وأن هذا الفراق العاجل الذى جاء فى غير أوانه كان نكبة على أعصابه حتى أنه ظل يرسل الى زوجته الكتب كل يوم يتوسل إليها أن توافيه فى سهول ايطاليا لتكون على مقربة منـــه حتى يسعد بصحبتها وينصرف إلى أعداء الوطن وهو قوى النفس هادىء البال . كما ذكرنا أنها كانت تلتمس لنفسها المعاذير لتبقى فى باريس حيث تنعم بمظاهر العزة والمجد الذى كسبه لها نابليون ولتتمتع وهى تمرح فى ميادين اللهو بثمرة أعمـال زوجها وهو يكدح فى ميادين القتال . ولقد أحاط بها هناك جماعة من شبان باريس

وظرفائها ووقفت هي منهم موقف طاحونة الهواء من خطرات الريح : — صدر مفتوح — وذراعان مشروعتان — وجناح ينخفض لكل هبة نسيم !

وظل نابليون المسكين على حاله يتوسل ويشكو حتى أحرجت جوزفين وتبين لها أن السفر أمر لامفر منه فشدت رحالها اليه وخرجت من باريس « وهي تبكي وتذرف الدمع السخين وتشهق كأنها سائرة الى العذاب » . أما نابليون فانه كاد يطير من الفرح للقائها وسر بقدومها أبلغ سرور كما ذكر مارمون أحد رجاله المقربين « لأنه لم يكن يعيش إلا بها . وأنى لم أر حباً تملك قلب رجل وكان أصدق مظهراً وأشد صفاء وأقوى اندفاعا من حب نابليون لجوزفين » .

وأن الانسان ليحزن حقا كلما تأمل فى هذا الحب القوى الذى كان يضمره نابليون لزوجته والذى لم تكن تبادله له جوزفين . فأن خيبة أمل نابليون فى هذا الحب قد مهدت الطريق أمام قلبه وعينه لتبحثا لهما عن ساكن جديد . ثم لما تبين اعوجاج جوزفين بعد ذلك وتيقن من خيانتها له مع ضباطه ورجال جيشه لم يتردد فى يأسه من هذا العالم وحنقه على أهله أن يمد عينيه إلى زوجات غيره هو أيضاً فيعاشر

بعضا ويستبي بعضا ويندمج بهذه النقائص فى زمرة الفجار ويشوه بمثل ما أتاه من الفضائح جمال اسمه الرائع الوضاء .

وتفصيل ذلك أن جوزفين ما وصلت الى ميلانو حتى اتخذتها قاعدة لمقامها فكان نابليون يكاوح النمساويين ويكافحهم فى شرق ايطاليا ثم يأوى اليها كلما سمحت له ظروف القتال . أما هى فكانت فى غيبته تسلك نفس مسلكها فى باريس وقد أحاط بها فى تلك المدينة أيضاً جمهور من الضباط الشبان الذين أخذوا يلتفون حولها باسم الاعجاب بزوجها ويبالغون فى التحبب لها والتزلف اليها . وقد نسيت هى وسط أنسهم وما كانوا يتنافسون فيه من ضروب الملق نابليونها وما كان يشكو فى وحدته من الوحشة « وكانت تصل اليها كتب الشوق والرجاء والتضرع التى يرسلها اليها نابليون وهى فى ذلك المحيط بين صنوف الملذات وأفانين المسرات فتنتحل الأعذار التى ألفتها فى باريس لتؤجل سفرها إلى حيث يكون » .

على أن ذلك لم يكن ليؤثر فى حب نابليون لها وإن كان الشك قد بدأ يتطرق فعلا إلى نفسه من جراء هذا السلوك الغريب . فأنك لتقرأ فى إحدى رسالاته اليها وهى فى ميلان :

« ... كنت أؤمل أن أحصل على كتاب منك نخاب الأمل وتولانى عليك قلق مخيف .... ألا خبرينى كيف يمكنك أن تنسى من يحبك هذا الحب الشديد ؟ ... فكرى فىَّ ياجوزفين ولا تعيشى لغيرى واقضى معظم أوقاتك مع من يحبك فانى لا أخاف فى هذه الدنيا إلا مصيبة واحدة وهى أن لا تحبنى جوزفين ! » .

بل إنك لتقرأ هذا الشك وهو يساوره فى صورة أقوى وأوضح حينما سكتت على هذا الخطاب وغيره ولم تحر جوابا فكتب اليها يقول :

« ماذا تعملين سحابة نهارك ؟ وأى شغل هام لا يدع لك وقتا لمكاتبة محب طيب القلب مثلى ؟ ألا خبرينى أى حبيب جديد يستغرق كل أوقاتك ويقتل ساعات نهارك فيحول بينك وبين مراسلة زوجك ؟ حذار حذار ياجوزفين فأنى سأباغتك ذات ليلة وأخلع باب مخدعك ...... أرجو أن أضمك بين ذراعى عما قريب وأنهال عليك بقبلات حارة كجو خط الاستواء ! »

وعلى الرغم من كل هذا النذير فقد قصد نابليون فى أواخر شهر نوفمبر سنة ١٧٩٦ إلى ميلانو ليحظى بتلك القبلات

الاستوائية التى وعد بهـا زوجته ، فوجد القصر خلوا من زوجته فسأل عنها فقيل له أنها سافرت إلى جنوا لترويح النفس وحضور بعض الحفلات هناك فاستولى عليـه يأس عنيف وكتب اليها يقول :

« وصلت ميلان وأسرعت إلى غرفتك تاركا كل شىء ورائى لأراك وأضمك إلى صدرى فلم أجدك لأنك تنتقلين من بلدة إلى أخرى فى طلب الأفراح والملاهى وتبتعدين عنى كلما دنوت منك . ولم تعودى تهتمين (بنابليونك العزيز) لأن تقلب أهواءك مال بقلبك إليه برهة ثم مالبث أن صرفك عنه انصرافاً . على أنى رجل ألفت المخاطر وعلمتنى صروف الدهر كيف أتغلب على محن الحياة وأعالج همومها فامضى أنت فى طريق مسراتك فان السعادة قد كتبت لك وأن الدنيا بأسرها لتعد نفسها سعيدة إذا أتيح لها أن تدخل على نفسك شيئاً من السرور . أما الشقاء والنكد فهما نصيب زوجك وحده دون سواه . »

وانك لتلمح من نفسك مبلغ التطور الذى طرأ على كتابة نابليون أزاء صد جوزفين عنه فانه بعد مطالبتـه إياها بأن تفكر فيـه وأن لا تعيش إلا له أصبح يقنع بأن يتمنى لها

السرور والصفاء لأنها خلقت للسعادة والهناء ويكتفى بانه يندب سوء حظ نفسه لأنه خلق للشقاء والنكد والحرمان .

وإليك أيضاً ما كتبه لها فى صبيحة اليوم التالى لترى إلى أى مدى بلغ به اليأس وإلى أى حد من العجز والذلة هوى به ضعف الحب :

« إن رجلا لا تحبينه ليس من حقه أن تكون سعادته أو شقاؤه موضع اهتمامك . أما عن نفسى فقد جعلت غايتى من هذه الحياة أن أعيش لأحبك فلا تهتمى بشئون رجل لايستمد حياته الا من حياتك . ولو أنى تقاضيت منك أن تحبينى بقدر حبى لك إنى إذن لفى ضلال مبين ! وهل أنا إن فعلت ذلك إلا كمن يتطلب أن تزن «الدنتلا» مثل وزن الذهب؟ وإن الذنب لذنبى اذا كانت الطبيعة لم تهبنى من الجاذبية ما أجذب به فؤادك ! ولكن الذى أستحقه من جوزفين إنما هو اعتبارها وتقديرها لأنى أحببتها هذا الحب العنيف الفريد ! وانى فى الساعة التى أعرف فيها أنها لم تعد تحبنى سأطوى على هذا السهم الدامى جناحى وأرضى من هذه الدنيا بأن أوفق إلى تأدية خدمة نافعة لها فى أية ناحية من نواحى الحياة . . . .

هاءنا أعيد فتح كتابى لأقبلك ! آه — ياجوزفين !

ياجوزفين ! »

فانظر كيف غلب الحب على عقل نابليون حتى أنساه أن جوزفين إن لم تكن تستطيع أن تحبه طائعة فلم يكن اقل عليها من أن تخافه وتخشاه وتنزل على إرادته ولو كارهة . فتكون إلى جواره حيث أقام وتحفظ اسمه مما يجعله مضغة فى أفواه العامة . وهو الذى وجدها أرملة فآواها ووجدها عائلة فأغناها . ولكن العبرة قضت بأن يفقد نابليون العظيم ثقته بنفسه معها فينقلب آدمياً كبقية الناس ويهبط من سمائه إلى مستوى كل من ضاعت ثقته بنفسه منهم فلا يعود له مايميزه على غيره .

ولقد كان العامل الأكبر فى غواية جوزفين وهى فى ميلانو فتى ضابطاً فى جيش نابليون اسمه هيبوليت شارل Hyppolite Charles كان قد نال حظوة التعرف اليها وهى فى باريس ثم جمعته الظروف بها فى ميلان . وكان شاباً نحيف الجسم أسمر اللون شديد العناية بملبسه وهندامه حلو الفكاهة أنيس المحضر لا يجلس فى جماعة الا ويسترعى سمعهم وبصرهم بحلاوة حديثه وخفة روحه فمالت إليه جوزفين وافتتنت به وخلعت عنده ثوب حشمتها وقربته من نفسها حتى تقول

الناس عليهما الأقاويل . وبلغ شيء من ذلك أسماع نابليون فأسرع إلى هذا الضابط فطرده من الجيش هو وكل من ثبتت صلته من الضباط الآخرين بزوجته

ولكن ذلك جاء بعد فوات أوانه وبعد أن علقت بأذهان الناس شبهات كان من شأنها أن تخدش اعتبار نابليون وتغشى حيناً على وضاءة اسمه المجيد .

على أن الحملة الايطالية انتهت بما أكسب نابليون مجداً وفخاراً يحسده عليهما أبطال التاريخ وعادت جوزفين إلى فرنسا وعاد هو أيضاً بعد توقيع معاهدة كامبو فورميو وافتتحا فى منزلهما « بشارع النصر » عهداً جديداً كان يطمع نابليون فى أن ينسخ به صفحة الماضى وصفا لهما العيش بالفعل دهراً الى أن نيط به أمر الحملة المصرية فزود جوزفين بنصائحه ووصاياه ثم ودعها وداعاً مؤثراً . وقد آثر أن يسافر وحده إلى مصر مضحياً بهنائه وصفائه فى سبيل راحة زوجته وسلامتها من التعرض لاخطار تلك الرحلة المحفوفة بالمكاره .

وأبحر هو ورجاله فى شهر مايو سنة ١٧٩٨ قاصدين الى مصر فوصلوها على الرغم من أساطيل الانجليز وجواسيسهم فى أول يوليو من تلك السنة ودخلوا القاهرة فى الرابع

والعشرين من هـذا الشهر واستتب لهم الأمر فيها وهكذا سطعت فى وجه نابليون ابتسامة أخرى من فم الدهر الساخر فخيل اليه أنه أصبح سيد الشرق بأسره وأنه أصبح من القدرة بمنزلة لا تظل آماله فيهـا كى تتحقق إلا ريثما تمر بخاطره ولـكن الطبيعة التى من دأبها أن ترمى بالصاعقة فى سنا البرق هيأت لنابليون فى هذا الصفو من أخبـار خيانة جوزفين له ما نغص عليه مقامه الجديد وما جعله يكتب إلى أخيه يوسف هذه الرسالة التالية وفيها يتجلى يأسه من الحياة بأسرها وثورته على الطبيعة البشرية بسبب ما فيها من العيوب والنقائص .

« أن مصر أغنى بلاد العالم فى قمحها وتيلها وخضراواتها ولحومها . والهمجية فيها على أتم ما تكون . والمال معدوم حتى إننـا لا نجد ما يكفى لسد مرتبات الجنود . أما أنا فقد أصل إلى فرنسا فى مدى شهرين . وانى أكل اليك أمر مصالحى فان أحزانا بيتية كثيرة ترهق فؤادى حيث قد انكشف الغطاء ولم يعد يخفى على من الحقيقة شىء . وأنت الوحيد الذى بقيت لى على ظهر هذه الأرض وليس بينى وبين (الميسانترو بيه)[1]

---

(١) الميسانتروبيه mesanthropie احسـاس يستولى على الانسان فيجعله يكره الناس ويفر منهم ويبتعد عنهم ويحقد عليهم

إلا أن أراك تخوننى مع من سبقوك إلى ذلك ! ألا ما أشقى الرجل الذى يركز كل عواطف قلبه فى محبة شخص واحد ! فاستمع الى ما أقول لك . انى أريد أن تعد لى منزلا فى الريف يكون فى بورجونى أو بجوار باريس فانى أنوى أن أعتكف فيه مدة الشتاء . لقد ضاق صدرى بالطبيعة البشرية وأصبحت أحس بالحاجة إلى الانفراد والعزلة . وسئمت مظاهر العظمة وجف نبع عواطفى وأصبحت وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى أعاف المجد وأراه فاترا لا طعم له . لقد فنيت منى هذه الكنوز جميعها ولم يبق لى إلا أن أعيش خالصا لنفسى . فاما منزلى فسيكون لى وحدى ولن أعطيه لكائن من كان إذ لا مطمح لى بعد اليوم فى أكثر من أن أعيش . وداعا أيها الصديق الأوحد . انى لم أسىء اليك قط فى حياتى ومن حق أن تعترف لى بذلك . قبل لى زوجتك وجيروم ! »

وهكذا نرى هذه الرسالة التى بدأها نابليون بأحاديث القمح والخضروات تنتهى بأمر عبارات اليأس والسخط والاشمئزاز إذ ما قيمة المجد والنصر والفتوح لرجل مثله يصاب فى ناحية الضعف الوحيدة التى فى بنيان نفسه وهى

محبته لزوجته تلك المحبة التى تجعله ينسى نفسه معها حتى ليعتذر اليها عن ذنوبها ويكتب اليها عند يأسه منها : « كونى سعيدة فان لك السعادة والهناء وكلينى لهمى فان نصيبى من هذه الدنيا الهم والشقاء ! »

لقد احتمل نابليون من جوزفين فى ايطاليا ما احتمل وكان يظن بعد أن عاد الى باريس أنها طوت صحيفة النزق التى نشرتها فى ميلان وأنها ستعيش معه بعد ذلك معيشة الزوجات الصالحات . فاذا به يعلم وهو فى مصر من الكتب التى وردت لبعض ضباطه أن زوجته عادت الى (هبوليت) وفتحت له أبواب قصرها ولم تستنكف من الظهور معه فى كل مكان أثناء غيبة زوجها بعد ما كان من طرده له من جيش ايطاليا ومن معاهدته لها على أن يعيش كل منهما للآخر مخلصا له الحب فى حضوره وغيبته وأن يصون اسمه فى قربه وبعده . فما بلغته هذه الأنباء حتى ثار لكرامته وجعل يرغى ويزبد ويتوعد جوزفين وهو على مسيرة ستمائة مرحلة منها بالطلاق « نعم بالطلاق . . . طلاقا فاضحا واضحا أعلنه على رءوس الأشهاد . . . لا بد لى من الكتابة الآن . . . انى أعلم كل شىء ولست أريد أن أكون أضحوكة العاطلين من أهل باريس ! »

وعلى أثر هذه الثورة جلس نابليون فكتب إلى أخيه تلك الرسالة التى أوردت لك نصها قبل هذه السطور والتى غلب اليأس فيها على قلبه حتى ليقول :

« لقد ضاق صدرى بالطبيعة البشرية وأصبحت أحس بالحاجة إلى الانفراد والعزلة وسئمت مظاهر العظمة . وجف نبع عواطفى وأصبحت وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى أعاف المجد وأراه فاترا لا طعم له . لقد سلبتنى يد الدهر كل أمل فلم يبق لى إلا شخصى أحيا به حيـــاة الأثرة والأنانية التامة المطلقة ! » .

ولقد بر نابليون فى هذه المرة أيضاً بهذا العهـد الذى قطعه على نفسه وكان الدرس القـــاسى الذى تلقاه على يد جوزفين سبباً فى نكبة عشرات الأزواج الذين رمتهم الأقدار فى طريقه ليمثل مع زوجاتهم نفس الدور الذى مثله هيبوليت مع جوزفين .

الفصل الثانى

بولين فوريس

فتاة شقراء — ذات عينين زرقاوين — وثنايا عذاب — (موديست) صناعتها ابتكار الأزياء وتأليف ألوانها — أما أمها فطاهية وأما أبوها فسر تعرفه أمها وحدها ولا يعرفه الناس . . . . . . تلك هى پولين (Pauline) .

وتزوجت پولين وهى تناهز العشرين من عمرها فتى ضابطا صغيراً ثم صدرت الأوامر إلى هذا الضابط بالسفر إلى تولون ليكون مع الحملة التى أزمعت السفر إلى مصر تحت قيادة نابليون فعز على الزوج الصغير أن يترك عروسه وراءه فى فرنسا فألبسها لباس الجنود ونكرها على الناس لأن صغار الضباط لم يسمح لهم فى تلك الرحلة باستصحاب زوجاتهم — وهبط الضابط بعروسه أرض مصر . وظل أياماً وهو سعيد بها قبل أن ينكشف أمره . . . ذلك هو الملازم فوريس .

وبقيت پولين فوريس فى لباسها العسكرى إلى أن كان يوم أقام فيه نابليون حفلة فى ضواحى القاهرة فخرجت هى

إلى هذه الحفلة فيمن خرج من زملائها الجنود . وقد استقل كل واحد من رفاقها حماراً وهى وسطهم على حمارها تضحك كما يضحكون وتتصايح معهم كما يتصايحون . فلفتت رخامة صوتها وحلاوة ابتساماتها انتباه نابليون فوكل بها بعض رجاله ليتحرى عن أمرها . فما لبث أن عاد إليه وقص عليه حقيقة حالها . فوقعت من نفسه كل موقع . وفكر لساعته فى أن تكون له ينسى بين يديهـــا جوزفين ويتخذها لنفسه خليلة تؤنسه وتسليه .

ولم يكن عزيزاً عليه وهذه نيته أن يضع لها (بتكتيكاته) الموفقة خطة تكفل له الاستيلاء عليها . وقد نفذت هذه الخطة فعلا بأحكام عسكرى دقيق فلم تدر مدام فوريس آخر الأمر إلا وهى غنيمة بين يدى نابليون .

وبيان ذلك أن وليمة أقيمت باسم الجنرال بونابرت لكبار ضباط الحملة ونسائهم وأرسلت دعوة إلى مدام فوريس دون زوجها فحاول هذا أن يمنعها من حضور الحفلة فى أول الأمر . ولكنه عاد فخشى غضب رؤسائه عليه وسمح لها أخيراً بالذهاب .

« وكانت المأدبة شائقة وبينما القوم فى أنس وانشراح فتح الباب ودخل بونابرت فوقف الجميع اجلالا واحتراماً .

ثم مر بين المدعوين وهو يبتسم لهذا ويحي ذاك إلى أن وصل إلى حيث الجنرال (دبوى) ومدام فوريس وكان من حولهما جماعة من الضباط والقواد فتقدم مسلما وحيا الجنرال دبوى فشكره هذا على تنزله لتشريف المأدبة ودعاه لتناول فنجان من القهوة فلبى نابليون الدعوة وجلس بين قائدين مواجهاً مدام فوريس وأخذ يحدق فيها بنظره .

ولحظت مدام فوريس من تلك النظرات الحادة التى كان يرمقها بها نابليون أنها وقعت من نفسه موقعاً عظيما فساورتها حمرة الخجل . على أن نابليون لم يخاطبها بكلمة ولكنه شرب قهوته مسرعاً وانصرف قبل أن يفرغ المدعوون من تناول العشـــاء .

وكانت مدام فوريس جالسة بين الجنرال دبوى والجنرال جونو . وبينما كان هذا يتناول قهوته بعد الفراغ من العشاء سقط الفنجان من يده وانسكبت القهوة على ثوب مدام فوريس . وكان سقوط الفنجان برشاقة تامة لم يلحظها أحد . وسرعان ما أقبل القوم يحاولون تنظيف ثوب السيدة بواسطة المـــاء .

وما كان أشد اعتذار الجنرال جونو وتظاهره بالأسف

وازدادت البقعة انتشارا فى الثوب بسبب غسلها بالماء فاقتاد الجنرال جونو مدام فوريس إلى غرفة فى الطابق الأعلى لكى تنشف ثوبها .

وهناك كان بونابرت فى انتظارها . . فبقيت معه بعد خروج جونو — ولم تبرح غرفته إلا عند منتصف الليل .

وبعد هذه المأدبة بأيام صدر أمر للضابط فوريس أن يذهب لمقابلة الجنرال برتيه Berthier . فذهب فاستقبله القائد ببشاشة عظيمة وقال له :

إن حظك عظيم ياعزيزى فوريس لأنك ستعود إلى فرنسا ! فأن القائد العام (بونابرت) يريد إرسالك إلى باريس فى مهمة سرية فيجب أن تستعد للسفر بعد ساعة وهذه هى الأوامر الصادرة لقائد ميناء الاسكندرية لتسهيل سفرك .

فسقط فى يد فوريس ولم يعلم بماذا يجيب ولكنه شكر الجنرال لحسن ظنه به وقال : إذا كان لابد من سفرى بعد ساعة فيجب أن أذهب وأخبر زوجتى لتستعد حالا للسفر معى .

فقال برتيه : — زوجتك ! أو تظن أنك تستطيع أن تأخذها معك فى مهمة سرية يجب تأديتها بأقصى ما يمكن من

السرعة ولا سيما وأنت تعلم أنك معرض لخطر الأسر لأن بوارج انجلترا تملأ البحر المتوسط ؟

فلم يسع فوريس إلا الخضوع . وفى الساعة الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم (١٨ ديسمبر سنة ١٧٩٨) ركب مركبة خاصة قاصدا الاسكندرية . ومن هناك ركب سفينة فرنسوية تدعى (شاسور — Chasseur) وهى بقيادة قبطان يسمى لورنس.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مدام فوريس تحت مطلق تصرف بونابرت . فاستأجر لها منزلا مجاورا لقصر ألفى بك حيث كان يقيم هو وأركان حربه وكان يقضى أكثر أوقاته عندها أو يخرج للتنزه فى مركبة وكان يصحبها أحيانا فى مثل هذه النزه ياوره الصغير أوجين بوهارنيه ابن جوزفين . وعلم الجيش كله بهذه الصلة الجديدة بين قائدهم ومعشوقته فلم يجدوا تعليقا أفكه ولا أظرف من أن يطلقوا على مدام فوريس اسم — Notre Dame d'Orient أى قديسة الشرق .

أما مسيو فوريس فان الذى كان من أمره بعد أن غادر الاسكندرية أنه رأى السفينة (شاسور) تمخر البحر متعرجة فى خط غير مستقيم . فسأل القبطان عن سبب ذلك فقال له أنه يحاول اجتناب البوارج الانجليزية وكان فوريس قلقا

يتعجل الوصول الى باريس لينجز مهمته ويعود سريعاً إلى زوجته ولكن قبطان السفينة كان يتباطأ ويتلوى فى سيره كأنه يبحث عن البوارج الانجليزية ليقع فى أسرها عمدا .

وفى الواقع لم تمر بضعة أيام حتى التقت البارجة (ليون) الانجليزية بالسفينة (شاسور) فأسرتها ونقلت رجالها اليها .

ولا تسل عما خامر فوريس إذ ذاك من الحزن والأسف فأنه أقبل على قبطان السفينة يلومه ويغلظ له فى الخطاب ويلقى عليه تبعة الوقوع فى أسر الانجليز .

وبينما هو كذلك أقبل عليه مستر جون بارنت — أدهى جواسيس الانكليز يومئذ ومن أقدر الذين سعوا لنكاية نابليون — فأخذ يحادثه ليهدئ روعه ويرفه عن نفسه . وكان فوريس المسكين يكاد يقتل نفسه حزناً لأنه اضطر أن يسلم الأوراق السرية التى كان ذاهباً بها الى باريس الا أن بارنت أعادها إليه بدون أن يفتحها وقال له : — خذ هذه الأوراق فاننا لم نفتحها ولا نريد أن نفتحها . وقد صدرت الأوامر بارجاعك الى مصر واطلاق سراحك هناك . فلم يكد فوريس يصدق أذنيه وأدرك بارنت سبب دهشته فقال له :

نعم انك ستعود إلى مصر فترى زوجتك بين ذراعى

بونابرت ! فلم يكد يسمع ذلك حتى كاد الشرر يتطاير من عينيه ولكن بارنت أخذ يتلو عليه ما يأتى ويرمقه من آن إلى آن بالنظرات . قال :

« لقى الجنرال بونابرت مدام فوريس أول مرة على الطريق بين القاهرة ورشيد . وللحال أمر برتييه رئيس أركان حربه أن يستقصى أخبار السيدة ليعلم من هى . وفى ذلك اليوم نفسه أعلمه برتييه أنها مدام فوريس زوجة الملازم فوريس من ضباط فرقة الفرسان الثانية والعشرين . فأمر بونابرت الجنرال دبوى أن يقيم فى الغد مأدبة يدعو إليها بعض النساء الفرنسيات وفى مقدمتهن مدام فوريس بدون زوجها وفى صباح الغد ذهب الجنرال جونو فقابل مدام فوريس على غير علم من زوجها وألح عليها بحضور المأدبة بدون زوجها لأن بونابرت يريد مقابلتها فأطاعت مدام فوريس ووعدت بالحضور الا إذا منعها زوجها بالقوة .

« وفى المساء حضرت وجلست إلى المائدة بين الجنرال جونو والجنرار دبوى وكانت موضوع سمر الجميع . وفى الساعة التاسعة والربع أى قبل الفراغ من العشاء دخل نابليون مع اثنين من قواده وجلس تجاه مدام فوريس تماما

ولم يحول نظره عنها . وفى الساعة العاشرة تظاهر بالانصراف ولكنه صعد فى الحقيقة إلى غرفة خاصة فى المنزل حيث لحقت به مدام فوريس بعد ذلك بيضع دقائق وبقيت معه الى منتصف الليل .

وظل نابليون يجتمع بها يوميا من سبتمبر الى آخر نوفمبر وأخيرا اتفق معها على ابعاد زوجها ورأى نابليون أن أحسن طريق لذلك هو أن يعيده الى فرنسا متظاهراً أنه يريد أن يرسله الى باريس بمهمة سرية . ولكنه كان فى الواقع يعلم أنه لابد من وقوع سفينته فى أسر الانكليز . وبذلك يتخلص منه ويخلو له الجو مع مدام فوريس » .

ولما فرغ بارنت من تلاوة هذا التقرير التفت الى فوريس وقال له « هذا ما اتصل بنا من وكيلنا بمصر . أما الأوراق التى تحملها والتى تزعم أنها سرية فأن عندنا صورة منها فلا شأن لنا بها . خذها وأعدها إلى بونابرت كما هى . وستعود بك البارجة (ليون) إلى مصر . ومتى وصلت إلى القاهرة فأن أحد رجالنا سيستقبلك ويوصلك إلى منزل بشارع ألفى بك حيث تجد زوجتك بين ذراعى عشيقها ! » .

وكان كذلك فأن فوريس عاد إلى القاهرة وسار توا إلى

المنزل الذى قيل له عنه . فوجد زوجته وجدها فطلب اليها أن تطلعه على الحقيقة . فاعترفت له بكل شىء فانهال عليها بالضرب والركل والرفس حتى كاد يقتلها . وفى اليوم التالى طلب طلاقها فأجيب طلبه .

وكان بارنت يرجو من اعادة فوريس إلى القاهرة أن ينتقم هذا لشرفه ويقتل بونابرت ولكن ظنونه لم تتحقق . وكادت الجناية تقع على رأس پولين ! .

الفصل الثالث

لقاء الزوجين

خرج نابليون من مصر كما أسلفنا وهو يعتزم طلاق جوزفين (طلاقا فاضحاً واضحاً على رءوس الأشهاد . . .) جزاء خيانتها له وعقد النية على أن يعيش بعدها حرا طليقاً خالصاً لنفسه ما دام تفانيه فى حبها لم يحقق له حتى وفاءها لعهده بله غرامها به ! .

فلما بلغ شواطىء فرنسا خرج الناس لاستقباله من كل مكان . وتنافس المتنافسون فى تكريمه والاحتفاء به وكانت تضاء الأنوار ليلا ويفرش طريق مركبته بالزهور وتقام له أقواس النصر . ولكنه كان يسير وسط هذه الحفاوة البالغة منكس الرأس مشغول الفكر كثير الهواجس بسبب همومه التى كان يجترها فى نفسه أسفاً على ما كان من تصرفات زوجته

وكان فى طريقه يلقى السمع إلى كل من يحيط به لعله يعلم من أخبارها شيئاً فلا يسمع إلا حديث الحكومة وخذلانها والنمسا وتنمرها وجيوش فرنسا وما حل بها من الهزائم فى كل ميدان . ولم يكن هو يجد فى نفسه الشجاعة على بدء الناس بالسؤال عنها . والاستفسار عن شئونها فظل يكظم هذه الرغبة فى نفسه حتى أشرف على باريس .

أما جوزفين فانها كانت فى وليمة عند مسيو جويه Gohier (أحد المديرين الخمسة) فى نفس الليلة التى انتشر فيها بباريس خبر وصول نابليون إلى أرض فرنسا فوجمت لهذه المفاجأة التى لم تكن تتوقعها وساورها قلق شديد على أثر الصدمة التى أحدثها هذا الخبر فى نفسها . وذلك لأنها كانت قد انقطعت عنها مكاتبات نابليون منذ شهور بسبب وقوف البوارج الانجليزية بالمرصاد له ولرسله ورسائله . ولأنها كانت تعلم ما يعتقده الناس فيها وما يقولونه عنها فخافت أن يسبقها خصومها إلى زوجها ليوقعوا بينهما ولذلك قررت القيام من فورها للقائه قبل أن يصل إلى باريس وقبل أن يتصل به حسادها لتقطع عليهم الطريق اليه ولتحول دون سعاياتهم لديه . ولتكون هى البادئة بالهجوم — ألم تكن قاعدة نابليون

نفسه أن « الهجوم خير وسيلة للدفاع » .

وعلى ذلك أسرعت إلى غرفتهـا فتجملت وتزينت ثم خرجت (شاكية السلاح) وهى تطمع فى النصر والفتح القريب . واستقلت عنـــد منتصف تلك الليلة مركبتها هى ولويس بونابرت أخو زوجها وهورتنس ابنتهـا الصغيرة وسارت فى اتجاه مدينة ليون . وبعد أن واصلت الليل بالنهار فى قطع هـذا الطريق الطويل دخلت ليون فاذا بنابليون قد غادرها إلى باريس قبل وصولها هى بساعات . فسقط فى يدها وعلمت أنها خسرت المعركة وأن نابليون سوف يدخل باريس ويجتمع بأهلها قبل دخولها هى بيوم أو يومين فكاد يغشى عليها من فرط الحزن واليأس ولكنها عادت فتماسكت ولم تر بدأ من استئناف السير للحاق به ومحاولة الوصول إلى قلبه من جديد .

ولعل هذه الساعة كانت ساعة الانقلاب الذى حصل فى عواطف جوزفين بالنسبة لنابليون . فانها ظلت طول عهدها السابق مستهترة متجنية عليـه يدعوها فلا تجيبه ويستعطفها فتضحك منه وهو قانع بهـذه الحال يصبر عليها ويطمع فى

تحسنها على مضى الأيام إلى أن كان ما كان من أمرها مع هيبوليت وغير هيبوليت وإلى أن كان ما كان من أمره مع پولين وغير پولين وعنـد ذلك انعكس الميزان بينهما إذ رأته جوزفين يكاد يفلت من قبضتها وسمعت عنه أنه يتلهى بغيرها فأكلت قلبها الغيرة عليه واستماتت فى الاحتفاظ به والتودد اليه . وكان من أثر ذلك خروجها فى تلك الرحلة غير الموفقة حيث وقفت هى فى ليون وعرفت أن زوجها جاد فى طريقه الى باريس وعند ذلك أحست بأن الخاتمة قد دنت وأنها لن تسترد منزلتها الأولى من قلبه وأن هذا البطل الذى كان طوع بنانها وهذا الملك غير المتوج الذى كان عبد هواها قد خسرته بخفتها وطيشها وسوء تدبيرها فتضعضعت ثقتهـــا بنفسها وانهزم كبرياؤها واستأنفت رحلتها عائدة إلى باريس لتبدأ دور الاستعطاف والتـذلل بعد أن فرغ دور الأعراض والتدلل !

أما نابليون فأنه ما وصل الى باريس حتى قصـد قصر اللوكسبورج توا وهناك قابله الحراس بهتاف يشق أطبـاق الجو فلما سمع الآهالى هتافهم التفوا حول القصر وأخذوا يصيحون معهم « لتحى الجمهورية ليعيش بو نابرت ! » وانتشر

الهتاف من شارع الى شارع حتى أصبحت تتجاوب به أنحاء المدينة وقرعت الأجراس وأطلقت المدافع وأخليت الملاهى والمنازل وخرج الناس من ديارهم وهم ألوف ليستقبلوا قائدهم ومنقذهم الذى نيط به الرجاء وانعقدت حوله الآمال. واجتمع بنابليون فى ذلك اليوم كل من كانت تخشى اجتماعهم به جوزفين فأكد لهم نابليون نيته فى الطلاق وكرر لهم صدق عزمه عليه ولم يبق إلا أن تصل جوزفين نفسها ليصدمها تلك الصدمة الحاسمة التى بدأ تعبئتها فى مصر.

وبعد يومين وصلت جوزفين ودخلت عربتها قصر اللوكسبورج فى ساعة متأخرة من ليلة ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩ وكان فى استقبالها هناك ولدها أوجين ياور نابليون فى مصر فطرحت نفسها على صدره باكية منتحبة وهى ترجف كما ترجف أوراق الخريف المتساقطة. فعاونها على صعود السلم إلى حجرة نابليون وهناك تقدمت إلى بابها بيد واجفة ودفعته دفعاً خفيفاً فبدا لها من خلفه نابليون وقد عقد يديه على صدره ووقف جامدا كالتمثال فما وقع نظره عليها حتى ابتدرها بخشونة قائلا :

« مدام ! أطلب اليك أن تذهبي حالا إلى مالميزون ! ».

فترنحت جوزفين بين يدى ولدها وبكت بكاء مراً وعادت أدراجها تستند إلى ذراع أوجين . وكان نابليون يعلم أنها صرفت فى سفرها هذا نحو أسبوع وهى تحاول لقاءه أو اللحاق به وأنها قد أنهكها التعب وأضناها ولذلك لم يكن يتوقع أنها ستصدع بأمره فورا وانما ترجئه إلى الصباح لأن المالميزون Malmaison (منزل نابليون) كان يبعد عن باريس بنحو اثنى عشر ميلا . فلما سمع وقع أقدامها على السلم هى وولديها ورآها تتأهب لركوب مركبتها أخذته الشفقة عليها وأسرع إلى فناء الدار ووجه خطابه إلى أوجين طالبا إليه أن يعود بأخته وأمه ليقضوا الليل وليتناولوا شيئاً من الطعام والشراب فصعدت جوزفين وهى تكاد تسقط من الجهد والاعياء وانطرحت على فراشها وهى توشك أن تكون فاقدة الصواب .

وتركها نابليون على هذه الحال يومين متتابعين وهو يضطرم شوقا إليها وحنقاً عليها . واحتشدت فى رأسه كل الذكريات الماضية واستعرض أيامه الأولى معها وما كان يلقاه

عندها من السعادة والهناء ثم تذكر الأيام التى قضاها بعيداً عنها فى مصر — وذكر پولين وكيف أنها على الرغم من كل حسنها وجمالها لا يمكن أن تضارع جوزفين فى سحرها وفتنتها وعاوده العطف على زوجته فقصد إلى حجرتها فى اليوم الثالث وفتح بابها رويداً رويداً فاذا هى جالسة إلى مائدة صغيرة نثرت عليها رسائله التى كان يبعث بهـــا اليها من مصر وقد اعتمدت رأسها بيديها وفى قلبها جيش من الأحزان والأكدار فتقدم نحوها فى تردد ورفق ثم ناداها بقوله :

— جوزفين !

فأجفلت ورفعت عينيها المتقرحتين قائلة بصوت مختنق .

— ياعزيزى ! Mon ami

فهزت نبرات صوتها قلب نابليون ووقع هـذا النداء القديم المحبوب موقعـــاً مؤثراً من نفسه فمد اليها ذراعيه . فطرحت نفسها بين يديه وألقت رأسها الموجع على صدره وغلب عليها التأثر فأجهشت بالبكاء ! .

✿ ✿ ✿

ودار بينهما عتاب تصافيا من بعده وفى اليوم التالى أطلعته جوزفين على ديونها وكانت تتجاوز عشرات الألوف من الفرنكات فدفعها راضياً ولم يفه بكلمة اعتراض!.

الباب الرابع

نابليون رئيس حكومة فرنسا

الفصل الأول

حالة فرنسا فى غياب بونابرت

لما سافر نابليون إلى مصر حسبت حكومة (الديركتوار) أن الجو خلا لها من منافسها الخطر . وأنها أصبحت تستطيع أن تسترد نفوذها وتثبت شخصيتها بتصرفاتها النافعة وأعمالها الرشيدة المفيدة .

وكانت السياسة التى رسمها رجال الثورة بفرنسا والتى تولت حكومة الديركتوار تنفيذها هى نشر المبادىء الديمقراطية ونظام الحكم الجمهورى فى سائر أنحاء أوربا لتكون فرنسا بحكم سيادة هذا النظام صاحبة النفوذ على دول هذه القارة جميعها . وهذه السياسة نفسهاهى التى اتبعها نابليون فى خلال الحملة الايطالية . وكان من آثارها انشاء جمهوريتى شمال إيطاليا .

وقد حدث بعد ذلك أن نزاعا قام فى ولايات البابا بين الحزب الوطنى فيها وبين البابا بيوس السادس Pious VI (ديسمبر سنة ١٧٩٧) وقتل بسبب هذا النزاع ضابط فرنسى

فى السفارة الفرنسية . فبادرت الحكومة بتسيير حملة إلى روما أسقطت البابا عن عرشه وقلبت حكومة البابوية إلى حكومة جمهورية وجعلت هذه الحكومة الجديدة تحت حماية فرنسا (١٥ فبراير سنة ١٧٩٨) .

وكانت سويسرا أيضاً بحكم متاخمتها لفرنسا قد تأثرت بمبادىء الثورة وقام أهلها بفتنة ضد حكومتهم يسعون إلى قلبها وإقامة حكومة جمهورية فيها كحكومة فرنسا فانتهزت الديركتوار هذه الفرصة واحتلت البلاد السويسرية وقلبت نظامها الاتحادى إلى نظام جمهورى (ابريل سنة ١٧٩٨) كما فعلت فى روما .

ومذ رحل نابليون إلى مصر فى مايو سنة ١٧٩٨ لم تفتأ حكومة الديركتوار تتحين الفرص لتوسيع دائرة نفوذها فنجحت بادىء الأمر فى بسط سلطانها على بعض الولايات الايطالية ولكنها لم يكن من السهل عليها بعد ذلك الاحتفاظ بفتوحاتها وذلك لعدم كفاية مديريها وعجزهم عن حفظ النظام فى فرنسا نفسها فضلا عن إدارة فتوحاتها الخارجية

وكانت الدول الأوربية العظمى تستنكر سياسة فرنسا ، ولا تنظر بعين الارتياح إلى ما تصدت لنشره من المبادىء

الديمقراطية ، فتألف ضدها حلف جديد من الروسيا ، وانجلترا ، والنمسا ، وتركيا ، ونابولى ، والبرتقال[1] . واتفق المتحالفون على أن يطبقوا على حدود فرنسا من كل صوب ليخرجوا منها ما حشر فى دائرتها غصباً . فنجحوا فى ذلك الى حد بعيد ، وهزمت جيوش فرنسا فى النمسا وفى ايطاليا . . . وكانت أخبار هذه الهزائم هى التى دسها السير سدنى سميث إلى نابليون وهو فى مصر ليجذبه بها إلى فرنسا ، وكان بعد ذلك ما سبق لنا بيانه من ركوب نابليون البحر فى جماعة من صحابه وعودته إلى أوربا لينظر ماذا فعلت الحكومة بتراث المجد الذى كسبه لفرنسا هو وجنوده الشجعان على ضفاف نهر البو وفى معاهدة كامبو فورميو

على أن الحالة فى فرنسا كانت أسوأ مما صورته

---

(١) كان لكل واحدة من هذه الدول سبب خاص للاشتراك فى هذا التحالف الدولى الثانى . فالروسيا كانت غير مرتاحة لانتزاع الفرنسيين لمالطا من يد الفرسان الذين كانوا تحت حماية القيصر . وانجلترا كانت ترغب فى اخراج الفرنسيين من مصر . والنمسا لم تنظر بعين الارتياح الى احتلال الجيوش الفرنسية لسويسرا . ونابلى لم ترض كذلك عن انشاء جمهورية تجاورها بدل امارة البابا . والبرتقال كانت حليفة لانجلترا . وكانت تركيا تعتبر دخول الفرنسيين فى مصر اعتداء عليها .

الجرائد التى استفزت عواطف نابليون فى خيمته المنعزلة عند أبى قير فان حالة الأمن كانت من الفوضى بحيث لم يعد يأمن معها تاجر على تجارته ولا مالك على ملكه ، إذ كانت تنهب الأموال ويسطو اللصوص على المتاجر جهارا نهارا ، ولم يكن يمر يوم فى باريس من غير أن تتناقل الأندية فيه خبر مقتل بعض الصيارفة ونهب أموالهم ، أو خبر سرقة جديدة جريئة لمخزن بعض الجوهريين أو لصندوق دار من دور التجارة الكبيرة ، وكثر اقتحام اللصوص للاسطبلات ودور الذخيرة لتزويد أنفسهم بالخيل والبارود ، وانتشرت عصابات الشر فى كل مكان ، وعجز البوليس عن مطاردتها وضبط المجرمين ، وانقطعت الطرق وتعطلت التجارة ، وساد البوار على الأسواق ، وكانت الثورة فى بدء حربها مع الاشراف وامتيازاتهم قد اكتسحت رجال الدين وكنائسهم وسخرت من طقوسهم ونبذت عقائدهم فأصبح الناس وليس لهم ضابط يضبطهم من دين أو خلق ، وراجت بينهم سوق الخلاعة والتهتك وارتد المجتمع الفرنسى الى حالة تشبه الهمجية الأولى وعمت الشكوى من هذه الحالة ولم يجد الشعب أمامه من يلقى عليه مسئولية هذه الفوضى غير الحكومة . فأبدى

تبرمه بها وسخطه عليها وبذلك سقطت هيئتها وضعفت كلمتها وزاد تخبطها وارتباكها وتطلع الناس من كل ناحية إلى يد قوية تنشلهم من هذه الوهدة التى ترددوا فيها ، وفى وسط هذه الضائقة ظهر نابليون فجأة فى فرنسا يحمل على رأسه أكاليل المجد التى صاغها لنفسه فى ميادين مصر والشام ، فطرح الشعب تحت قدمه آماله وآلامه واستقبله ذلك الاستقبال الفخم الذى أتينا على وصفه فى الباب السابق وأدرك نابليون أن الساعة ساعته فلم يتردد فى تلبية نداء الشعب وانتهاز هذه الفرصة لقلب الحكومة واستلام مقاليد الحكم

الفصل الثانى

انقلاب برومير[1]

ليس من الأمور الميسورة أن يقوم فرد أو جماعة بقلب نظام الحكم فى أى بلد من البلاد . وكثيرا ماتصحب حركات الانقلاب ثورة أو حرب داخلية تجر فى ذيلها كثيرا من الويلات .

وهناك شروط لابد من توفرها فى الحكومة التى يراد قلبها ، وفى الشعب الذى تحكمه هذه الحكومة لكى تتم حركة الانقلاب فى هدوء ومن غير اراقة للدماء ، فكلما كانت الحكومة ضعيفة مكروهة كان من السهل قلبها وكلما كان الشعب أميل الى التساهل والاستسلام كانت حركة الانقلاب مأمونة العاقبة — ولكن على الرغم من ضعف حكومة الديركتوار وقوة مركز نابليون ورغبة الشعب فى التخلص من تلك الحكومة الضعيفة فقد كانت أمام نابليون عقبات جمة يجب عليه تذليلها قبل أن يقدم على قلب تلك الحكومة

(١) برومير فى تقويم الثورة الفرنسية اسم الشهر الذى يوافق شهر نوفمبر

فى هدوء وسكينة وبدون أن يلتجىء إلى القوة المادية والسلاح .
وذلك أن رجال الديركتوار أنفسهم وهم الذين ما تزال السلطة التنفيذية فى يدهم كانوا بحكم مركزهم أول من يعترض طريق نابليون ويقف فى وجهه .

وكان فى فرنسا غير هؤلاء قواد ينافسون نابليون وينظرون بعين الريبة والتوجس إلى كل حركاته . ولا يمكن أن يرضوا بسيادته عليهم . وكان من وراء هؤلاء جنود يحبونهم ويطيعون أمرهم . وكان لابد لنابليون أن يتفادى التصادم مع هؤلاء إذا هو أراد أن يقلب الحكومة دون أن يثير حربا أهلية .

وكان هنــاك غير هؤلاء وأولئك رجال من ساسة فرنسا (كاليعاقبة مثلا) تتفق مصالحهم مع بقاء حكومة الديركتوار وهم لهذا السبب يقفون ولا شك موقف المعارضة من كل من يريد المساس بنظامها

وما دمنا فى معرض الـكلام عن الهيئات التى لا بد أن تقف فى طريق الانقلاب الذى أراد نابليون إحداثه فليس لنا أن ننسى ذكر مجلس النواب (مجلس الخمسمائة) ومجلس الشيوخ وهما عماد الدستور الذى اعتزم نابليون القضاء عليه

فكل هـــذه القوى كانت فى وجه نابليون . وكان هو أحرص من أن يدفع نفسه بينها قبل أن يرسم طريق خطواته خطوة خطوة ليضمن سلامة الوصول . فاعتزل الجماهير وعكف على دار الأكاديمية يشترك مع رجالها فى بحوثهم ويحاضرهم عن قناة السويس وحجر رشيد يريد من ذلك أن لا يلفت أنظار الأحزاب السياسية إلى شخصه حتى يطمئنوا اليه ويأمنوا جانبه ويتمكن هو فى ظل غفلتهم هذه من تدبير امره واحكام خططه :

وكان فى فرنسا فى ذلك العهد أحزاب ثلاثة :

١) — الحزب الملكى — وكان أعضاؤه يعملون فى الخفاء على إعادة الحكم فى فرنسا إلى أسرة بوربون التى قتل آخر ملوكها (لويس السادس عشر) أثناء ثورة سنة ١٧٨٩ .

٢) — حزب اليعقوبيين — وكان أعضاؤه من الديمقراطيين المتطرفين الذين يعملون على استبقاء الحكم فى يدالشعب . وكان باراس (أحد المديرين الخمسة) زعيم هذا الحزب

٣) — حزب الجمهوريين المعتدلين — وزعيمه الأب سيايس (أحد المديرين الخمسة أيضا) وكان أعضاؤه يرغبون

فى تعديل نظام الحكم لفشل الديركتوار وعجزها عن إدارة شئون البلاد .

وعلى الرغم من أن نابليون لم يكن يريد أن يشترك أحد معه فى تدبيراته إلا أنه أراد أن يستغل الحزب الأخير وزعيمه لتسهيل العمل الذى اعتزم القيام به . فاتصل بسيايس وتم الاتفاق بينهما على وجوب استقالة (المديرين) أولا حتى إذا سقط ركن من أركان الحكومة بسقوطهم تشكلت لجنة تنفيذية من ثلاثة قناصل موقتين تكون مهمتهم اعداد دستور جديد .

وهذه الفكرة — على بساطة ظاهرها — لم يكن من السهل تنفيذها دون التعرض لأخطار كثيرة ومقاومات عنيفة . فأن (المديرين) الخمسة مثلا وهم سيايس Siéyès وديكو Ducos وباراس Barras وجوهيه Gohier ومولان Moulins لم يكن من الميسور اقصاؤهم عن مراكزهم . وكان لا بد من اغراء بعضهم على الاستقالة بالمنى والوعود وحمل الآخرين على التخلى عن مناصبهم بالقوة عند اللزوم .

ولما كان كل ما حدث فى الانقلاب الذى نحن بصدده إنما هو فى الواقع ثمرة التدبيرات التى قام بها نابليون فلسنا

نحاول هنـــا شرح هذه التدبيرات ولـكنا نكتفى بعرض الحوادث كما وقعت وهى تنم من نفسها عن الاجراءات التى اتخذت فى سبيل تحقيقها .

١٨ برومير :

ففى فجر يوم ١٨ برومير (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) خرجت الفرق المعسكرة فى باريس من ثكناتها وهى تهز بموسيقاها أرجاء المدينة .

وفى الساعة السادسة صباحا من ذلك اليوم انعقد مجلس الشيوخ ــ ومنذ تلك الساعة بدأ يتوافد على منزل نابليون كبار الضباط الذين كانوا يلحون فى مقابلته والاجتماع به منذ عودته من مصر ــ وذلك بناء على موعد سابق بُلِّغ على حدة لكل ضابط من هؤلاء الضباط .

وفى الساعة الثامنة كان منزل نابليون يموج بالزائرين حتى لم يعد يتسع لهم جميعا فخرج بعضهم إلى الشارع يذهبون أمام بابه ويجيئون .

وفى تلك الساعة تقدم إلى مجلس الشيوخ اقتراح بطلب جعل اجتماع اليوم التالى فى ضاحية سان كلو St Cloud بدلا من باريس حيث يشاع أن مؤامرة تدبر فيها ضد أعضاء

المجلسين للتأثير عليهم والتدخل فى شئون الحكومة [١]. فتقرر ذلك كما تقرر تعيين نابليون بونابرت محافظا لباريس وقائدا لقوات الدفاع فيها .

وعقب صدور هذا القرار حمله رئيس مجلس الشيوخ بنفسه الى منزل نابليون فخرج به نابليون إلى شرفة فى منزله وأطل منها على ضيوفه ثم تلا عليهم ذلك القرار . وخاطبهم قائلا : « أيها السادة ! هل تعدون بمعاونتى فى العمل على انقاذ الجمهورية ؟ » .

فصاح الحاضرون فى صوت واحد قائلين : « نقسم لك ! نقسم لك ! » .

ونزل نابليون فأمر بأن يتلى هذا القرار على الجنود ليحيطوا به علما وركب هو فى وسط الضباط الذين كانوا بانتظاره وما كادوا يتجاوزون حدود المنزل حتى اتصلت بركابهم كوكبة من الفرسان يبلغ عددها نحو ألف وخمسمائة فارس كانوا ينتظرون هذه الساعة . فطلع هذا الموكب الفخم

---

(١) كان المقصود من الانتقال إلى سان كلو أن ينفرد نابليون بأعضاء المجلسين ليسهل عليه التأثير فيهم وليتم الانقلاب بهدوء بعيدا عن شغب باريس .

على أهل باريس فدهشوا له دهشة النائم للحلم الرائع الغريب .
وسار نابليون فى طريقه حتى بلغ سراى التويلرى وهناك تقدم الى مجلس الشيوخ ليحلف اليمين الخاصة بمنصبه الجديد .
وكان المديرون الخمسة فى تلك الساعة مجتمعين فى قصر اللوكسمبرج . فذهب اليهم من أبلغهم قرار مجلس الشيوخ . فتقدم الأب سيايس لدى سماع الخبر وقدم استقالته من الحكومة (طبقا للاتفاق السابق مع نابليون) وتبعه فى ذلك ديكو . أما باراس فأنه أرسل مع سكرتيره احتجاجا على ما حدث وذهب به السكرتير الى سراى التويلرى حيث يجتمع البرلمان فرآه نابليون وما كاد يطلع على الخطاب حتى انفجر فيه أمام الحاضرين قائلا :

لقد تركت فرنسا هادئة ظافرة . وهاءنا أجدها تنوء تحت أثقال الذل والانقسام . لقد تركت جيوشا جرارة منيعة الجانب . وها هى الآن من نجا فيها من الموت لم ينج من الهزيمة . أنى أسأل ماذا أصاب رجالى الذين عاونونى فى أعمالى ؟ إنهم ماتوا ! إنهم هلكوا فى ميدان البؤس والتعاسة ! إن من جر على البلاد مثل هذه الويلات لا ينبغى أن تمتد بعد اليوم يده إلى شئونها العامة ! إنه يجب أن ينسحب من الميدان

ويقضى بقية ايامه مطمورا تحت أطباق الاهمال والنسيان ! »

أما السكرتير المسكين فأنه كاد يتناثر تحت هذه العاصفة التى انفجرت فى وجهه وتسلل بين الناس منكس الرأس ثقيل الخطا — وأما باراس فأنه بادر الى الاستقالة حتى لايحيق به غضب نابليون . وبذلك سقطت أغلبيـة الهيئة إذ لم يبق من أعضائها إلا اثنان وهما جوهيه ومولان . غير أنهما أصرا على التمسك بمناصبهما إلى النهاية . بل لقد بلغ الأمر بجوهيه أن يواجه نابليون وينبهه إلى عدم الاخلال بواجباته نحو الديركتوار . فما كان من نابليون إلا أن أجابه بقوله : أى ديركتوار ؟ إن الديركتور الآن لا وجود لها والجمهورية فى خطر. ولا بد لنا من تخليصها . تلك إرادتى ! وقد استقال سيايس وديكو وباراس وأنى أنصح لكما أن لا تفكرا فى المقاومة .

غير أنهما بقيا على اصرارهما فأمر بهما نابليون فأعيدا إلى قصر اللوكسمبرج . وعزل كل منهما عن صاحبه فى غرفة خاصة به وبقى فيها (تحت الحفظ) .

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم اجتمع مجلس الخمسمائة . وأبلغ قرار مجلس الشيوخ الذى يقضى بأن ينعقد المجلسان فى صباح اليوم التالى بضاحية سان كلو . فلم ير

المجلس سبيلا للاعتراض لأن ذلك القرار كان من حق مجلس الشيوخ اتخاذه ما دامت تدعو إليه الظروف وعلى ذلك انفض الاجتماع . وتحققت نصف آمال نابليون بسقوط الهيئة التنفيذية من حكومة الديركتوار ، ولم يبق إلا أن ينعقد المجلسان فى صباح الغد ليقررا تشكيل الهيئة الجديدة التى يناط بها إعادة النظر فى الدستور

وأكب نابليون من فوره على تدبير شئون ذلك الغد فقرر أن يرابط الجنرال Lannes فى سراى التويلرى . وأن يسير الجنرال مورا Murat إلى سان كلو وأن يبقى الجنرال Moureau فى اللوكسمبرج لحراسة جوهيه ومولان . واقترح سيايس أن يأمر نابليون بألقاء القبض على زعماء اليعاقبة الذين تخشى معارضتهم فى جلسة الغد . ولكن نابليون استنكر منه هذا الاقتراح وأكد له رغبته فى أنه لن يعمل عملا إلا فى ظل القانون .

وفى وسط تلك الحوادث الخطيرة التى ازدحمت بها ساعات ذلك اليوم المشهود لم ينس نابليون زوجته جوزفين التى كانت تنتظر فى منزلها أخباره بغاية القلق وفارغ الصبر فكان يرسل اليها كل ساعة رسولا يخبرها بما تم وأخيرا عاد اليها بنفسه فى

ساعة متأخرة من الليل . وأعاد على مسامعها قصة النهار فباركته وزودته بدعواتها الصالحة ؟ ليصيب فى غده من التوفيق مثل ما أصاب فى يومه . ثم تركته يستجم نشاطه لمعارك اليوم التالى وانقلبت الى فراشها لتحلم بذلك الملك الواسع الذى سوف يتفتح لزوجها بعد يوم سان كلو . . .

١٩ برومير :

وفى صبيحة اليوم التالى خرج نابليون مبكرا على ظهر جواده ومن حوله حاشية ملكية فخمة وكان اليعاقبة قد تحفزوا لأبداء معارضتهم الشديدة لقرارات الأمس فما رأوا حدائق سان كلو تعج بالجنود حتى تعززت وساوسهم وأوجسوا شرا وصاحوا « ليسقط الطاغية ! » «الموت للظالم ! » « ليحي الدستور ! »

ولم يكد ينعقد المجلس حتى اقترح بعضهم أن يعيد الأعضاء من جديد حلف يمين الولاء للدستور واستحسن النواب هذا الاقتراح فساروا الى المنبر واحدا واحدا حتى لوسيان أخو نابليون رئيس المجلس وجددوا يمينهم التى أقسموها قديما للمحافظة على الدستور واحترام أحكامه واسترسل النواب بعد ذلك فى حماستهم فاقترح آخرون أن يقرر المجلس أن

نابليون (خارج على القانون) وكان مثل هذا القرار لا يصدر فى حق انسان إلا توطئة للحكم عليه بالأعدام .

فأمام هـذا الخطر الداهم اقتحم نابليون مجلس الشيوخ وصعد منبر الخطابة فيه ثم قال « أيها السادة ! انكم تعيشون هنـا على فوهة بركان ولقد رأيتم الخطر المحدق بالجمهورية فدعوتمونى الى معونتكم . فخففت اليكم . ولـكن هاءنا الآن تهاجمنى جيوش القذف والمفتريات واصبحت أسمع الناس يذكرون قيصر وكروموبل والاستبداد العسكرى! ونحن هنا تحدق بنـا المخاطر ويدلهم حولنا ليل النكبات . وقد سقطت حكومتنا واستقال مديرونا واستحكمت الفوضى فى مجلس الخمسمائة . وأرسل الرسل إلى باريس لأشعال نار الثورة فيها وود المشاغبون لو أعيدت محاكم الثورة — ولـكن ثقوا بى واطمئنوا إلى معونتى ومعونة رجالى . وعلم الله ما لى فى ذلك من مغنم لنفسى إلا أن أقوم بواجبى نحو الجمهورية وسلامتها . وأقسم لأحمِيَنَّ مبدأ الحرية والمساواة الذى ضحينا من أجله كل ما ضحينا ! »

وهنا صاح به من جانب الندوة صائح يقول « والدستور ! » فعقدت هذه الصدمة لسان نابليون برهة لأنه أغفل ذكر

الدستور عن قصد . ولكنه ما لبث أن توجه نحو المعترض وهو يقول — « الدستور ؟ أنتم ليس لديكم دستور ! فلقد هدمتموه يوم تركتم السلطه التنفيذية تتدخل فى شئون السلطة التشريعية ! وهدمتموه يوم تركتم السلطة التشريعية تعتدى على استقلال السلطة التنفيذية ! وهدمتموه يوم تركتم السلطتين تفتاتان على حقوق الشعب وسيادة الأمة بألغاء انتخابهم ! أنى أعجب لكم كيف تذكرون الدستور بعد أن صيرتموه مهزلة . كلكم يحتج به وليس فيكم من يرعى أصوله ويجرى على أحكامه ! »

وكان أعوان نابليون وأنصاره قد سرى الى نفوسهم قبل هذا الخطاب شيء من الضعف وخانت عزائمهم لاسيما بعد أن وصلت إلى علمهم أخبار مجلس الخمسمائة وتحفز أعضائه ضد نابليون ولكنهم بعد أن سمعوه وهو يحمل هذه الحملة على معارضيه . وبعد أن رأوا أثر كلامه فى النفوس عاودهم الأمل واستردوا أنفاسهم المعلقة فقاموا يؤيدونه ويعلنون ثقتهم به واعتمادهم عليه .

أما نابليون فأنه ما كاد يفرغ من كلامه فى مجلس الشيوخ حتى أسرع الى مجلس الخمسمائة يريد أن يحول بشخصه دون

تلك القرارات الخطرة التى كان يعمل أعداؤه على استصدارها وإبقاعه فى شباكها فقابله أوجيروفى الطريق فابتدره بقوله « لقد ألقيت بنفسك فى مأزق حرج ! » فأجابه نابليون : «إن الظروف على جسر أركولا كانت أحرج منها هنا . فاطمئن . ولسوف ترى فى مدى ساعة أن كل شىء قد تغير مجراه ! »

ودخل نابليون مجلس الخمسمائة واتجه فوراً إلى المنبر يريد أن يخطب الأعضاء ولكنهم ما كادوا يرونه فى وسط قاعتهم حتى هجموا عليه وتنافسوا فى الوصول اليه وإيقاع الأذى به غير أن جنوده لحسن الحظ كانوا أسبق منهم الى الاحاطة بجسمه وصيانته من خناجر خصومه . ولما رأوا أن الكلام متعذر عليه فى هذا الهياج وأن حياته نفسها فى خطر حملوه خارج القاعة وهو فاقد الصواب . وانقلب النواب فيما بينهم كالبحر الهائج يموج بعضهم فى بعض . وتعالت أصواتهم . واختل نظامهم . ولم يستطيع لوسيان بونابرت رئيس ندوتهم أن يحفظ نظام الجلسة . بل إنه لم يستطع دفع عدوانهم عليه باعتباره شقيق (الطاغية) . فانسل من بينهم وخرج الى الحديقة حيث لحق بأخيه وهناك وقف يخطب الجنود ويحضهم على دخول القاعة ، وطرد (الخونة) منها — أُجرَاء (وليم بت)

الذين اتخذهم أعداء الوطن سلاحا للقضاء على مجده وسيادته »
ولكن الجنود وقفوا ذاهلين ولم يستجيبوا لندائه فاختطف
سيفاً من بعض الضباط الذين كانوا إلى جانبه وصوبه نحو قلب
نابليون وقال « أقسم لأكونن أول من يغمد سيفه فى هذا الصدر
لو أن أخى اراد بالجمهورية سوءاً فاتبعونى تنقذ الوطن من
أعدائه . » وهنا ثارت حمية الجنود ودخلوا القاعة بسلاحهم
لطرد النواب منها ولم تمض على هذه الحملة دقيقتان حتى كان
آخر النواب يقفز من أقرب نافذة اليه يلتمس الفرار والنجاة
بنفسه من تلك الحراب .

ولم يكد يفيق نابليون من تلك الغاشية حتى عمل على جمع
فريق من النواب والشيوخ الموالين له وجعلهم يقررون أن
جنوده بأنقاذ الموقف قد استحقوا تقدير الوطن وأن السلطة
التنفيذية قد انتقلت من يد (المديرين) الخمسة إلى يد ثلاثة
(قناصل) هم نابليون وسيايس وديكو وتقرر فى نفس تلك
الجلسة أن تتألف لجنة من كل من المجلسين لتشترك مع القناصل
الثلاثة فى وضع الدستور الجديد[1] .

---

(١) كان نظام (القنصلية) من مبتكرات الجمهورية الرومانية وقد اقتبسه
رجال الانقلاب فى فرنسا تشبها بتلك الجمهورية العظيمة

وفى مساء ذلك اليوم التاريخى المشهود (١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩) راجت فى باريس اشاعة مؤداها أن حركة نابليون قد فشلت . فغلب الذعر على قلوب الناس وخافوا أن تعود سيطرة اليعقوبيين بعهد إرهاب جديد . ولكن أذيع فى الساعة التاسعة من تلك الليلة (بيان) أملاه نابليون فى سان كلو وشرح فيه النتائج التى أدت اليها حوادث النهار وأعلن فيه سقوط حكومة (الديركتوار) وقيام حكومة (القنصلية) فكان الناس يتهافتون على هذا البيان فى الطرقات ويقفون لاستماعه مستبشرين وقد عادت اليهم الطمأنينة لثقتهم بأنهم باتوا على باب عهد جديد — عهد يلقون فيه عن أكتافهم أعباء الحكم التى أثقلتهم عشر سنوات متوالية . ويسلمون فيه قيادهم إلى يدى ذلك البطل الذى فاقت انتصاراته السلمية انتصاراته فى ميادين الحروب . ويقرنون فيه نجمهم بنجمه الموفق السعيد .

٭٭٭

وظل نابليون مشغولا فى سان كلو حتى الساعة الثالثة صباحا ثم ركب عائداً الى باريس وإلى جواره كاتم سره Bourienne ولكنه لم يفه بكلمة واحدة طول الطريق .

وأخيراً وصل الى باريس وسار الى منزله «بشارع النصر»

فرأى جوزفين تنتظره فى نافذة غرفتها فما هو أن وقع نظرها على عربته حتى هرعت إليه فتلقاها بين ذراعيه وأخذ يقص عليها أخبار ذلك اليوم المشهود .

وبعد أن تبادلا التهانى على ما هيأ الله لهما من أسباب السعادة قصد نابليون إلى سريره فألقى عليه جسمه المتعب وهو يقول :

« طاب ليلك يا جوزفين ! . . . غدا ننام فى قصر اللوكسمبرج ! »

الفصل الثالث

دستور سنة ١٧٩٩

وقع الانقلاب الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق فى مساء ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩ وتقرر فى نفس المساء أن تتشكل لجنتان قوام كل واحدة منهما ٢٥ عضوا ينتخبون من بين أعضاء المجلسين التشريعيين لمعاونة القناصل فى وضع الدستور الجديد

وفى صبيحة اليوم التالى (١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩) التقى القناصل الثلاثة الموقتون فى قاعة بقصر اللوكسمبرج كان من بين أثاثها كرسى فخم عظيم فاتجه اليه نابليون بكل ثبات وقعد فيه . فما كان من « سيايس » إلا أن قال متذمراً .

— أيها السادة ! لمن سيكون هذا الكرسى ؟

فأجابه ديكو :

— « لبونابرت طبعا ! وها هو جالس عليه فعلا ! وانه للرجل الوحيد الذى يستطيع انقاذ الموقف ! »

وهنا تحرك نابليون بدوره قائلا :

— « حسنا أيها السادة . فلنبدأ الآن بالعمل ! »

وكان سيايس صاحب فكرة الدستور الجديد . وكان قد رسم نظامه على أساس، ألا تكون السلطة فيه بيد نابليون لأنه يخشى نفوذه ويعرف فيه هذا التهجم الذى لا يترك مجالا لمن معه أن يتقدم عليه . فلما وقعت تلك المشادة البسيطة على كرسى الرياسة . وانهزم فيها سيايس صبر نفسه بأنه سوف ينتقم لها متى جاء دور الكلام فى الدستور ونظامه . فانه كان قد وزع السلطة التنفيذية فيه بين قنصلين جعل لهما السلطة الفعلية فى إدارة شئون البلاد . وعلى رأسهما — « ناخب أعظم » — يتناول مرتبا قدره ٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنكا فى السنة . ويقيم فى قصر فرساى ليمثل الدولة تمثيلا سياسيا ويكون له من الملك أبهتـه ومنظره دون أن يكون له شىء من نفوذه وسلطته .

وكان سيايس موقنا فى نفسه بأن نابليون سوف يقبل مركز « الناخب الأعظم » راضيا مسرورا لأنه كان — فى رأيه — مصابا بداء العظمة وحب الظهور . وبذلك تئول السلطة اليه هو وصاحبه الآخر (ديكو) . ولـكنه لم يكن فى الواقع يعرف زميله الـكورسيكى حق المعرفة . فان نابليون

لم يكن يسعى وراء مثل هـــذه المظاهر التى كان يحاول أن يبهره بها سيايس ليلهيه عن السلطة الفعلية . . . وعلى عكس ذلك أتيحت الفرصة لنابليون ليعرف مقـدار نفس صاحبه ومبلغ عقليته فيعامله بما يستحق من الزراية والتحقير . وذلك أن سيايس فى نفس ذلك اليوم الذى اجتمع فيـه القناصل الثلاثة انتحى بنابليون جانبـا ثم أشار له إلى دولاب صغير وقال له :

— « انظر ! أترى ذلك الصندوق ؟ »

فظن نابليون أنه انما يدله على تحفة فنية مما اشتهرت بحيازته واقتنائه تلك القصور العتيقة — وبدأ يفحص الصندوق على هذا الأساس فاستدرك سيايس وقال له :

« انى انما أردت أن أقول لك انى لمـــــا كنت فى حكومة الأدارة الماضية رأيت مع زملائى (ومنهم ديكو) أن نستعد للطوارىء حتى لا نترك مناصبنا يوم نتركها ونحن فقراء فملأنا هذا الصندوق ذهبا وهو يحتوى الآن على نحو مليون فرنك . وحيث أن حكومة الأدارة قد آلت الينا فهذا المال لنا نحن ! »

فأدرك نابليون أين تتجه أنظار رفاقه وميولهم وما لبث أن قال :

— « أيها الساده لقد كنتما فى حكومة الادارة فدونكما هذا المال فاقتسماه إذ لا علم لى بأمره . ولئن وصل حديثه إلى سمعى فلن أتردد فى اعادته الى خزينة الدولة . وأنصح لكما أن تنجزا عملكما اليوم . فأن شمس الغد لن تطلع على المال فى هذا الصندوق ! »

وهكذا اختار كل واحد مركزه فى تلك الحكومة المؤقتة وظل نابليون بين زميله أرفع الجماعة نفسا وأليقهم لمنصب الزعامة والحكم .

* * *

وأخيراً عرض سيابس مشروعه الذى قضى نحو خمس سنوات فى صياغته وتهيئة صورته فما أسرع ما اعترض نابليون على توزيع العمل بين القناصل فيه قائلا .

— « هل تظن أن أقل الناس شأنا يقبل أن ينحط إلى حد قبول منصب كمنصب هذا « الناخب الأعظم » الذى لا عمل له إلا أن يرعى هذه الملايين من الفرنكات ليزداد لحمه وشحمه كما يفعل الخنزير ! »

ولم يكن نصيب بقية المشروع من نابليون إلا مثل هـذا الاستخفاف والتشنيع حتى أن سيايس آخر الأمر لم يملك إلا أن ينسحب من تلك الحكومة الموقتة فاستقال واستقال معـــه زميله ديكو . فأحل نابليون لحلهما كامبا سيريس Cambacérès وليبران Lebrun وصرح بأنه سيقوم بنفسه بأعدادمشروع جديديعرض للاستفتاءالعام بعدتهيئته وانجازه .

وبدأ نابليون النظام الجديد بجعل السلطة التنفيذية فى يد قنصل واحد يعاونه زميلان آخران بلقب قنصل أيضا على أن لا يكون لهما من الأمر الا أبداء رأى استشارى فيما يعرضه عليهما القنصل الأول من الشئون . ورشح نفسه هو لمنصب القنصل الأول .

ثم رشح كامباسيريس وليبران لمركزى القنصل الثـانى والثالث .

وجعل مدة بقاء القنصل فى مركزه عشر سنوات .

وكان سيايس قد اقترح فى مشروعه أن يجمع الناخبون فى فرنسـا (وعددهم نحو ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ ناخب) فينتخبون عشر عددهم لتتألف منهم قائمة الأعيـان الأولى أو « القائمة البلدية » . ويقوم هؤلاء بدورهم (وهم ٥٠٠٫٠٠٠ ناخب)

بانتخاب عشر عددهم (٥٠,٠٠٠) لتتألف منهم قائمة الأعيان الثانية أو « قائمة المقاطعة » . ثم تستخرج من هذه القائمة هيئة أعيان أصفى من الطبقات السابقة (عددها ٥,٠٠٠) لتتألف منها القائمه الثالثة أو « القائمة الوطنية » . ومن هذه الخمسة الآلاف تنتخب هيئة الحكومة جميعها من تنفيذية وتشريعية وقضائية — فاقتبس نابليون عن سايس هذا النظام حتى يحس الشعب بأنه ممثل فى حكومته أقوى تمثيل فيسبغ عليها ثقته الكاملة الشاملة .

وكانت السلطة التشريعية تتألف فى الدستور الجديد من أربعة مجالس

١) مجلس الدولة — Conseil d'Etat

٢) مجلس الشيوخ — Senat

٣) مجلس الشورى — Tribunat

٤) المجلس التشريعى — Corps Legislatif

فكان مجلس الدولة هو الذى يعاون القنصل الأول فى عمله . وكان فضلا عن ذلك يختص بوضع القوانين . وكان أمر انتخاب أعضائه موكولا الى القنصل الأول وحده .

أما مجلس الشيوخ فكان اختصاصه الاشراف على تنفيذ

الدستور وضمان بقائه . ونفاذ أحكامه . وكان عدد أعضائه ستين عضوا تنتخب الحكومة منهم ٣١ وهؤلاء ينتخبون الأقلية الباقية (٢٩ عضوا) وكان أعضاء هذا المجلس يمتازون على أعضاء المجالس الأخرى بأنهم يظلون فى العضوية طول مدة حياتهم .

وأما مجلس التريبونا فكان يتلقى القوانين من مجلس الدولة ليبحثها ويناقش نصوصها . ثم يرسلها بدوره الى المجلس التشريعى .

وفى المرحلة الأخيرة يحضر مندوبو مجلس الدولة إلى المجلس التشريعى للدفاع عن القوانين ويحضر مندوبو التريبونا لأبداء ملاحظاتهم عليها ويظل أعضاء المجلس التشريعى يستمعون للفريقين فى صمت مطبق ثم يقترعون سراً على رفض القوانين أو إصدارها من غير أن يكون لهم هم حق عرضها أو مناقشتها

ومن ذلك يرى القارىء أن أهم هذه المجالس جميعها هو مجلس الدولة لأنه هو وحده الذى كان له حق وضع القوانين والذى كان من اختصاصه أن يتبعها حتى يصدرها المجلس التشريعى الأخير .

فاذا ذكرنا ذلك وذكرنا معه أن القنصل الأول هو الذى

كان يعين بنفسه أعضاء هذا المجلس عرفنا أى تركيز ركزت به السلطة فى يد نابليون — على أن أوضح صورة تتمثل فيها سلطة القنصل الأول ربما كانت فى المادة ٤١ من ذلك الدستور واليك مضمونها :

٤١ — القنصل الأول يصدر القوانين — وله الحق المطلق فى تعيين أعضاء مجلس الدولة وعزلهم — والوزراء — والسفراء — وغيرهم من كبار الموظفين فى السلك السياسى الخارجى — وضباط الجيش والبحرية — وموظفى الأدارة والقضاء — وهو الذى يعين قضاة المحاكم الجنائية والمدنية — وقضاة المصالحات — وقضاة محكمة النقض . . . الخ . الخ » .

وقد انتهت لجنة الدستور من عملهـــا فى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ وصدر الدستور فى ١٥ ديسمبر من تلك السنة . وتحدد لعملية استفتاء الأمة فيه شهر يناير سنة ١٨٠٠ .

وقد أسفرت نتيجـة هذا الاستفتاء عن ظهور ١٥٦٢ صوتا ضد المشروع فى حين بلغ عدد الأصوات الموافقة عليه ٣٫٠١١٫٠٠٧

ولـكن نابليون لم يتمهل بعد أن صدر الدستور فى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ريثما يتم الاقتراع عليه فى موعده (يناير

سنة ١٨٠٠) بل شرع فى تنفيذه فعلا قبل حلول هذا الموعد بستة أسابيع .

ويقول المعارضون من مؤرخى نابليون أن هذا مضعف لقوة الاجماع الذى أبدته الأمة فى تصويتها العام على هذا النظام . أما المناصرون فأنهم يجعلون هـذا الاجتماع أساسا لشرعية مركز نابليون فى حكم فرنسا حيث أن الأمة نفسها هى التى رفعته إلى مركز السيادة عليها . و يدفعون به كل ما اتهم به من أنه متهجم على ملوك فرنسا الشرعيين غاصب لحقوقهم .

انتهى

الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

القنصليـــة

من ديسمبر سنة ١٧٩٩ — مايو ١٨٠٤

الباب الأول

فرنسا من ١٨٠٠ – ١٨٠٢

الفصل الأول – نابليون فى التويلرى .
« الثانى – السياسة الداخلية .
ا – ثورة لاڤنديه .
ب – النظام المالى .
حـ – النظام الأدارى .
ء – القانون .
هـ – الكونكوردا .
و – وسام الشرف .
ز – نابليون والمعارضة
« الثالث – السياسة الخارجية .
ا – التحالف الدولى الثانى .
ب – الحملة الأيطالية .
حـ – التحالف البحرى الشمالى .
ء – صلح أميان .
هـ – نابليون قنصل مدة حياته .



بونابرت — القنصل الأول

الفصل الأول

نابليون فى التويلرى

تم الأمر لنابليون فى فرنسا . وأصبح بحكم الدستور الجديد صاحب الكلمة العليا فى كافه شئونها . ورأى أن ينقل إقامته من قصر اللوكسمبرج إلى قصر التويلرى — ذلك القصر الفخم العتيق الذى كان يسكنه لويس السادس عشر ومارى أنتوانت والذى اقتحمه غوغاء باريس غير مرة فى مدة الثورة وعبثوا بكل ما فيه . فأعدت أفخر المعدات لاستقباله فيه وازدان القصر بما لم يزدن به فى عهد ملوك البربون من التحف والزخارف والتماثيل . وخصص الجناح الملكى لسكنى « القنصل الأول » بينما أعدت أجنحة أخرى أقل روعة وفخامة للقنصلين الآخرين . غير أن كامبا سيريس أبى بتاتاً أن يدخل فى ذلك القصر وقد أوضح وجهة نظره فى ذلك إلى زميله ليبران إذ قال له وهو يحاوره :

« نكون مخطئين ياصاحبي إذا نحن قبلنا أن نقيم فى سراى التويلرى ! أنها لا تصلح لى ولا تصلح لك . ولقد أجمعت

برأيي على أن لا أذهب شخصياً إلى هناك . فأن الجنرال بونابرت سوف لا يلبث أن يطلب الاقامة فيها وحده وعند ذلك يكون لا مفر لنا من الانسحاب . فخير لنا أن لا نذهب أصلا ! » .

ولـكن نابليون لم يكن همه أن يصل إلى ما وصل اليـه ليسعد بوجاهة المنصب وينعم بترف الاقامة فى التويلرى . ثم يلوى كشحه عن ذلك الشعب الفرنسى الفقير المضنى وعن أسواقه الـكاسدة وخزائنه الخاوية . وأنظمته الفاسدة البالية بل كان كل همه أن يحقق آمال ذلك الشعب فيـه فينتشله من تلك الأخطار الخارجية التى كانت تحدق به .

وسنخصص الفصل التالى للكلام على إصلاحات نابليون وسياسته الداخلية . ثم نعقب عليه بفصل آخر للـكلام على حروب القنصلية وسياسة القنصل الأول الخارجية .

الفصل الثانى

السياسة الداخلية

١ – ثورة لافنده :

لم تكن قد انتهت قلاقل الحزب الملكى بعد عند ما آلت إلى نابليون رياسة القنصلية . بل كان زعماؤه لايزالون منبثين فى أنحاء فرنسا يحاولون استنهاض الناس ضـــد هذا الحكم الجديد واعادة الميـاه إلى مجاريها الأولى . وكانت مقاطعة « لافنده » فى غرب فرنسا مهد هذه القلاقل ومعقل هؤلاء الزعماء . وكانت حكومة الادارة قد أفلست فى التفاهم معهم أو فى التغلب عليهم .

فلما آلت الأمور إلى نابليون أرسل إلى زعماء الملكيين فى تلك المقاطعة يدعوهم إلى زيارته بباريس بعـد أن أمنهم على أرواحهم فقبلوا الدعوة وسافروا اليه فلمـا اجتمع بهم أكد لهم نواياه فى العمل على إنقاذ فرنسا من وهدة الفوضى التى سقطت فيها وأنه جعل فرضاً على نفسه إعادة النظام اليها

وتوفير أسباب السعادة لأهلها ثم قال لهم بلهجته الفعالة المعهودة :

« فان كنتم تحاربون دفاعا عن أنفسكم فقد انتفى السبب الذى من أجله تحاربون لأنى سأتولى بنفسى الدفاع عنكم والمحافظة على حقوقكم . وان كنتم تحاربون لاستعادة العهد القديم فهذا اجماع الأمة أمامكم يحول دون التفكير فى سلوك هذا الطريق العقيم . وهل مما يشرف أقلية محدودة العدد أن تحاول إملاء إرادتها بقوة السلاح على أغلبية الأمة ؟ » .

وقد استطاع نابليون بهذه الكيفية أن يحمل هؤلاء الزعماء على أن يلقوا سلاحهم ويخلدوا إلى السكينة والهدوء. ففعلوا كلهم إلا واحداً منهم هو « جورج كادودال » . فانه كان رجلا عنيداً صلب الرأى لم يقبل أن يضع يده فى يد نابليون . بل طلب السفر من باريس إلى لندن. وهناك اتصل بأقطاب الملكية ودبر معهم تلك المؤامرة الجريئة التى حاول فيها اغتيال حياة نابليون فانتهت بالقبض عليه واعدامه كما سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد .

ب — النظام المالى :

كان أول ماوجه اليه نابليون التفاته تنظيم جباية الضرائب

حتى لا يبقى مجال النهب القديم مفتوحا للجباة . وحتى يضبط الحساب فلا يدفع الأهالى أكثر مما هو مطلوب منهم ولا يصل إلى خزينة الدولة أقل مما يجمع من الأهالى . وكانت نتيجة ضبط الحساب بهذه الصورة أن زادت الايرادات ١٨٥ مليون فرنكا عما كانت عليه منذ عشر سنوات وعادت الثقة المالية إلى الأسواق فساعد ذلك على تحسن الحالة الاقتصادية وانتعشت بخاصة أسعار الأوراق المالية التى كادت تفقد قيمتها بحكم تزعزع الثقة المالية فى البلاد . وأنشىء « بنك فرنسا » فى أوائل سنة ١٨٠٠ — وهو المصرف الحكومى الذى لا يزال إلى اليوم صاحب الامتياز الوحيد فى إصدار الأوراق المالية وفى حفظ ودائع الدولة وأموالها .

ح — النظام الادارى :

وكان نظام الادارة فى عهد الملوك السابقين نظاما مركزيا مرجعه حكومة باريس . بمعنى أن رجال الأدارة فى الأقاليم لم يكونوا يتصرفون إلا بما توحى به اليهم الادارة المركزية فى باريس . فلما قامت الثورة وسقطت تلك الحكومة وكل أمر الادارة فى الأقاليم الى مجالس محلية تكون لها كل السلطة فى ادارة تلك الأقاليم . وكانت هذه المجالس سر الفوضى التى

استحكمت فى فرنسا خلال الثورة لعدم وجود الرقابة المركزية الكافية عليها . ولفقـــد روح التجانس فى تصرفاتها تبعاً لاختلاف القوانين فى الأقاليم المختلفة .

فلما آلت السلطة إلى المؤتمر الوطنى كان النظام الأدارى الفرنسى يكاد يكون معدوما وكان المؤتمر يستعين بمندوبين يبعثهم من قبله لتنفيذ طلباته فى الأقاليم كلما دعت الحالة إلى ذلك . وأخيراً جاء نابليون فركز السلطة الأدارية كلها فى يده فكان هو الذى يعين العمدة كما كان يعين المدير . وكان المدير على رأس المقاطعة هو المنفذ الأعلى لأدارة الوزير المختص والقنصل الأول . وبذلك سرت روح الحكومة المركزية فى الأقاليم وأحس الناس للمرة الأولى بعـد عهد ملوك فرنسا العظام بنعمة السكينة والأمن وحسن النظام .

ء — القانوند

وكان لا بد لضمان النظـام فى فرنسا من قانون شامل ينطبق فى كافة أنحائها بدل مجموعة القوانين المختلفة الناقصة التى ظل يشكو منها أهل فرنسا عشرات السنين . وقد حدثت فى عهد الثورة الفرنسية محاولات كثيرة فى هذا السبيل . وتألفت

لجان من مشاهير رجال القانون لتحقيق هذه الغاية ولكنها انتهت كلها بوضع بحوث فى القانون . وجمع بعض الأحوال والعادات المرعية التى كانت نافذة فى معظم جهات فرنسا فى ذلك العهد .

فلما ولى الأمر نابليون شكل لجنتين من كبار المشرعين وعهد إليهما وضع القانون الذى اشتهر فيما بعد باسم « قانون نابليون » : وقد روجع هذا القانون بعد ذلك ثم عرض مشروعه على « مجلس الدولة » وتم إصداره والعمل به فى سنة ١٨٠٤ — وكان نابليون يشرف بنفسه على اجتماعات المجلس عند البحث فيه وعلى الرغم من بساطة معلوماته فى القانون فأنه كان يبدى من الملاحظات العملية ما رفع قيمة هذا القانون حتى أنه عاش إلى يومنا هذا فى فرنسا وفى غيرها من الدول الكثيرة التى أخذته بنصه أو التى نسجت على منواله فى صياغة قوانينها . وذلك بالنسبة لما امتاز به من الوضوح وما يسود نصوصه وأحكامه من روح العدل والأنصاف . ففى بلجيكا مثلا اقتبست الحكومة هذا القانون بنصه وما تزال تتعامل بمقتضاه . أما فى هولندا وايطاليا والبرتقال واسبانيا وجمهوريات جنوب أمريكا — وفى مصر نفسها — فقد كان

هذا القانون مرجع الفقهاء الذين كلفوا بالتشريع لتلك البلاد (١) . وقد جاء بعد هذا القانون المدنى — قانون المرافعات (الصادر فى سنة ١٨٠٦) — ثم القانون التجارى (سنة ١٨٠٧)

---

(١) وقد ذكر المتحاملون على نابليون أنه لم يكن صاحب فكرة وضع هذا القانون فلا فضل له فيه . وأن القانون نفسه ليس فيه ما يدعو إلى كل هذا التفاخر به فهو ناقص فى عدة مواضع إذ لم يذكر مثلا أى شىء عن نظام شركات التأمين ولم يحتو على شىء من التشريع الخاص بالعمال وغير ذلك . ويعجب الأنسان عند ما يسمع هذا الكلام من أناس محترمين لهم مكانتهم العلمية إذ أن نابليون لم يكن يستطيع أن يخترق حجب الغيب ليرى من ورائها ما سيستحدث من النظم فيعالجه فى قانونه مقدما . ثم إنه على الرغم من كونه لم يبتكر فكرة عمل القانون فهو على الأقل صاحب الفضل فى إنجازه وفى انتهاز الفرصة المناسبة لأخراجه واقامته على مبدأ التسامح والأنصاف واغفال كل ما أحدثته الثورة من النظم المتطرفة العارضة التى كان يراد إدماجها فيه فخرج القانون لذلك وهو أوضح وأنجح محاولة تشريعية تكفل للملكية الفردية كل قوتها . وللرابطة العائلية كل قدسيتها . وبحسبك أن تعلم أن مشرعى الثورة كانوا باسم الحرية يرون أن يكون تغيير الزوجة بسهولة تغيير الثوب فقضى نابليون على أمثال هذا المذهب واكتفى بتقرير حق الطلاق المدنى للزوج والزوجة على حد سواء . وبث فى قانونه عدة مبادىء أخرى كمبدأ إطاعة المرأة للرجل ومبدأ سلطة الوالد على أولاده وغير ذلك مما كان له أحسن الأثر فى ضبط المجتمع الفرنسى وتقوية مركز الأسرة فيه بعد أن كادت مبادىء الثورة تجمع به إلى نوع من الفوضى الاجتماعية لم تكن تجدى معها سعة الفتوح ولا كثرة الانتصارات .

ثم قانون تحقيق الجنايات (١٨٠٩) — وأخيراً قانون العقوبات (١٨١٠) .

هـ — الكونكوردا «Le Concordat» أو « الاتفاقية الدينية » :

وكان الناس منذ أيام الثورة الأولى قد قاموا على أشراف فرنسا ورجال الدين فيها فقتلوهم حيث وجدوهم بسبب ما كانوا يتمتعون به من الامتيازات التى أثقلت كاهل الشعب وملأت قلبه كراهية لهم وحقدا عليهم . واكتسحوا فى غضبهم على رجال الدين نفس الديانة المسيحية فهدموا معظم الكنائس وأذابوا أجراسها وصبوا نحاسها وحديدها مدافع تنفعهم فى ميدان القتال . وأغراهم بهدم الدين ورجاله ما وراء ذلك من مغانم الكنيسة وأموالها . ولم يبق على عهد الله فى كل فرنسا إلا أسر قليلة حافظت على ايمانها وصمدت لتلك المحن التى طمست على بصائر اخوانهم حتى قيض الله لهم نابليون وجعل على يديه انقاذهم مما كانوا فيه من فوضى الأخلاق والعقائد — أما نابليون فانه كان يرى أن الدين للدولة بمثابة الروح للجسد وكان كثيرا ما يقول :

« كيف يتوفر النظام فى الدولة من غير الدين — ان المجتمع لا يكون من غير تلك الفوارق البينة فى حظوظ الناس. وهذه الفوارق لا بقاء لها إلا فى ظل الدين. إن المعدم الفقير الذى يموت جوعا بجوار من أتخمته كثرة الطعام لا يمكنه الرضا بهذه الحال والسكوت عليها إلا فى ظل سلطة تقول له — « هكذا أراد الله ! » — ولا بد من وجود الغنى والفقير فى هذه الدنيا أما فى الآخرة فسيكون توزيع الحظوظ على أساس آخر يحقق عدل الله ويعوض البائس والمحروم . »

وكان نابليون من جانب آخر يحب أن تعود الى فرنسا تلك العناصر المحافظة التى فرت منها فى خلال الثورة ليحارب بها العناصر المتطرفة اليعقوبية التى كان يمقتها ويسخط عليها بسبب نزعاتها الهدامة ففتح الباب على مصراعيه أمام المهاجرين الذين يريدون العودة الى بلادهم على شريطة أن يقسموا يمين الولاء للدستور الجديد. فأقبل هؤلاء المهاجرون من أطراف أوربا زرافات يتلهفون شوقا إلى أوطانهم ونسوا فى نشوتهم كل ما كان بينهم وبين رجال الثورة من أحقاد. وانخرطوا فى سلك ذلك المجتمع الجديد الذى كان يدأب نابليون فى خلقه خلقا مكينا على تلك الانقاض الفاسدة التى

خلفتها الثورة . وشرع إلى جانب ذلك يفاوض البابا على إعادة المسيحية لفرنسا . وتم الاتفاق أخيراً (فى سنة ١٨٠١) على اعلان الكاثوليكية « دينا للغالبية فى فرنسا » . وأصبح القنصل الأول صاحب الحق فى تعيين القسس على أن يكون للبابا حق تقليدهم وظائفهم الدينية وتولت الدولة دفع مرتبات ضخمة لرجال الدين فى نظير أن يتنازل البابا عن كل حق يدعيه فى أملاك الكنيسة التى استولت عليها الأمة فى عهد الثورة .

على أنه لا بد من الأشارة هنا إلا أن نابليون لم يعمل على اعادة المسيحية إلى فرنسا ولاء منه للبابا أو حبا منه فى الكاثوليكية فأنه قد نفى ذلك بنفسه إذ قال لبعض رفاقه وقد خرج معه ذات ليلة للتنزه فى الهواء الطلق وسط الحدائق والحقول .

« كنت هنا فى يوم الأحد الماضى أسير وحدى والطبيعة ساكنة فقرعت أذنى بجأة صلصلة ناقوس كنيسة رويل Ruel[1] فحركت شجنى والانسان أسير عادته وتربيته الأولى

---

(١) كانت لاتزال بفرنسا بعض الكنائس عقب الثورة . وكان يدير هذه الكنائس قسس تدفع لهم انجلترا مرتباتهم إذ لم تعترف بهم حكومة

فقلت فى نفسى ما أروع هـذا الصوت فى نفوس المتدينين ! لعمرى كيف يعلل فلاسفتكم وذوو الرأى فيكم هذه الظاهرة .. قد يقولون إنى كاثوليكى ولـكنى لست شيئاً من هـذا . فلقد كنت مسلماً فى مصر وسأكون كاثوليكيا هنا جرياً وراء مصلحة الأمة . فأنى لا أعتقد فى الأديان — ولـكنى أعتقد فى فكرة وجود الله » . ثم أشار بيـده إلى السماء قائلا : « الذى خلق كل هذه الأشياء ! »

و) وسام فرقة الشرف « Legion d'honneur »

كانت الثورة قد قضت على كافة الامتيازات . وجعلت « المساواة » شعار أهل فرنسا جميعاً . إذ لا يجب أن يكون بين سكانها شريف ووضيع . وأمير وحقير . وكونت ومسيو . ولـكن يجب أن يقف الجميع فى صف واحد وأن يجمع بين مختلف أفرادهم لقب واحد هو لقب «مواطن» : فالرئيس — « حضرة المواطن الرئيس » — والمرءوس كذلك « حضرة المواطن المرءوس ! »

فرنسا . وكان من غايات نابليون فى الاتفاق مع البابا القضاء على نفوذ هؤلاء القسس حتى لا يكون لانجلترا إصبع فى شئون الفرنسيين تحركه فتثير به الشعب فى أنحاء البلاد .

ولكن نابليون رأى أن ذلك سوف يقتل فى نفوس الشعب روح الحماسة التى تثيرها المنافسة ويزكيها التفاضل. فود لو أنشأ نظاما يكون من شأنه أن يميز المجيد المتفوق فى عمله على غيره من عامة الدهماء ليكون فى ذلك جزاء المجتهد على إجتهاده واستنهاض لهمم غيره من القاعدين. فابتكر لذلك فكرة وسام أسماه « وسام فرقة الشرف » .

ولكن هذه الفرقة لقيت فى بادىء الأمر معارضة عنيفة من أعضاء المجلس فحمل عليها بعضهم قائلا إنها تذهب بمبدأ المساواة الذى اتخذته الدولة شعاراً لها فقال نابليون :

« إن الدول المجاورة لنا تمنح ألقابها وأوسمتها لمن شرف مولده فتعتدى بذلك على مبدأ المساواة ولكنى سوف لا أمنح هذا الوسام إلا لمن شرف عمله فأكون بذلك قد وضعت الحق فى نصابه. وسيكون الوسام فوق ذلك شخصياً يحمله صاحبه حال حياته ولا يرثه أبناؤه بعد وفاته. »

واعترض آخرون قائلين أن الأوسمة ليست إلا صغائر لاقيمة لها! فكان جواب نابليون: « نعم أنها صغائر. ولكن هذه الصغائر هى التى تسلس قياد الرجال. وتخلق الزعماء والأبطال! إن هذه الشارات تستعمل فى كل البلاد. فلتستعمل

كذلك فى فرنسا حتى تكون على الأقل عاملا جديداً يقرب ما بين هذه البلاد وبقية دول أوربا ! »

واقترح آخرون أن يكون هذا الوسام مقصوراً على رجال الجيش فقال نابليون : « بل هذا هو الذى لا يجب أن يكون . فالكفايات كلها أخوة . وشجاعة رئيس المؤتمر فى مواجهته للغوغاء هى نفس شجاعة كليبر فى اقتحامه أسوار حصن عكا . على أن هؤلاء الجنود ليسوا إلا فرقة مقاتلة أما الجيش الحقيق فهو الأمة ! فليكن تكريمنا للنبوغ فى ذاته ولنمجد كل من استحق التمجيد بعمله وحسن صفاته ! »

ز) نابليون والمعارضة :

بعد أن آلت السلطة إلى يد نابليون كان رأسه هو الأداة الوحيدة التى تفكر لكل فرنسا . وعن هذا الرأس وحده صدرت كل تلك الاصلاحات الداخلية التى تناولناها فى الصفحات السابقة والتى جنت فرنسا من ورائها أطيب الثمرات . ولقد كان نابليون على جانب عظيم من الثقة برأسه هذا حتى أنه كان كلما اختلف مع أحد رجال حكومته فى رأى من الآراء قرع رأسه بكفه قائلا : إن هذا الرأس لأداة أنفع لى من

كل من يحيط بى ممن يدعون الدربة ووفرة التجارب ! »

وكان طبيعيا على من يحس من نفسه هذا الاحساس أن لا يطيق المعارضة أيا كانت صورتها . وعلى لسان أى كان من أهل فرنسا . وكانت سياسة نابليون الداخلية التى اعتزم أن يسير عليها هى أن يسلك بفرنسا طريقاً وسطاً لا هو طريق الملكية ولا هو طريق اليعقوبية . فكان طبيعياً أيضاً أن يعاديه الفريقان . إذ كان كل واحد منهما يمنى نفسه بأن يشايعه نابليون فتتحقق بمعاونته آماله وأحلامه . فلما رأوه يجانبهما معاً ويسير فى طريقه الخاصة اندفعوا يعترضون هذا الطريق واندفع هو يطارد الفريقين بطرقه المعهودة حتى لم يبق لواحد منهما على ظهر فرنسا ظل .

وكانت الصحافة أول ما التجأ اليه المعارضون . فكان أول ما أجاب به نابليون على هذه المعارضة أن أصدر فى ١٧ يناير سنة ١٨٠٠ أمراً قنصلياً بتعطيل جميع الصحف السياسية ماعدا ١٣ صحيفة كانت تنطق بلسان الحكومة وتدافع عن سياستها . وكان نابليون يحرر بعضها شخصياً . ولعل أروع نضال وقع فى هذا المضمار ذلك الذى حدث بين نابليون « ومدام دى ستايل » « Madame de Staël » — من أشهر وأنبغ من أنجبت

فرنسا من الكاتبات وزعيمة الداعين والداعيات إلى الحرية في عصر نابليون فأنها بعد أن قضت ردحا من الزمن تعجب ببسالة نابليون وعبقريته وتمجد نبوغه وبطولته انقلبت عليه فجأة بعد إعلان نظام القنصلية وبعد أن تبينت (أن «استبداد الحرية» الذى عم فرنسا فى عهد الأرهاب لم ينته على يد نابليون إلا ليحل محله استبداد آخر هو « استبداد النظام ») فأصبحت لذلك فى مقدمة المناوئين له والمعترضين على سياسته . وكان لمدام دى ستايل من المنزلة فى كل فرنسا ما جعل نابليون يهتم بها اهتماما خاصا دون معارضيه . وتصادف أن أخرجت مدام دى ستايل رواية ملأتها غمزاً وتلميحاً وتهكما على نابليون وعلى حكمه . فلم يطق نابليون بعد ذلك صبراً . وكانت مدام دى ستايل إذ ذاك فى سويسرا فأرسل اليها من يبلغها أن عودتها الى باريس أمراً غير مرغوب فيه . وكأنما استفزها هذا التصرف من جانب نابليون إلى تحديه بالعودة السريعة إلى فرنسا . فما هو أن حلت بمنزلها ونما علم ذلك إلى نابليون حتى صمم على إبعادها عن فرنسا . فبعث إليها رسولا ضابطاً لبقاً مهذباً أختير خاصة للقيام بهذه المهمة على أكمل وجه ولمرافقتها إلى الحدود . وقام الضابط فعلا بمهمته خير قيام

فكان كثير المجاملة لها . وساعدها بكل لطف فى تحضير لوازم السفر ثم جلس معها فى العربة وكان من تلطفه معها أن ظل يحدثها عن مؤلفاتها ويبدى لها إعجابه بكتاباتها . فأجابته والدموع تترقرق من عينيها :

— « واأســـفاه ياسيدى ! أنظر إلى أين يؤدى بالمرأة ذكاؤها وأدبها ! »

ومنذ تلك اللحظة بدأت الحرب عواناً بين مدام دى ستايل ونابليون حتى أصبح مقرها فى سويسرا ندوة الناقمين عليه وعلى حكمه غير أن نابليون لم يضن عليها بأرصاده وعيونه حتى يحصر نارهم فى مكانها لتأكل نفسها دون أن تتصل بما يجاورها . ولقد بلغ من تضييق نابليون على غريمته أنه كان يتصدى كل من يعلم أنه على أدنى اتصال بها . ومن ثم أخذ يهجرها أصحابها خوفا على أنفسهم . فلم تر المسكينة أمامها إلا أن تلجأ إلى الروسيا (سنة ١٨١٢) وهى إذ ذاك الدولة الوحيدة التى كانت غير خاضعة لنفوذ نابليون فى القارة الأوربية . واتصلت هناك بالقيصر وبغيره من خصوم نابليون الذين لم يجدوا لأنفسهم منجاة من سطوته إلا فى ساحات بطرسبرج وأقامت بينهم حيناً من الدهر تتعزى بصحبتهم وتأتنس بميولهم

نحو خصمها غير أنها ما لبثت أن خامرها شيء من الندم بعد أن سقط نابليون ودخل الحلفاء باريس لأنها أنما كانت تحارب نابليون طلباً لحرية فرنسا ولكنها أدركت شيئاً فشيئاً أن أعداء نابليون الذين عاشت بينهم كانوا فى الوقت نفسه أعداء فرنسا وطنها العزيز وأنها بمساعدتهم فى مناوأة نابليون ومحاربته إنما كانت تسعى لاضعاف فرنسا وإذلالها .

ولم يكن أمام المعـارضة بعد أن كمت أفواه الصحافة فى فرنسا إلا سلوك إحدى طريقين . فأما المعارضة بالطريق القانونى بمقاومة سلطة القنصل فى الهيئـــة التشريعية . وإما المعارضة بطريق المؤامرات .

غير أن عناصر المعارضة ما كادت تلوح لنابليون فى الهيئة التشريعية حتى عمل على التخلص منها فورا . وذلك أن جماعة من الأعضاء كان من المقرر سقوطهم كل عام واستبدال غيرهم بهم ولم يكن فى الدستور ما ينص على طريقة اخراج اؤلئك الأعضاء فأراد نابليون أن ينتفع من هذا النقص فى التشريع للتخلص من معارضيه وذلك بأن يجعل لمجلس الشيوخ الحق فى تعيين الأعضـاء الذين تسقط عضويتهم كل عام وهكذا بدأت « عملية التطهير » ووقع فى الفخ القانونى رجال المعارضة

الذين أراد نابليون أن لا يقفوا باعتراضاتهم فى سبيل تنفيذ سياسته .

بقى من طرق المعارضة كلها طريق المؤامرات وكان ذلك أخطر الطرق بطبيعته لأنه لم يكن يعمل على ابداء رأى مخالف أو تفنيد خطة موضوعة ولكنه يعمل على اغتيال حياة نابليون والخلاص منه جمله واحدة . وقد واجه نابليون فى هذا السبيل أخطارا كثيرة كان ينجو فى كل واحد منها بأعجوبة تشهد بأن الأجل المكتوب لا يستطيع الناس أن يستقدموه ساعة أو يستأخروه . وكانت وسيلة نابليون فى مقاومة هذا الخطر المحدق به أن يستكثر حوله من الجواسيس لتسقط الأخبار ومراقبة المعارضين حتى لقد تضخمت فى عهد دكتاتوريته وزارة البوليس واصبح لها من بين وزاراته أعظم شأن ، وقد وفق إلى رجل داهية (هو الوزير فوشيه Fouché) بارع فى أساليب التلصص والتجسس فقلده هذه الوزارة ونجح هذا الرجل بفضل يقظته وسعة حيلته فى تصيد هؤلاء المتآمرين زُمَراً زُمَراً على حدود فرنسا الشرقية وشواطئها الشمالية حيث كان يبعث بهم المعسكر الدائم المقيم فى لندرة .

ولعل أخطر المؤامرات شأناً تلك التى قام بها الملكيون بزعامة « جورج كادودال » لأعادة « كونت دارتوا » إلى عرش فرنسا بعد قتل القنصل الأول . ولما كان تاريخ هذه المؤامرة يرجع الى سنة ١٨٠٤ فأننا سنعود للكلام عليها فى موضعها من الباب التالى .

الفصل الثالث

السياسة الخارجيـــة

١ — تمهيد : (التحالف الدولى الثانى)

ذكرنا فى الفصل الأول من الباب الرابع من الكتاب الثانى أن ثورة قامت فى روما ضد البابا . وأن بعض الضباط الفرنسيين قتل فى خلالها . وكان هذا سببا فى تدخل فرنسا . فسار جيشها إلى روما ولما امتنع البابا عن النزول عن عرشه ألقى القبض عليه وحمل إلى فرنسا حيث قضى نحبه فى العام التالى ثم أقيمت فى روما جمهورية على نسق الجمهورية الفرنسية عملا بمبدأ « الديركتوار » القاضى بنشر النظام الجمهورى والمبادىء الديمقراطية فى طول أوربا وعرضها .

وذكرنا أيضا أن ثورة أخرى قامت فى سويسرا انتهت بما انتهت إليه ثورة روما من تحويل حكومة سويسرا إلى جمهورية على طراز الجمهورية الفرنسية .

وذكرنا أن هذا التوسع من جانب حكومة فرنسا لم ترتح

إليه الدول الأوربية وكان سببا فى قيام انجلترا بتأليف حلف جديد من :

١) الروسيا — لتدخل فرنسا فى شئون الشرق وانتزاعها مالطة من يد الفرسان الذين كانوا فى حماية القيصر .

٢) تركيا — لدخول فرنسا فى مصر والشام .

٣) النمسا — لأنها كانت موتورة من فرنسا بسبب الحروب الماضية .

٤) نابولى — لتدخل فرنسا فى ولايات البابا المتاخمة لها .

وكان على عرش نابولى فى سنة ١٧٩٨ ملك يدعى فردناند الرابع وملكة تدعى كارولين . وكانت كارولين هذه أخت مارى أنتوانت التى قامت الثورة فى فرنسا بسببها إلى حد كبير والتى أكلتها الثورة فيما أكلت من ضحاياها العديدين . فما هو أن دخلت نابولى فى الحلف الجديد حتى تحركت عاطفة الانتقام الكامنة فى صدر كارولين وأخذت تلح على زوجها فى أن يكون أول المهاجمين لفرنسا . وشجعها على ذلك وصول نلسون أميرال البحر الانجليزى إلى نابولى فى ذلك الحين عائدا من مصر بعد انتصاره الباهر فى خليج أبى قير . وقد نجحت فعلا فى تسيير جيش من نابولى إلى روما تراجعت أمامه

الحامية الفرنسية هناك فى بادىء الأمر ولكنها لم تلبث أن كرت على النابوليين فردتهم على أعقابهم وعم الفزع أهل نابولى عموما حتى أن الأسرة المالكة بما فيها كارولين وفردناند بادر أفرادها بالفرار إلى مراكب نلسون الراسية فى مياههم. ولم يحل شهر يناير من سنة ١٧٩٩ حتى كانت حكومة نابولى قد استحالت إلى جمهورية وحتى كانت الجيوش الفرنسية قد أفلحت فى اسقاط ملكى سردينيا وتسكانيا عن عرشيهما واحتلت بلادهما. واتسعت بذلك دائرة النفوذ الفرنسى فى إيطاليا.

بيد أن هذا النصر كان كل ما صادفته فرنسا من التوفيق فى هذه الحرب الواسعة التى شنتها عليها دول أوربا. بل قل إن هذا النصر نفسه كان سبب نكبة فرنسا فى تلك الحرب إذ استطالت به حدودها فأصبحت تمتد من هولندا شمالا الى أقصى إيطاليا جنوبا واستهدفت بذلك الى هجمات العدو المؤتلف الذى كان يحشر جيوشه اليها من أطراف أوربا.

وأخيراً وصل الجيش النمسوى الى الميدان وأفلح قائده (الارشيدوق شارل) فى كسر بعض الجيوش الفرنسية وحمل بعضها على التقهقر (مارس سنة ١٧٩٩). ووصل الجيش

الروسى أيضاً وأبلى قائده سواروف Suwarow أحسن بلاء فى مطاردة الجيوش الفرنسية من شمال إيطاليا وفى ايقاع الهزيمة فى صفوفهم المرة بعد المرة (أبريل سنة ١٧٩٩) . فأخليت معظم قلاع لمبارديا وما بقى منها فى أيدى الفرنسيين كان تحت الحصار .

ونشطت حكومة (الديركتوار) فسيرت جيشا جديدا لتخليص ايطاليا من براثن أعدائها وعقدت لواء هذا الجيش لقائد نابه من قوادها الموفقين وهو القائد Joubert الذى لم تلوث سمعته الحربية بعد هزيمة واحدة . فسار جوبير للقاء سواروف والتقى به فى نوفى (أغسطس سنة١٧٩٩) وأسفرت المعركة التى دامت ثلاثة أيام عن فلول الجيش الفرنسى تهيم على وجهها فى سهول ايطاليا بعد أن خلفت قائدها جثة هامدة فوق ميدان القتال .

وهكذا أفلتت إيطاليا من قبضة فرنسا وتسلل فرديناند وكارولين ومن معهما من مراكب نلسون عائدين إلى ناپولى فدخلوها واستووا على عرشها وعلى الرغم من تصريحهم الرسمى بأصدار عفو شامل عن كل من مالأ الفرنسيين من رعاياهم فقد ألقى القبض على نحو ثلاثة آلاف وطنى من نجا منهم

من عقوبة الأعدام لم ينج من عقوبة النفى . وبذلك نهض الدليل على أن بعض الملوك فى ثورتهم ليسوا أكظم غيظا ولا أعف انتقاما من نظرائهم اليعقوبيين .

أصيبت فرنسا بكل تلك الضربات ونكل بأنصارها والمنتمين اليها كل هذا التنكيل ولم يجد الشعب الفرنسى أمامه من يحمله المسئولية فى كل ما حدث إلا رجال الديركتوار فعم الاستياء منهم واشتد السخط على حكومتهم . وتحت تأثير هذا الشعور العام دبر سيايس مشروعه لقلب نظام الحكم . وكان يطمع فى بادىء الأمر أن يستند إلى ذراع الجنرال جوبير فى إحداث ذلك الانقلاب . فلما قتل جوبير فى نوفى لم ير سيايس ندحة عن التربص ريثما يقع اختياره على رجل غيره من رجال السيف الذين لا بد من معاونتهم فى إحداث الانقلاب .

وأخيراً وصل نابليون من مصر على الصورة التى وصفناها (اكتوبر سنة ١٧٩٩) وكان ما كان من اتصاله بسيايس وتوليه هو قلب الحكومة (فى نوفمبر سنة ١٧٩٩) واستيلائه بعد ذلك على مقاليدها .

وكانت ظروف فرنسا الحربية قد بدأت تتحسن قبيل

وصول نابليون فان جيوشها التى تراجعت (بقيادة جوردان) فى شمال سويسرا أمام الأرشيدوق شارل النمسوى — فى مارس سنة ١٧٩٩ .

والتى تقهقرت (بقيادة شيرو ثم مورو) فى شمال إيطاليا أمام سواروف الروسى — فى ابريل سنة ١٧٩٩ .

والتى انهزمت (وقتل قائدها جوبير) فى نوفى أمام سواروف أيضاً — فى أغسطس سنة ١٧٩٩ .

قد عادت فتقدمت (تحت قيادة ماسينا) فى زوريخ بسويسرا وانتصرت انتصاراً باهراً على كل من الجيوش النمسوية والروسية — فى سبتمبر سنة ١٧٩٩ .

وكذلك وفقت جيوشها (بقيادة برون) إلى طرد الجيش الانجليزى والروسى من هولندا — فى اكتوبر سنة ١٧٩٩

وترتب على هزيمة الروسيا فى زوريخ وفى هولندا أنها سحبت جيوشها من كافة الميادين ثم انسحبت هى نفسها من التحالف .

فأنت ترى من هذا البيان كيف أن نابليون لم يجد أمامه من هذا التحالف فى الواقع عند عودته الى أوربا إلا النمسا

وانجلترا لأن بقية الحلفاء (تركيا والبرتغال) لم يكونوا قد اشتركوا فعليا فى هذه الحرب .

وكان هو يود لو أتيح له أن ينصرف بكليته لتنظيم فرنسا والنهوض بأعباء الشعب وحاجاته والسـير به فى طريق الأصلاح الذى رسمه له . والذى كانت البلاد فى أشد الحاجة اليه بعد أن ضعضعتها سنى الثورة وقعدت بها ويلات الحروب الداخلية . فلم ير خيرا من أن يناشد هاتين الدولتين أن تضعا اسلحتهما وتعيـدا إلى أوروبا عامة وإلى فرنسا خاصة عهد السلام والهدوء الذى حرمتاه منذ سنين . وكانت طريقة التفاهم التى ارتأى نابليون أن يسلكها مع الدولتين هى أن يتوجه بالدعوة رأسا الى عاهل كل واحدة منهما .

فألى ملك الانجليز كتبت الرسالة الآتية :

« أرى ياصاحب الجلالة وأنا مقبل على منصبى الجديد الذى رفعتنى اليه رغبة الشعب الفرنسى أن أتقدم بنفسى الى جلالتكم بهذه الدعوة . فهل يجب أن تظل دائرة الى الأبد رحى هذه الحرب التى طحنت أوربا هـذه السنين الأربعة الأخيرة ؟ وهل انعدمت كل وسيلة فى سبيل التفاهم ؟ إنى لأعجب كيف أن أكبر دولتين مستنيرتين فى أوروبا تضحيان

فى سبيل مظاهر العظمة الجوفاء برخاء بلادهما ورفاهية شعبيهما وراحة العائلات فيهما وهنائها ! وكيف انهما لا تحسان بأن السلام هو أول ماتحتاج الشعوب اليه وأول ما يسعى الأبطال فى الحصول عليه . ان هـذه العواطف لا يمكن يا صاحب الجلالة أن تكون غريبة عن قلبكم الذى يحكم شعبا حرا ولا غاية له الا توفير أسباب السعادة له . . . »

وفى نفس اليوم الذى أرسل فيه نابليون هذا الكتاب إلى ملك الانجليز بعث بكتاب آخر من نوعه إلى امبراطور النمسا قال له فيه :

« لقد عدت إلى أوربا بعد أن غبت عنها ١٨ شهرا فوجدت حربا قائمة بين الجمهورية الفرنسية وبين جلالتكم . ولما كانت مظاهر العظمة الباطلة لاوزن لها عندى فان أول ما أرغب فيه أن أحقن هـذه الدماء التى توشك أن تراق . ولست أرى فيما حولى الا جيوشا جرارة ستضاعف عدد الضحايا الذين سقطوا فى الميدان بعد استئناف القتال على أن ما أعلمه علم اليقين عن خلق جلالتكم ليدلنى على ما هو مستتر فى قلبكم من الميول والرغبات . فلو انكم لبيتم نداء هذه الميول فانى أرى الطريق فسيحا أمام إمكان التوفيق بين الأمتين . »

ولم تجب النمسا على هذه الدعوة بأكثر من أنها لا تستطيع أن تتفاوض فى شأن الصلح الا بالاشتراك مع حليفتها انجلترا أما انجلترا فكان ردها أن الطريق الوحيد الذى تستطيع فرنسا أن تثبت به صدق رغبتها فى الصلح إنما هو إعادة أسرة بوربون إلى عرشها .

ولم يكن أبلغ ايلاما لنفوس الفرنسيين من ذلك الذى عرضته عليهم انجلترا لما ينطوى عليه ردها من روح التحكم فى شئونهم الداخلية وأراد نابليون أن يستغل هذا الرد لتقوية دعوته فى وجوب القضاء على انجلترا حتى تستقر الجمهورية فى فرنسا فنشر على النـــاس صور هذه المكاتبات ليفضح بها نوايا خصومه ثم أخذ يعد عدته للنزول إلى ميـدان القتال من جديد .

ب — الحملة الايطالية الثانية :

كانت الروسيا قد دخلت فى « التحالف الثـانى » على أساس العمل المشترك لكسر فرنسا . ولـكن تبين لها أثناء القتال أن النمســا تريد أن تسير الحرب لحسابها الخاص فكل ما كان يؤدى إلى اعادة نفوذها فى ايطاليا فهى توافق عليه .

وكل ما تجاوز ذلك تعترضه وتقف فى سبيله . فلما انقض سواروف الروسى على الجيوش الفرنسية فى شمالى ايطاليا وأجلاهم عنها تركته النمسا يتصرف بملء حريته حتى إذا ما انتهى من هذا العمل وأراد أن يتجاوز حدود ايطاليا لغزو فرنسا نفسها دفعت النمسا غيرتها منه الى أن تعترض طريقه وتصدر تعليماتها إليه بأن يرتد إلى سويسرا لنجدة زميله الذى كان يتقهقر أمام ماسينا الفرنسى بجوار زوريخ .

وعبر الرجل جبال الألب عند أشق مرتفعاتها وأوعرها حتى إذا بلغ سويسرا وجد أن ماسينا قد قضى بالفعل على جيش زميله (كورساكوف) ولم يعد فى ذلك الميدان مجال للقتال فعاد خائبا ولاقى فى اجتياز جبال الألب عند عودته أهول وأقسى مما لاقى فى عبورها عند ذهابه وداخله الشك فى حسن نوايا النمسويين واخلاصهم فى التعاون معه فتخلى عن جيشه . وعاد إلى بلاده ممتعضا من تصرف حلفائه . وكان انسحابه من القتال سببا فى انسحاب القيصر نفسه من التحالف كما سبق لنا البيان .

وخلا الجو للنمسا — فجهزت جيشين عظيمين سيرت أحدهما بقيادة ميلاس Melas إلى جنوا حيث كان ماسينا

Massèna (الفرنسى) ودفعت الآخر بقيادة كراى Kray إلى حدود نهر الرين لملاقاة جيش مورو .

أما نابليون فانه قد رسم خطته كما يأتى :

— يسير مورو من فرنسا فيعبر نهر الرين ثم يواجه جيش كراى ويضطره إلى التراجع على أن لا يتجاوز فى مطاردته أُلْمْ Ulm .

— ويبقى ماسينا عنـــد جنوا يدافع عنها النمساويين ما استطاع ليشغل جيشهم عن التفكير فى الانضمام إلى جيش كراى .

— وقرر نابليون أن ينقض هو (على رأس جيش ثالث) على مؤخرة جيش كراى وجناحه الأيسر ريثما يكون هـذا مشغولا بمواجهة مورو وبذلك ينقطع خط الرجعـة على النمساويين وينفتح الطريق إلى فينا فيملى على أمبراطورها شروط الصلح .

غير أن عوامل شخصية[١] بين مورو ونابليون جعلت

---

(١) كانت مدام مورو تغار من جوزفين غيرة قاتلة لأن جوزفين كانت السيدة الأولى فى فرنسا بحكم اتصالها بنابليون فى حين أن مورو لم يكن يقل كفاءة فى نظر زوجته على الأقل عن نابليون وكان الواجب فى نظرها أيضا

نابليون يعدل عن هذه الخطة فى آخر لحظة وينقل ميدان القتال من النمسا إلى إيطاليا .

وكان سر نجاح هذه الخطة فى أن النمسا لم تكن تعرف هى ولا غيرها أكثر من أن فرنسا أعدت جيشين اثنين أحدهما يسير لمقابلة كراى فى ألمانيا والآخر يسير لمقابلة ميلاس فى إيطاليا . أما جيش نابليون الثالث فقد احتفظ هو بسرية معداته حتى يفاجىء به العدو وتأتى الضربة الأخيرة فى هذه الحملة على يديه . على أن أخباراً تسربت إلى الخارج عن وجود هذا الجيش وكمونه بجوار حدود فرنسا الشرقية فلم يهتم بهذه الأخبار أحد وحملها الجميع على محمل الاشاعات الكثيرة التى تتواتر فى مثل تلك الأوقات العصيبة .

وساعد ذلك نابليون على تنفيذ خطته بحذافيرها فتقدم مورو (٢٤ أبريل سنة ١٨٠٠) وطارد كراى حتى بلغ مدينة أولم Ulm وهنا انتظر حتى تأتيه تعليمات جديدة .

وبقى ماسنيا يدافع النمساويين فى شمال إيطاليا زمانا ولكنه

أن يكون المكان الأول فى فرنسا لزوجها ولها بدلا من أن تكون لنابليون وجوزفين . وكانت هذه التيارات التحتانيه الخطرة سببا فى المناقشة الحادة التى قامت بين الرجلين والتى أدت فى آخر الأمر الى خروج مورو على نابليون واشتراكه مع المتآمرين على حياته .

اضطر أخيرا إلى الاحتماء فى مدينة جنوا (٦ ابريل سنة ١٨٠٠) حيث حوصر وشدد عليه النمسايون الحصار شهرين متتابعين (أبريل — يونيه) حتى نفدت مئونته ومئونة الأهالى معه فكانوا فى آخر الأمر لا يعفون عن أكل الكلاب بل كانوا يتقاتلون فيما بينهم على دود الأرض والجراد .

وأخيراً تحرك نابليون فبلغ مدينة جنيف فى ٩ مايو ثم سار حتى بلغ ممر سانت برنار العظيم فى جبال الألب (فى ١٥ مايو) فعبره بجيشه فى سبعة أيام وانقض منه على سهول ايطاليا الشمالية فقطع الطريق على ميلاس ثم تقدم نحوه ولكنه بلغ من استهتاره بقوة خصمه أنه وزع جيشه ذات اليمين وذات الشمال ليملك الطريق على النمساويين إذا ما شرعوا فى الفرار . فكان هذا سبباً فى أنه لقى ميلاس بجيش لا يبلغ ٢٥ ألف مقاتل فى حين كان يربو تعداد الجيوش النمساوية هناك على ثمانين ألف . والتحم الجيشان فى سهول مارنجو عند مطلع فجر ١٤ يونيه وانهزم الفرنسيون بسرعة تحت ضغط أعدائهم الكثيف حتى أن ميلاس ارتد إلى خيمته حوالى الظهر ليملى نشرة اليوم يعلن فيها انتصاره على الفرنسيين . ولكن فرقة من الفرق الفرنسية التى كانت بعيدة عنه عادت فى هذه اللحظة

بقيادة ديزيه على صوت القنابل القريبة وانضمت إلى القوة الفرنسية فعززت موقعها . وفوجىء بها النمسويون فدب الرعب فى قلوبهم وحسبوا أنهم وقعوا فى فخ نصبه لهم نابليون . وهكذا انقلبت الهزيمة إلى صفوفهم ووقع منهم فى هذه المعركة ستة آلاف قتيل وثمانية الآف أسير وغنم الفرنسيون غنائم كثيرة لم ير ميلاس بعدها بدأ من إخلاء شمال إيطاليا كله والارتداد بما بقى معه من فلول جيشه إلى النمسا ليشير على حكومته بعقد الهدنة والمفاوضة فى شروط الصلح .

أما نابليون فأنه بادر بالعودة إلى باريس يحمل معه أنباء معركة مارنجو ليقضى بها على آمال الجمهوريين الذين بدأت تقوى معارضتهم له بسبب استئثاره بالسلطة ولم يكن بالفعل أجدى على نابليون ولا أنفع له من نصر باهر كنصر مارنجو يثبت به أقدام قنصليته ويلقم به خصوم حكومته حجرا كبيرا يمنعهم بعده من الكلام .

على أن النمسا وإن كانت قد تخلت عن شمال إيطاليا بعد مارنجو فأنها رأت جيوشها الألمانية بقيادة كراى ماتزال قوية عزيزة فى بادن . وأن حليفتها انجلترا ما زالت الى جانبها تغريها باستمرار القتال . وأن معركة مارنجو على مالها من الأهمية

لا ينبغي أن تعتبر معركة حاسمة في هذا النزاع الحيوي .فاستأنفت جهادها ضد مورو في أعالي نهر الطونة لعلها تغطي بانتصاراتها الألمانية هزيمتها الايطالية . ولكن مورو لم يكد يطلق يده في خصومه ويؤذن له بنزالهم ومتابعة بلائه فيهم حتى اشتبك معهم في هوهنلدن (٣ ديسمبر سنة ١٨٠٠) وضربهم الضربة القاضية التي كانت بمثابة صدى قوى لصدمة مارنجو — عند ذلك علمت النمسا أن لا سبيل لها إلى المقاومة وأن لا مفر لها من الاستلام . فقبلت شروط صلح لونفيل (٩ فبراير سنة ١٨٠١) الذي جاء مؤيداً لأحكام معاهدة كامبو فورميو والذي كررت فيه النمسا اعترافها بجمهوريات شمال ايطاليا والتزامها بالتخلي عن بعض الأراضي الألمانية لفرنسا .

ج — التحالف البحري الشمالي

والآن لم يبق من دول التحالف الدولي إلا انجلترا وحدها[١] .

---

(١) ولكن لم يكن معنى ذلك أن العبء خف قليلا عن عاتق نابليون فأن انجلترا لم تكن تكتفي بوجه أكشف وعمل صريح تلقاه بهم في ساحات الحروب . بل ذهبت في عدائها معه إلى أبعد حد فلم تترك وسيلة للقضاء

ورأى نابليون أنه على الرغم من انفراده بهـا فهو ما يزال عاجزا عن منازلتها لاحتمائها وراء الماء وأنه لا بد له قبل

عليه إلا اتبعتها وتجلت قدرتها فى تطبيق مبدئها المشهور وهو : « الغاية تبرر الواسطة » على تلك السياسة العنيدة التى سلكتها مع نابليون . فكانت مدينة لندن مهد الدسائس التى تدبر لاغتيال حياة هذا المنافس الخطر والعدو اللدود . وكانت باريس مسرح تلك الدسائس وقد تمكن البوليس من ضبط المتآمرين فى عدة حوادث ولكن ذلك لم يكن ليحول دون مضى المدبرين فى تدبيراتهم الشريرة وحدث فى (٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠) أن خرج نابليون إلى دار الأوبرا . وما كاد يقترب موكبه من ميدانها حتى وقع دوى عنيف سمعته كل باريس وزلزلت له جدران بيوتها وانخلعت منه قلوب سامعيه . فعم الذعر وانقلب ذلك النظام البديع الذى كان يسير فيه موكب القنصل الأول إلى فوضى شنيعة اختلط فيها الحابل بالنابل . ثم عاد السكون وانقشع ذلك الاضطراب عن ثمانية قتلى ونحو ستين جريحا مات منهم عشرون بعد قليل . . . . أما نابليون فلعل طول ممارسته للقنابل والمفرقعات قد اكسب قلبه نوعا من الصمم يجعله فى مأمن من التأثر بأصواتها وأهوالها . فأنه سار رأسا الى الأوبرا ودخل فى مقصورته آمنا هادئا ووافته فيها بعد قليل من الزمن زوجته جوزفين لأنها كانت قادمة فى عربة أخرى غير عربته فما هو أن رآها حتى قال : « لقد حاول الأغبياء نسفى — أين بروجرام الحفلة ؟ » ولن يفوتك ما بين هاتين العبارتين من « شبه كمال الانفصال ! » الذى يدلك على مبلغ وقع هذا الحادث فى نفسه وتأثيره على أعصابه .

وحامت الشبهات عند التحقيق حول اليعقوبيين الذين كانوا قد راجت عن ناديهم اشاعات كثيرة مؤداها أنهم يعملون ليل نهار على قلب نظام الحكومة واغتيال حيـاة القنصل الأول لتعود السلطة الى أيديهم كما كانت فى عهد

أن يفكر فى تصفية حسابه معها من جمع دول أوربا البحرية فى حلف عليها . وكان على الروسيا ملك اسمه بولس الأول وهو الذى كان فى التحالف الدولى الثانى ثم انسحب منه بسبب سوء تصرف النمسا معه ومع جيوشه . وكانت انجلترا تدعى لنفسها حق تفتيش كافة المراكب التى تقصد فرنسا لتمنع وصول السلاح اليها فكان هذا موضع احتجاج مستمر من دول أوربا البحرية ولا سيما الروسيا وانتهز نابليون فرصة خروج القيصر على التحالف الثانى وأراد أن يكسبه الى صفه فزين له فكرة تكوين تحالف بحرى من بروسيا والدنمرك والسويد على أن تتولى الروسيا رياسته وتكون الغاية من تكوينه مقاومة هذا الحق الغريب الذى تدعيه انجلترا لنفسها . فراقت هذه الفكرة لدى القيصر وعمل على تنفيذها فعلا (ديسمبر سنة ١٨٠٠) وزاد نابليون على هذا

الارهاب . فاستغل نابليون هذا الاعتداء للتخلص دفعة واحدة من هؤلاء الغرماء الدمويين فأوحى الى مجلس الدولة بأن يصدر قراراً « بوجوب اتخاذ اجراءات خاصة ضد المتآمرين » وكانت هذه الاجراءات هى نفى زعماء اليعاقبة كلهم من فرنسا (وكان عددهم نحو ١٣٠ زعيم) فسيق بعضهم الى المستعمرات الاستوائية ونقل آخرون الى جزائر خليج بسكاى . وتعرف هذه المؤامرة « بمؤامرة نيفوز » ونيفوز يقابل شهر ديسمبر فى التقويم الذى أنشأه رجال الثورة .

التحالف أن دخل فى مفاوضات مع نابلى واسبانيا أساسها منع البضائع الانجليزية من دخول بلادهما ووقعت معاهدات فى هذا المعنى بين الفريقين . وبدأت جهود التحالف باستيلاء الدانمرقة على البضائع الانجليزية فى موانى بحر بلطيق واحتلال بروسيا لمقاطعة هانوفر التى كانت تابعة للتاج البريطانى (أبريل سنة ١٨٠١) — وهكذا خيل إلى نابليون أنه ائتمر أحسن ائتمار بعدوته الباقية . وأنها لا شك مترديه فى تلك الشبكة الواسعة التى نصبها لها .

على أن خيطاً واحداً تصرم من هذه الشبكة فتفككت بسببه بقية الخيوط وبرزت انجلترا مرة أخرى فى وجهه حرة طليقة اليدين . وذلك أن بولس الأول وجد مقتولا فى قصره (مارس سنة ١٨٠١) فولى عرش الروسيا من بعده ولده اسكندر الأول الذى نقض سياسة أبيه وتخلى عن هذا التحالف البحرى الذى كانت دعامته روسيا فانهار بتخليه ذلك البنيان الفخم وانهارت آمال نابليون فى القضاء على انجلترا عن هذا الطريق حتى لقد قال وهو يشير إلى مبلغ تشككه فى الصلة بين مقتل القيصر ومكائد الانجليز :

« لئن أخطأنى الانجليز فى نيفوز فقـــد أصابونى فى بطرسبرج » !

ى — صلح اميانه [٢٧ مارس سنة ١٨٠٢]

فشل إذن هذا التحالف البحرى . ولـكن انجلترا كانت لا تزال تشعر بأنها فى حاجة ماســـة إلى الصلح لأن أهلها كانت قد ساءت أحوالهم وفدحتهم كثرة الضرائب حتى أصبح ١٤٪ منهم لا مرتزق لهم غير الاستجداء . ولم يكن يحول دون توقيع الصلح فى ذلك الوقت بين الفريقين إلا القتـال على مصر .

وكانت الجيوش الفرنسية ما تزال مقيمة فى وادى النيل منذ سنة ١٧٩٩ — ولـكن الجنرال كليبر الذى عهد اليه أمر الحملة المصرية بعد رحيل نابليون قتل غيـــلة فى حديقة منزله بجوار بركة الأزبكية . وقام من بعده الجنرال مينو الذى كان أخيب من أنجبت الثورة من القواد .

وكانت انجلترا لا يقر لها قرار وهى ترى الجنود الفرنسية فى مصر تهدد سلامة امبراطوريتها فى الشرق فكانت دائبـة فى العمل على إخراجهم منها بأى ثمن .

وفى أوائل سنة ١٨٠١ سارت حملة جديدة بقيادة سير رالف أبر كرومبى « Sir Ralph Abercromby » انهزم أمامها مينو عند الاسكندرية ثم اضطر إلى التسليم .

وسقطت وزارة پت « Pitt » فى انجلترا (فبراير سنة ١٨٠١) وجاءت بعدها وزارة « أدنجتُونْ » وهو فى ضعفه واستسلامه على نقيض پت فى ثباته وعناده . ورأى نابليون فى هذا التغيير الجوهرى ما يغرى بطرق باب الصلح من جديد . واستجابت الحكومة الانجليزية فى هذه المرة لدعوته بل إنها اندفعت نحو الصلح فى لهفة وعجلة ما زال يذكرهما إلى اليوم مؤرخو الانجليز مع الأسف الشديد . إذ قد ضاع عليها بسبب هذا التلهف وبسبب رغبتها الشديدة فى خروج الفرنسيين من مصر شىء كثير من الجهود الجبارة التى بذلتها البحرية الانجليزية طول مدة هذه الحرب وانتهت مفاوضات الصلح التى بدأت فى أكتوبر سنة ١٨٠١ بمعاهدة أميان التى وقعت فى سنة ١٨٠٢ (٢٧ مارس) وبمقتضاها تقرر أن :

١) تغادر الجيوش الفرنسية بلاد مصر .

٢) ترد بريطانيا لفرنسا مستعمراتها التى استولت عليها خلال الحرب .

٣) ترد إلى هولاندا كافة مستعمراتها التى استولت عليها (ما عدا جزيرة سيلان)

٤) ترد جزيرة مالطا إلى فرسانها الذين كانوا يحكمونها قبل مسير الحملة الفرنسية على مصر.

٥) ينزل ملك انجلترا عن لقب « ملك فرنسا » الذى كان يتلقب به ملوك الأنجليز منذ عهد ادوارد الثالث.

٦) تحتفظ انجلترا من كل فتوحاتها بجزيرة ترنداد (الاسبانية) فى جنوب أمريكا وجزيرة سيلان (الهولندية) فى جنوب الهند.

وعلى قدر سخط الناس فى انجلترا على المفاوض الانجليزى الذى سلم فى كل هذه الشئون كان رضا الفرنسيين عن المفاوض الفرنسى وكان تمجيدهم على الأخص لنابليون الذى عاد إلى فرنسا قبل ذلك بعامين اثنين وهى فقيرة طاوية مهددة خائفة يحيط بها أعداؤها كما تحيط الذئاب الكاسرة بالفريسة الضعيفة الخائرة. فدفع عنها غائلة الفقر والحيف وأطعمها من جوع وآمنها من خوف.

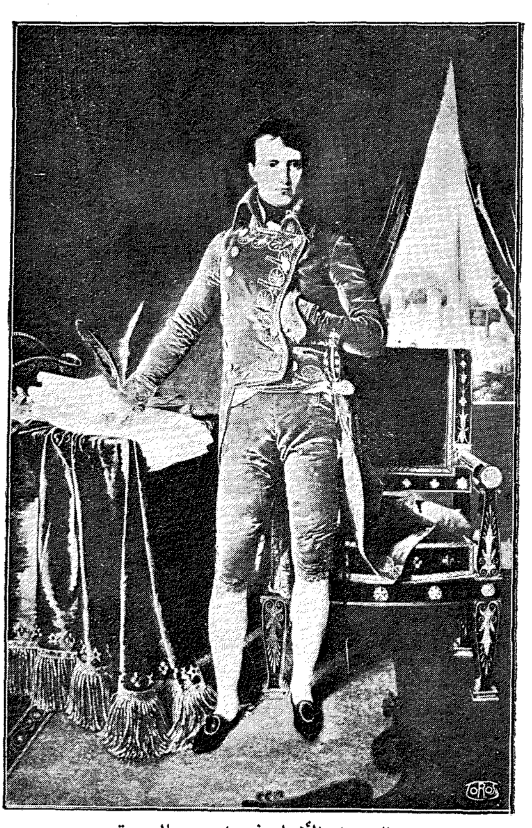
هـ) نابليون قنصل لمدة حياته :

ازاء ما لقيته فرنسا على يد نابليون من الخير العميم . وأزاء ما أصبحت تتقلب فيه من نعمة السلام الشامل بعد معاهدة لونفيل (سنة ١٨٠١) والكونكوردا (سنة ١٨٠١ أيضاً) وصلح أميان (سنة ١٨٠٢) . وأزاء ما حصلت عليه من المفاخر والمغانم بفضل سلسلة هذه المعاهدات الميمونة . رأى مجلس الشيوخ فى فرنسا أن يعبر باسم الأمة عن اعترافه بجميل نابليون على الشعب الفرنسى بأن اقترح إطالة مدة بقائه فى مركزه عشر سنوات أخرى خلاف العشرة التى قدرها دستور القنصلية .

ولكن نابليون كان فى الواقع أوسع اطماعا من أن يقبل هذا العرض الضيق الضئيل الذى تقدم به اليه مجلس الشيوخ وطلب إحالة الموضوع على الأمة لأبداء رأيها فيه بطريق الاستفتاء العام . غير أنه جعل موضوع الاستفتاء فى صورة أخرى وهى .

« هل يكون نابليون بونابرت قنصلا أولا طول حياته »

فجرى التصويت على ذلك وأسفرت النتيجة عن الموافقة عليه



القنصل الأول فى ملابسه الرسمية

بأغلبية ساحقة تشبه فى قوتها تلك الأغلبية التى تقرر بها نظام القنصلية نفسه . ومنذ تلك اللحظة جد نابليون فى إدخال بعض تعديلات جوهرية على دستور القنصلية يوطد بها مركزه الجديد فراح يستصدر القرار بعد القرار بتوسيع دائرة اختصاصه حتى انتهى به الأمر إلى أن حصل على قرار يخوله حق تعيين خلف له على فرنسا (أغسطس سنة ١٨٠٢)

ولقد حدث بعد ذلك بسنتين أن حصل نابليون على لقب « امبراطور » (ديسمبر سنة ١٨٠٤) ولكنه فى الواقع استحق هذا اللقب بالفعل منذ أغسطس سنة ١٨٠٢ .

الباب الثاني

فرنسا من سنة ١٨٠٢ — ١٨٠٤

الفصل الأول

انجلترا تعلن الحرب من جديد

بعد صلح أميان كان نابليون قد بلغ بفرنسا منزلة تجعل من مصلحته أن يعيش فى سلام مع جيرانه . فقد كان ما يزال فى الثلاثين من عمره تقريبا وتحت قدميه من الملك ما لم يتفق للويس الرابع عشر نفسه فى أوج عظمته . فنى الشمال كانت فرنسا تطوى تحت أحد جناحيها هولندا وبلجيكا . وفى الجنوب كانت تبسط جناحها الآخر على كل إيطاليا تقريبا وكان أعيان الأيطاليين قد تقدموا اليه فى يناير سنة ١٨٠٢ يلتمسون منه قبول رياسة الجمهورية الألبية فقبلها منهم وأطلق على تلك الجمهورية منذ ذلك التاريخ اسم « الجمهورية الأيطالية » .

وفى أغسطس سنة ١٨٠٢ استولى على جزيرة البا . إذ رأى أن انجلترا ما تزال محتفظة بجزيرة مالطا على الرغم مما ورد فى شروط صلح أميان من وجوب إخلائها والجلاء عنها.

وفى فبراير سنة ١٨٠٣ حدث نزاع خطير فى سويسرا

تدخل من أجله نابليون . وانتهى تدخله بأن غير نظام حكومتها الداخلية فترك لأعيان البلاد حكومة الأقاليم واحتفظ لنفسه برياسة الحكومة المركزية .

حدث هذا وانجلترا بالمرصاد تنظر وتصر على أسنانها كيف أن هذا الرجل يعمل على توسيع ملكه فى الحرب وفى السلم على السواء . والى أين ينتهى بهـذا المنافس توسعه . وماذا يكون من أمر الأمبراطورية البريطانيـــة إذا تركت هذا السرطان ينتشر فى أوربا كما يفعل الآن رويدا رويدا ولكن بكل ثبات واضطراد . أفلا يخشى على نفس الجزائر البريطانية من سريانه الذريع ؟ بلى ! والحكمة السياسية السكسونية تقضى بوجوب اجراء العملية حالا لاجتناب هذا التضخم الخبيث من أصوله قبل أن يمتد إليها هى نفسها فيزدردها لقمة واحدة فى فمه الواسع المنهوم !

وكانت انجلترا قد عينت لها سفيرا فى باريس عقب صلح أميان هو لورد وتورث « Lord Whitworth » فبالغ نابليون فى الحفاوة به وأوعز إلى حكومته بتكريمه ورعايته حيثما حل أو رحل وهو يبغى من وراء ذلك إلى « نيل الحظوة لدى السيدة بملاطفة هرتها » فكانت تقام له الولائم وتوضع اللادى

قرينته موضع التعزيز والاحترام فى كل حفل فوق سائر زميلاتها السفيرات — على أن كل هذا الترتيب لم يكبح من جماح « بلاط سانت جيمس » الذى أصر على وجوب الاحتفاظ بجزيرة مالطا . وغالى إلى حد أن طلب من نابليون إخلاء هولندا . لأن الأنجليز لم يكونوا يفهمون إلا شيئاً واحدا وهو أن « نابليون خطر » . ولا بد لدفع هذا الخطر من اخلاء الفرنسيين لهولندا المواجهة للشواطىء الأنجليزية كما أنه لا بد للتحصن من هـذا الخطر أن تبقى مالطا فى يد الاسطول الانجليزى لتكون قاعدة حربيـة له يستخدمها فى دفع كل ما يتهدد سلامة الامبراطورية فى الشرق .

ولقد ذهلت انجلترا أيضاً فى خوفها من نابليون وعدائها له عما كان يقوم به أنصار البربون من الدعاية الخطرة التى كانت تقوم بها صحائفهم ضد نابليون . وبخاصة ما كان ينشره صحفى بربونى اسمه بلتيه (Peltier) فان هذا الرجل كان نهاش أعراض بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ الصحافة فملأ الدنيا بمفترياته على نابليون وعلى زوجة نابليون وعلى أخوات نابليون ولم يترك نقيصة إلا رماهم بها . ولا رذيلة إلا ألصقها بصفاتهم . وكان ذلك يؤلم نابليون إيلاماً شديداً وهو العليم

بأثر هـذه المطاعن فى تلويث شخصه وتشويه سمعته على ما هو عليه من الحاجة الشديدة إلى الاحتفاظ بنقاء اسمه وطهر سيرته . وذلك طبعاً بحكم عصاميته وحكم مركزه الاستثنائى بين كافة ملوك أوربا — فكان يلحف فى طلب وقف أمثال هذا الصحفى عند حدهم ولـكن الحـكومة الانجليزية لم تكن تجيبه فى كل مرة إلا جواباً واحداً وهو : « أن الصحافة فى انجلترا حرة » . فتضيف بذلك تعريضاً جديداً به وبسياسته الداخلية فوق ما كان يشكوه من التعريضات الأخرى .

وأخيراً رأى نابليون أن لا بد له من اسـتدعاء اللورد وتورث والافضاء اليـــه بحديث حاسم قاطع مانع فى شأن العلاقات الفرنسية الانجليزية لأنه لم يعـد يطيق الصبر على مسلك انجلترا معه .

وفى مساء ١٨ فبراير سـنة ١٨٠٣ دخل عليه اللورد فى غرفته الخاصة بسراى التويلرى وكان فى وسط الغرفة مائدة طويلة فأشار عليه بالجلوس فى أحد طرفيهـا . وجلس هو تجاهه فى الطرف الآخر ثم شرع يحدثه عن اهتمامه بما سيبسط له من الآراء والأفكار مما حدا به إلى تحديد هـذا الموعد الشخصى دون الالتجاء فى ذلك الى وزير خارجيتـه أو إلى

سفيره فى لندن حتى يكون المجال أفسح وأرحب لعرض تلك الآراء وحتى يضمن تبليغها على صورتها الحية الحارة إلى مسامع الحكومة البريطانية فى لندن .

وبعد أن سرد عليه كل ما جرى بينه وبين الحكومة البريطانية منذ البداية إلى تلك اللحظة من عرض الصلح عليها عقب انتخابه لرياسة الحكومة القنصلية مباشرة ورفض بريطانيا له — إلى دخوله فى مفاوضات للصلح عقب كل نصر يحرزه فى ميدان القتال — الى تساهله مع المفاوض الانجليزى الذى كان يفاوضه على شروط صلح أميان الى غير ذلك — قال له :

« ولكنى أرى جهودى فى سبيل التصافى مع انجلترا غير شافعة ولا نافعة . فان الصحافة البريطانية تنفث السم فى وجهى وصحافة المهاجرين الفرنسيين يسمح لها بمهاجمتى فى حدود لا يبيحها الدستور البريطانى . وهذه المرتبات والأعانات تصرف للمتآمرين على حياتى . وبالجملة لا تهب علينا ريح من انجلترا الا سموم قوامها البغى والعدوان وأصبحنا الآن فى موقف لا بد لنا فيه من تحديد موقفنا . فهل تنوون تنفيذ معاهدة أميان أم لا تنوون ؟ — أما عن نفسى فقد نفذت

شروطها بكل أمانة ودقة وإخلاص . لقد حتمت على هذه المعاهدة أن أخلى نابولى وولايات البابا فى مدى ثلاثة شهور . فأخليتها وجلوت عنها ولما تنقضى الشهور الثلاثة المحددة . وها قد مرت عشرة شهور على الأجل الذى حددته المعاهدة والجنود البريطانية ما تزال تحتل مالطا ومدينة الاسكندرية . ولست أرى أية فائدة من محاولة خداعى فى هذا الموضوع فخبرونى أى الأمرين تريدون : الصلح أم الحرب ؟ أما إن كنتم ترغبون فى الحرب فلا أتطلب منكم أكثر من التصريح بذلك . وعند ذلك أشب عليكم نارها غير آسف ولا نادم . وأما إن كنتم تسعون إلى السلام فلا بد من إخلاء مالطة والاسكندرية .

وان كنتم فى ريب من حسن نيتى فى طلب الصلح فاستمعوا واحكموا لأنفسكم عن مبلغ إخلاصى فى هذا العرض . إننى على الرغم من حداثة سنى قد بلغت من القوة وبعد الصيت ما لا مطمع معه فى المزيد . فهل تتصورون أننى أميل الى المجازفة بهذه القوة وبهذا الصيت فى مثل تلك المعركة الهادمة التى لا بد منها إذا ما اشتبكت معكم فى قتال — إننى اذا أردت قتالكم فلا بد لى من عبور هذا المضيق القائم بينى

وبينكم . وربما دفنت فى أعماقه مستقبلى ومجدى وحياتى وأنا أحاول اجتيازه . إن غزو انجلترا يا سيدى اللورد لمجازفة هائلة وشىء عظيم ! فانظر إن كنت وأنا الهانىء القوى الوادع أميل إلى المقامرة بهناءتى وقوتى وسلامى فى سبيل هذه الغزوة واحكم لنفسك إن كنت صادقاً حين أقول إنى أرغب فى الصلح والسلام أم أنا مراوغ غير صادق .

إنه لخير لكم . وخير لى أن نعيش فى حدود معاهداتنا . فيجب أن تخلوا جزيرة مالطا وأن لا تأووا فى بلادكم طالبو حياتى وكونوا إلى مخلصين أضمر لكم فى قلبى كل إخلاص . واذكروا أن أسطولكم إن كان سيد البحر غير منازع فان جيشى سيد البر غير مدافع . وأحرى بنا بدل أن نصطدم فى الحرب أن نوحد جهودنا فى السلم لخير الانسانية ! »

وعلى الرغم من كل هذا الحديث فان انجلترا بقيت على اصرارها فى وجوب الاحتفاظ بمالطا . وعند ذلك اقترح نابليون أن تضع انجلترا الجزيرة فى عهدة قيصر الروسيا ريثما ينتهى الجدل بينهما عليها . فأبت انجلترا أيضاً قبول هذا الاقتراح وأجابت بأنها لا ترى بأسا من الاعتراف بجمهورية إيطاليا التى آلت رياستها إلى نابليون أخيراً إذا هو قبل بقاء

الانجليز فى مالطا عشر سنين ولكن نابليون لم يكن فى سبيل المساومة على رياسة جمهورية ايطاليا فرفض بدوره هذا العرض وسحبت انجلترا سفيرها من باريس وشرعت تستولى على المراكب الفرنسية التى تصادفها فى عرض البحر .

وليس أبدع فى هذا المقام من إيراد ذلك الحوار التصويرى الذى عرضه المؤرخ الانجليزى « يوسف أبوت » فى كتابه نابليون بونابرت ليصور به هـــذا النزاع القائم بين انجلترا ونابليون .

إذ تقول انجلترا : إنك اغتصبت لنفسك عرش البربون

فيجيب نابليون : وقد اغتصب مليككم عرش أسرة ستيوارت

: ولكن القنصل الأول هو رئيس الجمهورية الايطالية .

: وإن ملك الانجليز أيضاً هو رئيس مقاطعة هانوفر .

: لكن جيوشك مرابطة فى سويسرا

: وجنودكم رابضة فوق صخور جبل طارق

: ولكنك رجل بعيد المطامع ترمى إلى إنشاء مستعمرات فى الخارج .

: وإن لكم لعشر مستعمرات فى مقابل كل
مستعمرة واحدة لنا .

فتقول انجلترا : نحن نعتقد أنك تريد الاستيلاء على مصر .
ويجيب نابليون : أما أنتم فقد استوليتم فعلا على الهند .

فتثور لهذا الكلام ثائرة انجلترا وتنادى :

« يانلسون ! هات الأسطول . وأنت ياولنجتون ! احمل لواء الجيش . هذا الرجل ينبغى هدمه ! إن أطماعه تهدد حريات العالم . وأنتم أيها المؤرخون الانجليز ! أبلغوا شعوب الأرض إن نابليون الغاصب يسوقه شيطان كبريائه واعتدائه إلى أن يغمر هذه الأرض بالدماء ! »

وهكذا تعلن انجلترا الحرب فى ١٨ مايو سنة ١٨٠٣ على نابليون الغاصب المتكبر ! وهكذا تبدأ هذه الحرب الشعواء التى استمرت من غير انقطاع مدة عشر سنوات كان نابليون فى خلالها واقفا موقف الدفاع عن نفسه وعن بلاده .

الفصل الثانى

التعبئة

وقعت الحرب ولم يبق أمام نابليون إلا أن يغامر بمستقبله ومجده وحياته فى عبور بحر المانش ومنازلة انجلترا فى عقر دارها بعد أن كانت كل مهاجماته لها فى أشخاص حلفائها .

وكان ينقصه فى ذلك المال — وكانت لفرنسا مستعمرة فى قلب الولايات المتحدة هى مقاطعة لويزيانا فباعها اليها بستين مليون فرنكا وبذلك أنقذها من الضياع المحقق الذى يهددها به الأسطول البريطانى وفى الوقت نفسه استولى على ثمنها ليستعد به للقتال .

ولم يكن أمام انجلترا إلا البحر . فأمعنت فى تصيد المراكب الفرنسية حتى زوارق الصيد لم تعف عن مهاجمتها وأسر رجالها ، واستولت كذلك على كثير من مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار

فأجاب نابليون على هذا التصرف بأن ألقى القبض على كل الانجليز النازلين فى الأراضى الفرنسية

وأمر بأن تغلق الموانى الأوربية الواقعة فى دائرة نفوذه فى وجه المراكب الانجليزية فلا تسمح بتموينها ولا تقبل شيئا من متاجرها ولا تبيح لها بحال من الأحوال الدخول فى مياهها

ثم احتل هانوفر ، ووضع يده على الموانى الشمالية واستولى على أموال التجار الأنجليز

ولكن شيئا من كل هذه الأجراءات لم يكن يعدل ما يحدثه الأسطول البريطانى من الأضرار الجسيمة بالمصالح الفرنسية حيثما سار . فان هذا الأسطول بحكم سيادته فى البحار كان يكيل الضربات المتتالية للموانى الفرنسية المكشوفة له وللمستعمرات الفرنسية البعيدة عن حماية فرنسا وللتجارة الفرنسيه المعرضة لمطاردته ومصادرته .

لذلك لم يكن بد لنابليون من أن يضاعف جهوده فى اتمام معدات الحملة المعدة لغزو انجلترا حتى تقع ضرباته على قلب خصمه مباشرة بدل هذه المناوشات التافهة البعيدة التى لا تؤثر ولا تقدم ولا تؤخر .

وسرعان ما اجتمع له جيش قوامه ثلثمائة الف مقاتل وازدحمت مياه ثغر بولونى Boulogne بألفى نقالة أعدت

لحمل خمسين ومائة الف جندى الى انجلترا مزودين بعشرة آلاف حصان وأربعة آلاف مدفع . وقد تمت كل هذه المعدات بدقة مدهشة وسرعة هائلة القت الرعب فى قلب الانجليز وهم ما هم من الثبات والصبر على المفاجآت . ولكن مجرد فكرة جيش قوامه مائة وخمسين الف جندى مدرب يتولى قيادته نابليون بونابرت على بعد ثلاثين ميلا من شواطىء انجلترا كانت كفيلة بأن ترتعد لهـا فرائص الجبال . ولذلك كنت ترى البرلمان البريطانى فى ذلك الحين على رغم ما اشتهر به من الرزانة والهدوء - يعقد الجلسات العاصفة الهائجة يفتتحها بصيحات الاستغاثة ويختتمها بطلب النجدة من كل قادر على أدائها وأخيراً صدر قرار المجلس بدعوة كل من كانت سنه بين السابعة عشرة والخامسة والخمسين إلى حمل السلاح . فازدحمت بالمجندين ساحات البلاد . وكان الجدد منهم يمارسون تمريناتهم العسكرية كل صباح تحت اشراف المدربين . وكان ملكهم المسن الهرم جورج الثالث يسير بنفسه ليستعرض هذه الصفوف وينشر بينها روح الثقة والحماس .

ولم تر الحكومة البريطانية ازاء هذا الخطر الداهم إلا أن تضاعف جهودها فى معاونة المتآمرين على نابليون عسى أن

يتم الأمر على أيديهم فيكفوها مؤنة القتال فوضعت تحت تصرفهم أموالها ومراكبها . لا تسألهم كيف ينفقون المال ولا أين يذهبون بالسفن . واستعانت بمندوبين من قبلها بثتهم فى هامبورج وفى مونيخ وفى ستتجارت وفى برن وفى غيرها من البلاد المتاخمة لفرنسا وزودتهم بالمال اللازم ليغروا من شاء من المهاجرين الذين كانوا يقيمون فى تلك الجهات ويحومون حول الحدود الفرنسية كيما ينقض على القنصل الأول عند أول فرصة تسنح له ويخلصهم من شره .

ووفق البوليس إلى اكتشاف أكثر من ثلاثين مؤامرة مدبرة لاغتيال « القنصل الأول » فى تلك الناحية . ولكن نابليون ضاق ذرعا فى آخر الأمر بالتربص لهؤلاء الاشقياء وتصيدهم واحدا بعد واحد واعتزم أن يصدمهم الصدمة القاضية وأن يلقى عليهم كما قال : «درساً قاسياً لا يزول أثره من أذهانهم قبل قليل . »

الفصل الثالث

المؤامرة الكبرى

مهما بلغت أريحية نابليون بالنسبة لجنوده وقواده ومهما بلغت ميوله الحسنة بالنسبة لعامة الشعب . فان عوامل الغيرة وحزازات الصدور كانت تخرج ببعض رجاله عليه . وقد كان نابليون بسبب تلك العوامل وهذه الحزازات هدفا لعدة مؤامرات خطيرة تدبر لاغتياله. فالبربون والأنجليز يرسمون الخطط ثم يستخدمون هؤلاء الساخطين للتنفيذ . ولكنه كان فى كل مرة ينجو من الخطر بل إنه كان يخرج من هذا الخطر اكثر اعتداداً بنفسه وأبلغ ثقة فى حسن طالعه حتى لقد كان كثيراً ما يتمثل بما قاله قيصر لمن معه حينما أشرفت مركبه على الغرق فى عرض البحر : « لا تخافوا فان هذه المركب تحمل قيصراً وتحمل معه طالعه ! »

ولكن الملكيين من أسرة بوربون وأنصارهم الرابضين له فى بلاد الانجليز ما كادوا يسمعون بنبأ هذه الحرب الجديدة

التى شنتها عليه انجلترا حتى تضاموا وجمعوا أمرهم من جديد وقرروا فيما بينهم أن يرموه بآخر سهم فى كنانتهم منتهزين فرصة انشغاله بأعداد معدات القتال للقاء الانجليز

وكان فى خدمة الأمراء الملكيين الفرنسيين فى مدينة لندن رجل غليظ مارد هو جورج كادودال الذى سبقت لنا الاشارة إليه فولوه زعامة عصابة قوية أثقلوها بأنواع السلاح المختلفة وزودوا زعيمها بمال وافر كثير واطلقوه على نابليون بغية اقتناصه حيا أو ميتا

وكان برنامج المتآمرين أن يبدأوا عملهم ببث الدعوة فى فرنسا ضد نابليون . وجمع من استطاعوا من الساخطين عليه . والموالين للحزب الملكى حتى إذا تم لهم ذلك انقض كادودال على القنصل الأول فقتله أو اختطفه فى إحدى غدواته أو روحاته . وعند ذلك يقوم أنصار الملكية بثورة فى الداخل بينما يجتاز المهاجرون حدود فرنسا من الخارج . يساعدهم فى ذلك أمثال بشيجرو Pichegru من القواد المعارضين لنابليون . واتجهت أنظار المتآمرين بهذه المناسبة إلى مورو بطل هوهنلدن ومعبود الشعب الفرنسى بعد نابليون وذلك لما كان بين البطلين من الجفوة والفتور . وقد

بعثوا برسولهم إلى مورو قبل سفر كادودال الى فرنسا يجسون نبضه فصرح مورو بأنه لا يتردد لحظة فى الاشتراك فى أية حركة ترمى الى اسقاط القنصلية ففرح الملكيون وتضاعف اهتمامهم بما كانوا آخذين فيه من الكيد والتآمر وأخيراً تمت الأهبة ولم يبق الا أن يرحل كادودال وعصابته الى فرنسا للتنفيذ .

وفى ليلة مظلمة من ليالى شتاء سنة ١٨٠٤ كان الكابتن (رايت) أحد ضباط البحرية الانجليزية يعبر المانش بمركبه وعلى ظهرها جماعة كادودال حتى إذا بلغ شاطىء نورماندى ألقى بحمولته الخبيثة على صخورها وتركهم يشقون طريقهم إلى باريس . وكان فى وسط ذلك الشاطىء الصخرى فجوة عميقة كان يستعملها المهربون فى إدخال بضائعهم إلى فرنسا . فاتفق كادودال مع أصحابها على أن يمكنوه من دخول فرنسا عن طريقها فى نظير جعل عرضه عليهم . فما هو ان لفظتهم مركب هذا الكابتن رايت حتى تسلقوا الصخر على حبل أعد لهذه الغاية من قبل . وقد بلغ من دقة كادودال واحكام تدبيره انه كان قد أعد جملة أكواخ فى الطريق ما بين تلك البقعة من نورماندى وبين باريس ليأوى اليها كلما دعت

الحال حتى لا يستلفت أنظار أحد اليه ولذلك وصل المتآمرون إلى مدينة النور ودخلوها تحت طى الخفاء بسلام !

وبقى كادودال بعد ذلك شهرين طويلين ينفق المال عن سعة فى نشر الدعوة ضد نابليون وفى اجتذاب الانصار لمشروعه العقيم . فلم يوفق إلى جمع أكثر من ثلاثين شخصاً أغراهم بالانضمام اليه حب ما عنده من المال أكثر مما أغرتهم بذلك كراهتهم لنابليون . ولما ظن الزعماء فى لندن أن قد مر على كادودال الوقت الكافى لجمع الموالين والأنصار أذنوا لبشيجرو وغيره من كبار القواد بالسفر للحاق به حتى تسير المؤامرة خطوتها الثانية وركب بشيجرو وزملاءه العظام حبل المهربين كما ركبه رجال الدفعة الأولى وما زالوا ينسلون من مخبأ لمخبأ حتى اتصلوا بكادودال فى ضواحى باريس.

وفى « البوليفار دى لامادلين » فى احدى الليالى الباردة من شهر ينايرسنة ١٨٠٤ كنت ترى فى الظلام شبحين يقترب أحدهما من الآخر فى حذر وتحفظ . وقد ظهرت على كل منهما علائم القلق والاضطراب لأنه لم يسبق لواحد منهما العمل فى الظلام . فقد كان أحدهما « مورو » بطل هوهنلندن الذى مكن فرنسا بانتصاره فى تلك المعركة من إملاء شروط

صلح لونفيل على امبراطور النمسا . وكان الآخر بشيجرو فاتح هولندا فى عهد الثورة الفرنسية وصاحب اليد الطولى على الجمهورية الناشئة بتأبيده لها وتعزيزه لقوتها .

وما كاد يقترب الرجلان ويتبادلان التحية حتى ظهر بينهما كادودال كأنما انشقت عنه الأرض . وكان كادودال بطبيعة الحال مدبر هذا الأجتماع وكان يهمه الوقوف بنفسه على ما سيتفق عليه البطلان ولكن مورو امتعض لرؤيته ولم يسترح الى أن يكون شريكا لمثله فى أى عمل من الأعمال فانسحب على أن يزوره بشيجرو بعد ذلك فى موعد آخر اتفقا عليه .

والواقع أن سوء تفاهم خطير قد وقع من أول الأمر بين مورو والمتآمرين إذ بينما كان مورو يظن أن رياسة الحكومة بعد سقوط نابليون ستسند اليه كان الملكيون يحسبون أن عداءه لنابليون قد دفع به الى أن يتخلى عن مبادئه الجمهورية لينصر الملكيين على خصمه ومنافسه . غير أن هذا اللبس لم يلبث أن تقشع عند مقابلة بشيجرو له فى منزله . وبذلك انهدم ركن من أكبر أركان المؤامرة وانصرف بشيجرو من عنده وهو ثقيل الروح مزعزع الثقة فى النجاح .

وأخذت أنباء المؤامرة منذ هـذه اللحظة تتسرب الى أسماع نابليون . وقد كان مستر دريك Mr. Drake وزير انجلترا فى بافاريا قد اتصل برجل فرنسى . وتوهم بينه وبين نفسه أنه قد أفلح فى شرائه بالمال ليعمل لحسابه فى التجسس على نابليون والائتمار به مع المؤتمرين . وكان هذا الرجل من جانبه يلعب بأوهام « دريك » ويمنيه الأمانى الحسان ويقوم فى الوقت نفسه بعرض مكاتباته على نابليون شخصياً ويتلقى من نابليون صيغة الردود التى يجب ان يرد بهـا عليه وتمكن البوليس الفرنسى فى ذلك الوقت أيضاً من القـاء القبض على بعض الجواسيس فساقهم الى المحـكمة وحكم عليهم بالأعدام فأفشى بعضهم سر مؤامرة كادودال قبل اعدامه وكشف عن كل ما يعلمه من تفصيلاتها فلم ير نابليون بدا من القاء القبض على مورو وهو يعلم أن ضجة ستقوم حول هـذا القبض . وأن أنصار مورو سوف ينسبون ذلك الى ما بينهما من الجفوة والعداء . وقد قام بالفعل فريق من أنصار مورو ينكرون وجود كادودال أصلا فى باريس . ويقولون انهى إلاأوهام القنصـل الأول تخلق الدسائس وتصور المؤامرات لـكى يستعين بها على التخلص من خصومه ونظرائه . فلم يلق نابليون

بالا لأقوالهم وأخذ يسخر كل ما أتاه الله من قوة فى سبيل كشف القناع عن هذه المكيدة والقاء القبض على بقية المتآمرين .

وظل نابليون بضعة أسابيع يخبط هو ورجاله فى سبيل الوقوف على آثار كادودال وعصابته . ولكن جهودهم كلها ذهبت أدراج الرياح . ومع ذلك فقد بقيت اعترافات المتآمرين الذين يقعون فى أيدى البوليس تترى بأن كادودال ورجاله فى قلب باريس غير أن مقرهم مجهول لا يعرفه منهم أحد لمبالغة ذلك الداهية فى التحفظ والاحتياط . فلم يكن من نابليون الا أن سن قانونا يعاقب بالأعدام كل من يأوى المتآمرين ويعاقب بالسجن ست سنوات كل من يعلم بمقرهم ولا يهدى البوليس اليهم . وأمر فى الوقت نفسه بتشديد المراقبة حول أسوار باريس حتى أن التوابيت كانت لا تتجاوز حدوذ المدينة قبل أن تفتش تفتيشاً دقيقاً خشية أن يكون فيها أحد المتآمرين

وأخيراً استدل البوليس على مقر بشيجرو فباغته ليلا فى مخدعه والى جانبه سيفه ومسدساته ووثب عليه الجنود قبل أن يتمكن من لمس شىء منها فعصبوا يديه وشدوا وثاقه ثم ساقوه الى سجن التامبل حيث اجتمع بمورو ... للمرة الثالثة.

ومنذ ذلك اليوم ساءت أحوال كادودال واضطربت تصرفاته وأخذ يكثر من التنقل ليلا من مكان الى مكان وهو لا يستقر له قرار

وجاءه رجاله فى آخر الأمر يبشرونه بأنهم اهتدوا الى بيت كثير المسارب والمسالك فعول على الانتقال اليه والاستقرار فيه حتى تخف حدة نابليون وجنوده ويأتيه الفرج هو ورجاله من عند الله . ولكن البوليس وقف على أثر بعض أصحابه فترصدوهم ليهتدوا بهم إليه . إلى أن كانت ليلة ٩ مارس سنة ١٨٠٤ إذ نما إلى علم البوليس أن كادودال قرر الخروج من مكمنه ليأوى الى جحره الجديد . ففى تلك الليلة وقفت العربة المعدة لنقله فى زاوية احدى الطرقات التى كان يرقبها البوليس بكل يقظة وانتباه فخرج من الظلام أربعة رجال اندفع أحدهم نحو العربة فصعد اليها وأطلق لجوادها العنان. وأدرك البوليس أن ذلك هو جورج كادودال نفسه فاندفعوا فى أثره يصيحون ويصفرون وينادون : «امسكوه ! امسكوه!» وقد نجح أحدهم فى اللحاق بالعربة والتعلق بمؤخرها . وأخيراً أيقن كادودال بأن العربة لم تعد تنفعه فهم بالنزول منها وعند ذلك تقدم رجل البوليس المتعلق بها وأمسك بزمام الحصان

وأقبل زملاؤه من كل فج فأحاطوا بطريدتهم وألقوا القبض عليه بعد أن أطلق عليهم النار فقتل واحد وجرح آخر ولولا أن ابتدره ثالث بضربة هراوة على رأسه لكثرت ضحاياه فى ذلك الظرف العصيب .

ونجح البوليس بعد ذلك فى إلقاء القبض على كثير من أعوانه وتحدد لمحاكمة الجميع يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٠١ .

على أن نابليون لم يقنع بهذه النتيجة التى وصل اليها فى مطاردة غرمائه لأنه لم يكن يرضى أن يصب انتقامه على رأس الهرة ويترك القرد اللعين الذى كان يحرك يدها حراً طليقاً وراءها يعاود عبثه وفساده . ولم يكن همه وهو يتعقب المتآمرين أن يظفر بأمثال بشيجرو ومورو ممن غلبت عليهم عاطفة الغيرة ولا بأمثال كادودال ورجاله من المأجورين عباد المال وإنما كان كل قصده أن يظفر بواحد من أمراء البوربون المتآمرين — الذين يعتبرون بحق رأس هذه الأفعى الخطرة التى كانت تهدد حياته والتى لم يوفق الى القبض على غير ذنبها — ليقتص من الأسرة الملكية فى شخصه وليجعله عبرة يعتبر بها غيره ممن يفكرون فى النيل منه أو التعرض له .

فتحرى عن أمراء تلك الأسرة وعن محل اقامة كل واحد

منهم فعلم أن اثنين منهما يقيمان فى لندن وأن اثنين آخرين يقيمان فى وارسو وواحداً يقيم فى إيتنهيم « Ettenheim » بالقرب من استراسبورج على الحدود الفرنسية الشرقية ؛ فانتدب ضابطاً للذهاب سراً الى ايتنهيم ؛ وجمع كل مايستطيع جمعه من المعلومات عن هذا الأمير ؛ وذهب الضابط وعاد بعد أن أدى مهته وقدم فى العاشر من شهر مارس سنة ١٨٠٤ تقريراً بملاحظاته كلها الى نابليون وكان من بين الأوراق الموضوعة على مكتب القنصل الأول فى نفس ذلك الصباح اعتراف أفضى به الليلة السابقة أحد المتآمرين من رجال كادودال. فأما التقرير فقد أثبت فيه الضابط أن دوق دنجين Duc d'Enghien كثيراً ما يذهب متخفياً الى ستراسبورج حيث تقيم حبيبته البرنسس دى روهان وأنه يتناول مرتباً من الحكومة البريطانية وأنه على استعداد لحمل السلاح والاشتراك فى غزو فرنسا متى سنحت الفرصة الملائمة. وأما اعتراف السجين فكانت فحواه أن أميراً من أمراء أسرة بوربون كان المدبر الحقيقى لهذه المؤامرة وأنه إن لم يكن قد وصل الى فرنسا فعلا فى ذلك الوقت فأنه سيصل اليها عما قريب . فلم يشك نابليون لحظة فى أن الدوق دنجين لابد أن يكون هو نفس الأمير الذى يشير اليه هذا السجين.

فصدرت الأوامر سريعاً الى كوكبة من الفرسان لتسير الى ايتنهيم وتلقى القبض على الأمير قبـل أن يستشعر أحد بقدومها . وقامت تلك الكوكبة فعلا من باريس فى ١٥ مارس سنة ١٨٠٤ وأحاطت بقرية ايتنهيم ليلا ودخل رجالهـا على الامير فأذا هو فى فراشه فاحتملوه بملابس نومه ووضعوه فى عربة أعدت لنقله وقفلوا به راجعين الى باريس . وذهب واحد منهم بكتاب من نابليون الى أمير مقاطعة بادن يعتذر اليه فيه عن دخول الجنود الفرنسـية فى بلاده بغير استئذان سابق نظراً لطبيعة العمل الذى كلف به اؤلئك الجنود فى سبيل المحافظة على سلامة فرنسـا وحياة القنصل الأول . ولم يجد الأمير أمامه إلا أن يقبل هذا الاعتذار .

وسيق الدوق إلى المحاكمة بمجرد وصوله إلى قلعة فانسين Vincennes بجوار باريس . وقد أنكر أمام الهيئة أن له أى مساس بالمؤامرة المنسوبة اليه ولـكنه اعترف بكبرياء أنه بحكم مولده وأفكاره عدو الحكومة الفرنسية الحاضرة . وأنه كان على تمام الاستعداد لحمل السلاح فى وجهها متى أتيحت له الفرصة اللائقة . فحكم عليه فى تلك الليلة ذاتها بالأعدام رميا بالرصاص وسيق قبيل طلوع الفجر الى ساحة التنفيذ على ضوء المشاعل

فأذا به يرى أمامه صفاً من الأجناد فى انتظار قدومه. فوقف أزاءهم فى هدوء أدهش الحاضرين . وقطع خصلة من شعره ثم أخرج ساعة من جيبه وسلمهما لأحد الضباط بعد أن رجاه أن يلتمس من جوزفين تقديمهما إلى البرنسس دى روهان تذكاراً لحبه لها . ثم أدار وجهه إلى الجنود قائلا :

« أنى أموت فى سبيل ملكى وبلادى ! »

وأعطيت الاشارة إلى الجنود فأطلقوا بنادقهم وخر الأمير على الارض جثة هامدة فيها سبعة ثقوب !

ويقول خصوم نابليون أن هذا كان أبشع جرم فى سلسلة الجرائم الكثيرة التى ارتكبها الطاغية الكورسيكى . وأن غريزته ونشأته الجبلية قد تكشفت فى هـــذا الحادث عن أخبث ما تتكشف عنه الطبائع الشريرة الدموية . وأنه مرضاة لعواطفه السفاحة قد ضحى بأمير ملكى وادع آمن كان كل ذنبه أن أقام بجوار محبوبته فاختطفه اختطافا وقتله أغدر قتلة .

ويقول أنصاره أن مسئوليته فى هذا الحادث تقف عند حد اصدار الأمر بالقبض على الأمير وأن الأنصاف يقضى بألقـــاء أية مسئولية أخرى على عاتق المجلس الذى تولى المحاكمة إذ لم يعلم نابليون بالحكم إلا بعد تنفيذه . لأنه كان

فى تلك الليلة قد أوقظ مرتين لشئون تافهة فنام فى آخر الأمر متعباً بعد أن منع حراسه من إيقاظه مرة أخرى . وأن رسولا أرسل اليه بعد ذلك يبلغه ما قضى به المجلس ولكنه اكتفى بتسليم رسالته الى الحراس دون أن يتأكد من اطلاع القنصل عليها فى وقتها وان اولئك الحراس عملا بالأوامر الصادرة اليهم لم يوقظوا نابليون واكتفوا بأن وضعوا له الرسالة بجوار سريره ليطلع عليها فى الصباح . وأنه لما اطلع عليها بعد هبوبه من النوم غضب على الرسول غضبة تليق بمن يهمل اهمالا لا يرجى معه التسامح أو العفو .

وأما ما يقوله نابليون فى هذا الصدد فنوعان من الكلام فهو اذا خلا بأخيه يوسف مثلا قال له : أنى أؤكد لك يا أخى أنى لم أكن أنوى لهذا الأمير المنكود الا كل خير . لقد كان عزمى بعد محاكمته أن أكسبه الى صفى بالعفو عنه . وياله من منظر جميل أن ترى بين ياوران أخيك أميرا من سلالة بيت كونديه العظيم ! »

أما اذا جلس ليحدث أحدا من رجال الدولة الرسميين وجرى ذكر هذا الحادث المشئوم فانه لم يكن يزيد على أن يضرب بيده فوق كتفه وهو يقول :

« إن على هـذا العاتق وحده تقع كل مسئولية فى مقتل الأمير . وأن صيحات البربون فى لندن لن تحملنى هنـا على الاعتذار عما كان . فانى أدين بالمثل القائل : « من اعتذر فقد اتهم نفسه ! »

***

واقترب أخيراً موعد الحـكم على بقية المتآمرين . . .

وكان نابليون قد أرسل الى بشيجرو فى السجن من يبلغه عطفه عليه وأنه ينوى التسامح معه الى حد أنه مناه بأنه سيجعله حاكم مدينة كايين (Cayenne) فى غينيا الفرنسية (أمريكا الجنوبية ; وقد أثرت هذه الشهامة من جانب نابليون فى نفس ذلك البائس الذى كان يتآمر على حياته حتى أنه لم يكد يسمع ذلك من الرسول الذى أبلغه له حتى أطرق برأسه الى الأرض ثم أجهش بالبكاء .

على أن المسكين طالت إقامته فى السجن الى مابعد القبض على دوق دنجين وإعدامه فلما بلغه أخيرا أنبـاء هذا الأمير المنكود تملكه اليأس من النجاة وفتح عليه سجانه غرفته ذات يوم فاذا هو مشنوق برباط رقبته بجوار السرير !

أما مورو فقد أدرك المحاكمة وحكم عليه بالسجن سنتين

ولكن نابليون عفا عنه وأذن له بالانسحاب الى أمريكا . وأمر بأن تشترى منه ضيعته بأكبر ثمن ممكن ثم دفع له نفقات سفره الى برشلونة ليسافر منها الى العالم الجديد .

وأخيراً سيق جورج كادودال وعصابته الى المحكمة ليأخذوا نصيبهم من القصاص . وعبثاً حاول القضاة أن يظفروا من أحد منهم بجواب مريح . فقد سئل كادودال مثلا عن محل اقامته قبل القبض عليه فأجاب :

— كنت نازلا فى عربة !

ولما طلب اليه أن يدافع عن نفسه قال :

— اذا كان حضرات القضاة يضمنون لى ميتة أجمل من هذه دافعت عن نفسى وإلا فالسكوت أولى !

وبلغ عدم اكتراث واحد من زملائه بأمر هذه المحاكمة أنه استغرق فى النوم فعلا بينما كان المحامى عنه مسترسلا فى الدفاع وقد ضحك الجمهور لذلك كثيرا الا المحامى فانه غضب لما رآه من عدم تقدير موكله لجهوده !

وفى يوم الأحد ١٠ يونيه صدر الحكم بالاعدام على ١٢ من المتهمين وفى مقدمتهم كادودال فتلقوه جميعاً بكل سكينة ثم نقلوا الى السجن انتظارا لتنفيذ الحكم . فلما كانوا هناك قال جورج لرفاقه :

« لقد انتهينا الآن من واجبنا نحو ملك الارض وبقى علينا أن نقوم بواجبنا نحو ملك السماء ! »

ثم شرع يصلى معهم

ومما يروى عن عناد كادودال أنهم أتوا اليه ذات يوم (بعد صدور الحكم عليه) برقعة فيها طلب العفو وأكدوا له بأن نابليون مستعد للعفو عنه اذا هو وقع تلك الرقعة . فنظر كادودال اليها فاذا فى أعلاها :

الى جلالة الامبراطور

— وكان نابليون قد توج امبراطورا على فرنسا — فرماها ورفض توقيعها قائلا لرفاقه :

— لنصل أيها الرفاق ! إن ذلك الشرير يريد أن يذلنا قبل أن يقتلنا !

وحدث فى الليلة السابقة على تنفيذ الحكم أن طلب كادودال الى سجانه أن يأتيه بزجاجة من النبيذ الجيد فلما جاءه بها لم يعجبه طعمها واعترض عليه بأنها ليست من الصنف الذى طلبه . فأجابه السجان بخشونة :

— انها مع ذلك لا بأس بها بالنسبة لعتُلٍّ مثلك !

فما كان من كادودال الا أن أمسك الزجاجة فى يده بكل هدوء وأحكم سدادتها فيها ثم القاها بذراعه العبل الهرقلى فى وجه سجانه فرماه الى الارض لاحراك به .

وفى ٢٥ يونيه نفذ الحكم فيه هو وأعوانه وكان هو اول الصاعدين الى الجيوتين — وكان يرقى درجها وهو يصيح :

ليحى الملك !

الفصل الرابع

نابليون الاول

أمبراطور فرنســـا وملك ايطاليا

كانت هـذه المؤامرة الهائلة سبباً فى قلق الفرنسيين على حيـاة بطلهم الذى جمع شملهم وأعلى كلمتهم ومهد لهم السبيل نحو العظمة والسيادة على كل دول أوربا . ورأوا أن شخص نابليون وحده هو الضمانة الوحيدة التى تكفل لهم بقاء ما هم فيه من العزة والرفاهية وسعة الجاه فودوا لو ارتبط الحكم فى فرنسا بشخصه طول حياته وبذريته بعد وفاته ليطمئنوا بذلك على مستقبل بلادهم وليأمنوا بعد هذا التعديل تعرض الدول الاوروبية لشئونهم وتدخلها فى نظام حكومتهم .

وقد فاز فوشيه وزير البوليس بأسبقية التقدم إلى مجلس الشيوخ ليقترح عليه إحداث هذا التغيير فى شكل الحكومة الفرنسية فتقبله منه مجلس الشيوخ مع الترحيب والتحبيذ . وفى ١٨ مايو سنة ١٨٠٤ صدر مرسوم من المجلس « يكل حكومة

الجمهورية الى الامبراطور نابليون . »

وقام موكب فخم طويل من العربات المقلة لأعضاء المجلس قاصدين ضاحية سان كلو « St Cloud » حيث يقيم نابليون ليبلغوه قرارهم ويهنئوه عليه . وهناك استقبلهم فى قصره وإلى جانبه جوزفين فتقدم اليه كامبسريس وألقى بين يديه كلمة وجيزة عدد فيها ما لقيته فرنسا على يديه من النصر والفوز العظيم . وأشار فى آخر حديثه الى أنه هو الذى أعاد اليهـا سمعتها وكرامتها . ونظامها . ودينها .

وما كاد ينتهى الى هذا الحد من خطبته حتى ضجت السراى بصيحة واحدة : هى صيحة « Vive l'Empereur ! » وأجاب نابليون على هذه الخطبة بقوله أنه يرجو أن يكون عند حسن ظن الامة بخدماته وأن يوفق الى عمل ما يستحق من أجله شرف هذا اللقب العظيم .

وعند ذلك تقدم كامبسرين لالقاء كلمة تهنئة بين يدى الامبراطورة جوزفين » فغلب عليها تأثرها ولم تجد ما تجيب به على هذه التهنئة الا ما فاضت به عيناها من الدموع .

وكتب نابليون الى البابا بيوس السابع يدعوه الى حضور حفلة تتويجه ليتولى بنفسه مسحه وتبريكه وهو يعلم ماستسبغه

هذه الزيارة من القدسية على حفلة التتويج لا سيما فى نظر الشعب . وقد لبى البابا هذه الدعوة راضياً مسرورا وتمت مراسم الحفلة فى يوم الاحد ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٤ بكنيسة نتردام فى جو من العظمة والابهة لم تشهد مثله باريس فى عهد ملوكها الاكابر الغابرين .

وكانت جوزفين تعلم مع الحسرة الشديدة أن كل هذه المظاهرة لا يرجى من ورائهـا الا الاحتفاظ بملك فرنسا لسلالة نابليون وتعلم من جهة أخرى أنها قد أقامت مع نابليون كل هذه السنين دون أن تعقب منه نسلا . وسمعت النـاس تهمس حولها بأن الحاجة سوف تدفع بنابليون إلى طلب الطلاق منها ليلتمس الولد عند غيرها . فهاجتها هذه الأقوال وفكرت فى الاحتياط لنفسها مما قد يخبئه المستقبل لها من المفاجآت . وكان زواجها من نابليون قد تم فى عهد الثورة بعقد عرفى مدنى لم يشهده القسيس ولم تباركه الكنيسة فلم تكد تجد البابا معها فى باريس حتى توسلت اليه أن يعيد عقد نابليون عليها وأن يباركهما بقداسته ولم ير نابليون أن يعترض على شيء من ذلك رغبة منه فى تطمين خاطر زوجته فتم العقد بينهما فى الليلة السابقة على ليـلة تتويجه . ولم ترقأ



نابليون فى ملابس التتويج

لجوزفين دمعة طول ليلتها من فرط تأثرها وفرحها حتى لقد كادت تذهب حمرة جفنيها أثناء حفلة التتويج بذلك الرونق الذى كان ينتظره منها الجميع .

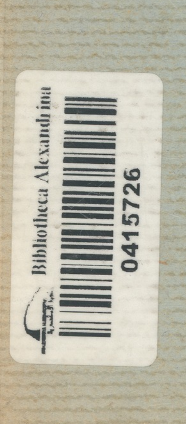
* * *

وكأنما أثارت هذه الحفلة خواطر الايطاليين فعولوا على أن لا يكونوا وراء الفرنسيين فى الاحتفال بنابليون وتكريمه والاعتراف بفضله وهو النابت فى أرضهم المنتسب إلى أسرتهم . ولذلك تقدم إليه رجال الجمهورية الأيطالية الشمالية يلتمسون منه أن يقبل تاج لمبارديا الحديدى المقدس الذى كان يزين مفرق شارلمان والذى يروى عن حديده أنه مصنوع من أحد المسامير التى خرقت كف السيد المسيح عليه السلام عند صلبه . فلم يتردد نابليون فى قبول هذه الهدية الأخرى وسافر هو وجوزفين يصحبهما البابا من باريس إلى ايطاليا وتم تتويجه هناك فى كاتدرائية ميلان الشهيرة فى السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٠٤ وكانت الحفلة بحضور البابا أيضاً غير أنه لما جاء دور التاج ووضعه على رأس نابليون تقدم هو بنفسه قبل أن تمتد يد البابا إليه — كما صنع

فى كنيسة نتردام — فتنـــاوله وركز قواعده على رأسه وهو يقول :

« الله أعطانا هـذا التاج . فالويل لمن يلمســه ! »

انتهى
الكتاب الثالث


Bibliotheca Alexandrina
0415726